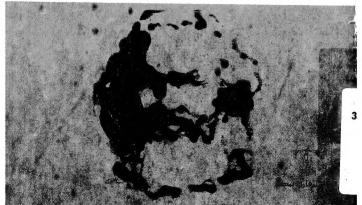


ماجعة دتقيم: و. مصطفى زيور





اهداءات ۲۰۰۳

أمرة الفرحوم الأمتاح/مدمد معيد الرسيوني

الإسكندرية

الماركسية والتحليل النفسيئ

## مكتبة الدراسات النفسية والالتماعية شيران المكتور مصطبى زير د

# الماركسية والتخليل النفسي

شائیف روبیسن|وسیورن

مراجعة وتعدي الدكتورمصبطبقي زبيور

منرحة الدكتورة سُعاد الشرقاوي



### تصدیر بنلم دکتور مصطفی زیور

إن كتابة تصدير لكتاب يعرض قضايا التحليل النفسى وقضايا المادية الحدلية بهدف التأليف بينها تلق صعوبات تختلف باختلاف الكاتب. فإذا كان محللا نفسيًّا ــ كما هو حال كاتب هذه السطور ــ مطلعاً على قضايا المادية الجدلية فسيختلف المنظور ومسار المناقشة عما إذا كان ماركسيًّا مطلعاً على قضايا التحليل النفسي . ويبدو أن المثل الأعلى أن يكون المرء محللا نفسيًّا ماركسيًّا معاً ، وهو ما لا أعرف أنه تحقق إلا لكتاب يعدُّون على أصابع اليد الواحدة ، كما هو الحال مثلا مع و إرك فروم عو وفلهلم ريخ ع . ومع ذلك يبدو أن خير ماكتب بهذا الصدد لم يتوافر لهؤلاء . ذلك أن إرك فروم اعتنق منذ هجرته إلى الولايات المتحدة ما يطلق عليه مذهب الفرويدية الجديدة، وهو مذهب ضحل ـيقوم ألدليل على ضحالته في أشهر كتبه : المجتمع السليم - مرفوض من المحالين النفسيين والماركسيين جميعاً . وقد نقده نقداً صارماً الفيلسوف الماركسي : هربارت ماركيبوز فى كتابه : « إروس والحضارة » . أما ڤلهلم ريخ فإن تطوره المؤسف فى السنوات الأخيرة من حياته أدى إلى الانصراف عنه من كلا الفريقين . ولا أعرف من المؤلفات الجادة الحليقة بالاحترام والإعجاب إلاكتاب أستاذى الراحل الطبيب وعالم النفس الفرنسي و هنري قالون ، : و من الفعل إلى الفكر ، . حقًّا إن فالون لم يكن محالا نفسيًّا ، ولكنه كان منفتحاً على قضايا التحليل النفسي ، متقبلالها. ومن الحق أيضاً أنه لم يعتنق المادية الحداية إلا في أواخر الثلاثينات ، وقد كان تتلمدي عليه في أوائلها . غير أن كتابه المذكور يمتاز بأنه تطبيق بارع يستند إلى الحبرة التجريبية - الممج المادى الحدل في ميدان تخصصه ، أعنى علم نفس الطفل. وهو في ذلك يشبه ما انسي إليه عالم الطبيعة الفرنسي المشهور : بوللانچفان .

والآن ما الذي يدعو إلى إقامة مناظرة بين التحليل النفسى والمادية الجدلية . . تنبغى الإشارة أولا إلى أن قضايا الميدانين تؤثران منذ نحو ربع قرن تأثيراً عيقاً على الفكر المعاصر وبخاصة في العلوم الإنسانية . وفضلا عن ذلك إسهما يعالجان الموضوع نفسه أعنى أحوال الإنسان وقدره المصنوع بصنعه، ومحاولة الإمساك بزمامها وتوجيها توجيها يرفع عن الإنسان شقاءه

غير أن أهم ما يلفت النظر هو التشابه العميق بين ما قلمه لنا كل من ماركس وفرويد من حيث الكشف عما يمكن أن نطلق عليه الشعور الزيف ووبعارة أخرى يشترك ماركس وفرويد فى فض المجهمة . الأولى فى ميدان البنيان الاقتصادى التاريخي فى المجتمع الإنساني ، والثانى فى ميدان النفس الإنسانية بما فى ذلك تاريخ حضارها . وبعبارة بسيطة قد عالج كل مهما ما هو و إنسانى ، فالتقيا بالزيف ، وكشفا عنه على نحو عقرى ، بالرغم من اختلاف المنظور لدى كل مهما .

لقد درج الفلاسفة منذ عهد ديكارت على الشك فى الأشياء . ولكن الشعور أو الومي كان السند والفيصل الذي يحكم به ويستند إليه بوصفه مصدراً لليقين . ولكننا منذ كشوف ماركس وفرويد أصبحنا نرتاب فى الومي نفسه ، وأدركنا ما يتصف به من المبهد والمجهلة .

وقد يتسامل القارئ ما العلاقة بين التحليل النفسى وهو فن طبى يبدف إلى علاج الأمراض النفسية بناء على الكشوف إلى القت الفسوه على مجاهل النفس وها يعتلج في أعماقها من صراع لا شعوري ، وبين الماركسية وهى مذهب اجهاعي سياسي يبدف بلي تغيير جذري في علاقات الإنتاج بهدف تحقيق الإنصاف بين أفراد المجتمع . سبق القول بأن التحليل النفسي والماركسية يعالجان موضوعاً واحداً : الإنسان في حضارته وما يعانيه من ضيق وضيم واغراب من جراء أوضاعها . ولايظنن القارئ أن فرويد لم يتعرض لحلما الموضوع إلا في مؤلفاته المتأخرة : وكدر في الحضاره و و مستقبل خداعة و وما إليهما، وكأنه أحرك في آخر الأمر أن ما كشف عنه من أسباب التوعك لدى الفرد هي هي ما ينغص على الناس عيشهم المبداية إلى العلاقة الرئيقة بين ما يصدق على الفرد متوعكاً ، وما يصدق على مقومات فلك الخضارة في مختله و تفسير الأحلام ، الحضارة في مختلف أشكالها . ويجد إرهاصات ذلك كله في كتابه و تفسير الأحلام المنقطة في صدر سنة مخا و اللهذي جاء في أعقابه و الإبداع الأدبي وأحلام اليقطة ،

( ۱۹۰۸) ، والطوطم والتابو ( ۱۹۱۳) و وخواطر عن الحرب وعن الموته و ( ۱۹۰۸) وغيرها . وبعلم القارئ أن حصيلة ما حاوله ماركس هو فضح العلاقة بين البناء الاقتصادى التحتانى ( قوى الإنتاج ) وبين البناء العلوى النفسى وما أسفر عنه ذلك من اغراب الإنسان . ومن ثم فإن القحص العلمى في حقلي التحليل النفسى والماركسية ، جمل الفهم العلمى ضرباً من المرمينوطيقا ( إذا صبح استخدام هذا المصطلح الأرسطى ) على حد قول الفيلسوف بول ريكور ، أى أن البحث عن الحقيقة ، عن المعى العمين ، لم يعد يتجه إلى فحص المعى الشعورى ، وإنما إلى فض ألغازه في تمييراته المتخفية .

إن ما يرمى إليه ماركس هو تحرير و البراكسيس » من خلال فهم كامل لفعل الضرورة . ولكن هذا التحرر لا ينفصل عن إدراك فطنة واعية بالحقيقة تملك القدرة على الإطاحة بمعميات ومهمات و الشعور الريف » . وإن ما يهدف إليه فرويد في حقل الملاج ، هو أن يمكن الفرد من امتلاك معى ظل عنه غربياً فيوسع بذلك رقعة وعيد ، فيلغى اغرابه ، ويطيب فعالمًا بما كسب .

وتأييداً لهذه المقارنة التي عقدناها بين منظور الماركسية ومنظور التحليل النفسي ، نقدم ماكته إنجلز عن طبيعة الأيديولوجيا . يقول إنجلز : د إن الأيديولوجيا علية من نتاج مفكريتوهم أنه مدرك واع لما أنتج ، ولكنه في واقع الأمر لا يملك إلا وعياً (شعوراً) زيقاً . ذلك أن الدوافع الحقيقية التي حفزته نظل مجهولة منه ، وإلا لما كان الأمر أمر أيديولوجيا . ومن ثم فهو يصطنع دوافع ظاهرية أو زائفة » . ولا يفوت القارئ أن لفظ مجهولة يمكن أن نستبدل به لا شعورية ، وأن لفظ ظاهرية يمكن أن نستبدل به لا شعورية ، من قضايا التحليل النفسي المشهورة .

فإذا كان الأمر كذلك فلم كانت هذه القطيعة بين الماركسيين والمحللين النفسيين ، التي ظلت خقبة طويلة ، فكان أولئك يتهمون هؤلاء بالمثالبة والبورجوازية. وهي أخطر الاتهامات في نظر الماركسيين .

ويقتضيني السياق الآن أن أذكر بعض ما قاله فرويد عن الماركسية بوصفها ضرباً من!! Weitanachauung (نظرة إلىالكون). يبدأ فرويد حديثه عنالماركسية

بقوله : ١ إنني آسف أشد الأسف لقصور معرفي بها .... إن بحوث كارل ماركس في البناء الاقتصادي للمجتمع وفي تأثير الأشكال المختلفة التنظيم الاقتصادي في كل مجالات الحياة الإنسانية قد أصبح لها اليوم نفوذ لا يجحد .... من الجلي أن قوة المذهب الماركسي لا تقوم على نظرته إلى التاريخ أو على التنبؤات المستقبلة التي يبنيها على هذه النظرة ، بل على إدراكه الواضح لفعل الظروف الاقتصادية وتأثيرها الحاسم في الإنتاج الفكرى والفنى والحلقي للإنسان . وهكذا أميط اللغام عن طائفة بأسرها من الصلات والتتابعات العلية التي كادت تكون مجهولة إلى هذا العهد . غير أنه لا يمكن التسليم بأن الدوافع الاقتصادية هي الدوافع الوحيدة الى تحتم سلوك الناس في المجتمع. فمما لا مراء فيه أن مختلف الأفراد والشعوب والسلالات، لا يكون سلوكها واحداً في نفس الظروف الاقتصادية . وهذه حقيقة تبرهن بذاتها على أن العامل الاقتصادى لا يمكن أن يكون العامل الحاسم الوحيد . بل المحال أن نفهم كيف يغض النظر عن العوامل النفسية عندما يكون الأمر أمر استجابات كالنات بشرية حية ، لأن هذه العوامل لا تساهم في إقامة الظروف الاقتصادية فحسب ، بل تحدد كذلك أفعال الإنسان ، والإنسان لا يستطيع أن يعمل ، حتى وهو يمتثل لهذه الظروف ، إلا بدافع من نزعاته الغريزية كغريزة المحافظة على النفس ، وحب العدوان ، والحاجة إلى الحب ، هذا إلى ما لديه من دافع إلى التماس اللذة وتفادي الألم . ولقد أكدنا .. الدور الذي يقوم به الأنا الأعلى ، تلك السلطة التي تمثل تقالبد الماضي ومثله ، والتي تقاوم الضغط الذي تفرضه الظروف الاقتصادية الجديدة ، لمدة من الزمن . وأخيراً يجب ألا ننسي أن جمهرة الإنسانية تغشاها ــ وهي خاضعة للظروف الاقتصادية ــ علية تطور ثقافي يسميها البعض بالحضارة ، وهي عملية تتأثر من دون شك بجميع العوامل الأخرى ، لكنها مستقلة على التحقيق عنها من حيث نشأنها . فهي شبيهة بعملية عضوية ، وتقدر بذاتها على التأثير في العوامل الأخرى . فهي تبعد الغرائر عن أهدافها الأصلية ، وتحمل الناس على أن يثوروا على ما كانوا يبيحونه ويحتملونه من قبل . ويبدو فوق هذا أبن التوطد المطرد للروح العلمية إحدى نتائجها الأساسية . فن أراد أن يجعل من المذهب الماركسي علماً حقيقيًّا من العلوم الاجتماعية تمين عليه أن يجلو الدور الذي يقوم به كل واحد من هذه العوامل المختلفة تفصيلا، أى يتمين عليه أن يدر س الاستعداد الجبلتي العام للإنسان ، وتفاوته تبعاً للسلالة ، وتحوره بفضل الثقافة ، وكيف يتأثر بالظروف الاجهاعية المتغيرة وأوجه النشاط لمهمى وطرق كسب الرزق ، وكيف تتضافر هذه العوامل المختلفة بعضها مع بعض . أو يتنافر بعضها مع بعض » .

يبين منهذه الفقرات أن فرويد يقدر بحوث ماركس في البناء الاقتصادي للمجتمع ويعدها اكتشافات لها خطرها في إلقاء الضوء على وطائفة بأسرها من الصلات والتنابعات العلية التي كادت تكون مجهولة إلى هذا العهد ، وأن الأهمية القصوى لاكتشافات ماركس ترجع إلى و إدراكه الواضح الفعل الظروف الاقتصادية وتأثيرها الحاسم في الإنتاج الفكري والفني والحلمي للإنسان، ، ولكنه يأخذ على ماركس إغفاله التام لسيكولوجية الإنسان بما هو إنسان ، تحفزه دواقع متناقضة ، تتصارع في معظم الوقت في غفلة عن شعوره ، تحت ضغط مبدأ الواقع في نضاله مع مبدأ اللذة . ذلك أن كشوف التحليل النفسى تقيم الدليل الحاسم على أن الإنسان ينصف بثناثية الوجدان ambivalence يحب ويكره معاً ، بل يريد الحياة ويريد الموت ، فضلا عن أنه يتصف بثنائية المعنى embiguity يرى ويميل إلى الشيُّ ونقيضه ، أي الموجب والسالب ، حتى اتسم اللوغوس في بعض كيانه بالأضداد ، تعبر الكلمة عن الشي أو نقيضه . بل إن السلب negativity ﴿ وَهُو بِلَغَةٌ فُرُوبِكُ خُرِيرَةً الْمُوتَ وَبِلَغَةً مَارُكُسَ نَقَيْضُ الْأَطْرُوحَةُ ) يَبْدُو لَنَا الروم مكوناً أساسيًّا في أحوال الإنسان ، يلعب دوراً هائلاً في الوجود والعدم جميعاً منذ أن نبه إلى ذلك هيجل في تصدير كتابه و فنومنولوجيا العقل؛ مسجلا و القدرة -الهائلة للسلب ، طاقة الفكر للأتا الحالص ... إن العقل يظفر بحقيقته بشرط واحد هو العثور على نفسه في التمزق المطلق .. وما العقل إلا هذه القدرة تقوى على مواجهة السلب وجها لرجه ، وكذلك تقوى على أن تسكن بجواره ، .

حقًا إن ماركس يخترق الصعاب فى محاولة يوتوپية، من خلال جماع الأطروحة فى إطار كشوفه فى حقل الاقتصاد الاجهاعى . ومن الطريف أن نذكر أن فرويد كان ماديًا جدليًا نجمنى خاص عندما سجل فى حقل كشوفه الصراع بين الرغبة والدفاع ، (وهما طاقات بيولوجية أى مادية) والتسوية الموقفة بيمها (جماع الأطروحة) فتكون المرض . ومن الحق أن الأطروحة) فتكون المرض . ومن الحق أن فرويد كان أقرب إلى التشاؤم في نظرته إلى الكون Weltanschamung بناء على ما أسفرت عنه لا بحوثه الإكلينيكية فحسب بل فحصه لمقومات الحضارة وأحوال الإنسان فيا من ألوان المعاناة والشقة والشقاء ، كتيجة حتمية لدوافع التدمير (خريزة الموت): تدمير اللمات وقدمير الآخرين .

ومن الإنصاف لماركس أن تقرر أن ما يأخده فرويد عليه من إغفال دوافع الإنسان الغريزية يمكن الإجابة عنه بقول ماركس: و إنني لست ماركسياً ، وهو يعني بذلك من غير شك أن باب الاجتهاد لم يقفل ولا ينبغي له أن يقفل . ومن الإنصاف الماركسين أن نادكر أن بعض فلاسفتهم المماصرين فطنوا للملك وأخص بالذكر هربارت ماركيوز وبخاصة في كتابه والروس والحضارة ، وفيه نراه ينطلق من قضايا التحليل التنمي الأساسية ثم يحاول تطميماً مستمداً من القضايا الماركسية وبخاصة في مفهوى الكبت وببدأ الواقع ، بحيث يتضمنم من القضايا الماركسية وبخاصة في مفهوى الكبت وببدأ الواقع ، بحيث يتضمنم الكبت ويتحول للى ما أطلق عليه الكبت الوائد ، وبعد هذا الكتاب الذي مبدأ العائد في إطار مبدأ الوقع منهياً إلى اقتاري عاولة أحرى في طريق التكامل بين التحليل النفسي والماركسية .

#### مقدمة المؤلف

كتبت هذا الكتاب لحث الماركسيين على دراسة التحليل النفسى ، ولدفع المخلين النفسي ، ولدفع المخلين النفسانيين لمعرفة الماركسية ، معتقداً من ناحية أخرى أن الجمهور الكبير من حقه أن يعرف هدين النظامين في مجموعهما .

وكتابى هذا عاولة لإيضاح العلاقات بين الحياة الذائية للإنسان ، كما وصفها فرويد ، وبين العالم الموضوعي للركيبات الاقتصادية والاجماعية التي قامت الماركسية بدواسة قوانين تطورها الأساسية . فالرسالة الأساسية لملذا الكتاب هي أن النظرت الفرويدية والماركسية تكون عاولات عتلفة للوصول إلى معرفة الطبيعة الإنسانية . وهذه المحاولات ليست متناقضة بل متكاملة وثيري كل منها الأحرى .

ويمكن أن نعبر عن وحدة هذه النظريات بالطريقة الآتية : كل من الفرويدية والماركسية ترى الإنسان خاضماً لقوى لا معولة تعرقل تطور وجوده وتعوقه . فبالنسبة للماركسين تنتمى هذه القوى المعرقلة إلى العالم الاقتصادى والاجماعى ، عالم لم يوفق إلى إنماء نفسه ينفس قدر نمو الإمكانيات الى اتاقيمها له التقدم التكنيكي والعلمي . أما بالنسبة لتلامية فرويد فإن اللامعقولية للدى الناس استمرار طوق الامعقولية الناس المعمقولية وبقاء هذه العلوق حتى بعد البلوغ . فالصفات الملامعقولية اللى يتم بها العلمولة وبقاء هذه العلوق حتى بعد البلوغ . فالصفات الملامعقولة الى يتم بها العلمولة وبقاء هذه العلوق حتى بعد البلوغ . فالصفات الملامعقولة الى يتم بها العلمولة وبقاء الماء الاحتمام الماء الاحتمام المناسبة الاحتمام على عالم لا معقول في عالم لا معقول مرتبطنان بطريقة لا يمكن فصلها .

فأما بالنسبة المماركسين فإن أهمية آلواء فرويد قد تضاعفت بعد أن تكشفت وحشية النظام الستاليمي . إن حركة مدعمة بالأفكار الفرويدية تكون أكثر يقظة أمام أخطاره الستالينية ، ما كانت تجد نفسها لا تخلك الدفاع عن نفسها . وقد أكدت في كتابي السابق «فرويد وماركس» (١) أن هناك خطورة

<sup>(+)</sup> 

من العمنى السيامى الذى سمح بظهور شخص مثل ستالين . واليوم أعود إلى مهمتى وهى إقناع الماركسيين بضرورة 'إدخال نظرية التحليل النفسى فى مذهبهم .

وأما بالنسبة لغير الماركسيين وكذلك بالنسبة لأعداء الماركسية ، فأقول لهم الآنى: إن الماركسية مذهب ملايين من الأشخاص ، مذهب يلهم سياسة حكومات كثير من الدول . فالجهل به أو الإلمام السيئ به يمكن أن يسفر عنه هلاك الإنسانية . إن الهديد بتدمير نووى يرزح طبينا جميماً وأكبر الفلن أن المدال التحديد له سوه التفاه أو الشكوك المبنية على الجهل لا على النيات الشريرة للحكومات . حقاً إن القول بأن تبديد هذا الجهل كاف لإبعاد هذا الهديد يعد ضرباً من المفالاة في التفاؤل . ومع ذلك فإن التزود بمطرمات أفضل يعد خطوة نحو علم متحرر من الهديد بتدمير نووى ويصبح في الإمكان أن ينشأ فيه تعايش سلمى ، بشرط أن يعرف هذا العالم كيف يحتفظ باليقظة بصفة .

إن نظريات فرويد وماركس لاترال تسيطر على عصرنا. ، وهي تشحد البحث والفكر في مجالات عديدة وبرخم أن أسسهاؤكانت موضع فيض من الانتقادات ولهممات فإنها ما زالت وقعية أكثر من أى وقت مضى لأنها تحيى حقالتي تهمنا .

وقد حاولت في هذا المؤلف أن أصف هذه النظريات بطريقة أمينة وموضوعية ، وقد بدا لى أنه من الفسروري أن أسرد أقوال فرويد وماركس وأن أتركهما ، يقدر الإمكان يتكلمان بنفسيها .

وفي اعتقادي أنه بغير معرفة ما قاله وماكتبه هذان الرجلان العظيان لا يمكننا فهم هذا العالم الحديث الذي هو عالمنا .

# الجدزه الأول

عرض نظريات فرويد

#### ١ ـ تركيب العقل

ترتكز نظرية التحليل النفسى على مبدأ أن التفكير والنشاط مشتقان من ميكانيكية بعيدة عن تحكم الشعور وتعرف باصطلاح واللاشعورة وصد فرويد يعر واللاشعورة عن شي أكثر من فكرة الميكانيكيات المعيدة عن الشعور ، مثل اختران الأحاسيس الى تصبح لا شعورية بمرور الزمن ، وقد ركز فرويد برجه خاص على الطبيعة الإيجابية والصفة الديناميكية لهذه الميكانيكيات اللاشعورية . الى تنثر في أفكارنا وتحدد حركاتنا الشعورية .

تعرضت هذه الفكرة عن الميكانيكيات النفسية اللا شعورية لانتقادات كثيرة، وبخاصة في الأوساط الفلسفية ، لأنها يمكن أن تبدو متناقضة في ظاهرها . فحسب هذا النقد ، أى واقعة نفسية هى ، بحسب تعريفها ، واقعة شعورية ومن هنا يستحيل القول إن هناك واقعة نفسية لا شعورية ، وهذا يعنى أنه يمكن وجود وقائم نفسية لا تعشى مع التعريف .

والواقع أن الحلاف هنا خلاف حول الكلمات وتركز النقطة الأساسية في معرفة هل يمكن اعتبار كلمتى: وشمور » وه نفس » مرادفتين . الشعور كلمة من الصعب إن لم يكن من المستحيل تعريفها. إذ عندما نحاول تعريفها تلجأ إلى مصطلحات مثل و إحساس » وهذه تحتاج بدورها إلى تعريف . ويبدو أنه يجب علينا أن تقبل فكرة أننا نعرف ما هو « الشعور » حتى إذا كان من الصعب شرح ماهيته . وتلتي هذه الفكرة مع فكرة فرويد الذي كتب بهذا الصدد يقول : « لا حاجة بنا لمناقشة ما نريد أن نقوله عندما نتحدث عن « الشعور » إذ يتعلق الأمر بفكرة واضحة جلية » .

ويقول فرويد فى موضع آخر؛ نحن نطلق لفظ ولا شعور، على ميكانيكية تفسية نجد أنفسنا مجبرين على الاعتراف بوجودها لأتنا نستشجها من مظاهراتها بدون أن نعرف عنها شيئاً . وبعبارة أخرى ، يبدو أنه فى مناسبات معينة نتكلم ونسلك على نحو يبرهن على وجود ميكانيكيات (حيل) داخلية تنصف بكل سمات الحياة النفسية فيها عدا سمة الشعور .

ولتتأمل مثلا ظواهر وما بعد التنويم المفناطيسي، التي تثبت بطريقة جلية وجود وقائع نفسية لا شعورية .

فخلال جلسة تتوجم مغناطيسى يتلقى الشخص بواسطة الإيماء أمراً بالقيام بعمل بعد أن يستيقظ , وعندما يأتي هذا العمل يبدو كما لوكان قد نسى ماجرى خلال الجلسة ، ولكنه يشعر مع ذلك أنه كان مرضماً على إطاعة الإيماء . فيفتح مثلاً نافذة في ساعة معينة , وإذا ما سألناه عن سبب ذلك يرد بأن الحجرة سيئة الهوية وهو رد يم عن أنه لا يشعر أن سبب عمله هو تتيجة الإيماء الذي بالمقام سلقاً . فالإيماء حرك سلسلة من الأعمال النفسية التيت يفتح النافذة . وهذه الشيخة تؤكد حسب رأى فرويد وجود ميكانيكيات نفسية لا شعورية .

وهناك أمثلة أخرى يمكن استخلاصها من الحياة اليوبية عن أعمال نفسية يبدو أنها تم خارج الشعور ، وهي تصوغ ، في الشعور ، إجابات سريعة لمشاكل تستعمى على البحث الشعوى . فكثيراً ما ننام وفكرنا مشغول بمشكلة وبعد مرور فرة زمنية معينة يظهر الحل كما لو كان العقل جاداً في التفكيرباستمرار في المشكلة بلين أن يخطر الشعور بلدك .

فزلات اللسان والقلم وكثير من الأخطاء اليومية تشير أيضاً إلى تعدُّ على الشعور . وتؤكد النظرية القائلة بتولد أعمال نفسية لا شعورية .

ويضرب فرويد مثالا طريفاً على ذلك فى كتابه وعلم النفس المرضى المحياة اليومية ، (١) . ودها شخص ثرى غير كريم بعض أصدقائه إلى سهرة المصقة . ومر كل شي على ما يرام حتى الساعة الحادية عشرة والنصف مساء ، حيث حان وقت الراحة لتقديم وحية العشاء المتنظرة . ولكن خاب أمل الفيوف عندما قدمت لهم شطائر صغيرة وعصير فؤاكه . وكان موحد الانتخابات يقترب وتطرق الحديث إلى المرشحين المختلفين . واحتدم النقاش وتحمس أحد المصجين يمرشع الحزب التقدى فقال موجهاً كلامه للمضيف : ويمكن أن يقال عن

و تيدى ، الكثير ، ولكن هناك أمراً يقينياً وهو أنه يمكن الاعهاد عليه دائماً فى القدم وجبة شريفة و "Square Meal" ، وكان يريد أن يقول برنامجاً سياسياً شريفاً و "Square deal" ، وأغرق الحاضرون فى الضحك فى حبن تحرج الضيف وللضيف اللذان أدركا ما وراء هذه الزلة »

وتؤيد النظرية الحديثة في مادة علم أمراض المجموعة العصبية ، فكرة الأعمال النفسية النشرية الحداث النفسية نابعة من نشاط النفسية اللاشعورية . فإذا قبلنا فكرة أن جميع الأحداث النفسية نابعة من ملايين الحلايا العصبية ) دائماً في حالة نشاط يعطى أساساً فسيولوجيًّا لفكرة الأعمال النفسية اللاشعورية . هذا النشاط اللحائي لا ينهى في الواقع عند نقاط تعد بصفة مستمرة مقر الشعور ؛ ولا شك أن فرويد الذي طالما تمني أن تؤكد اكتشافات علم أمراض المجموعة العصبية نظرياته كان يبدى اهياماً كبيراً بالأبحاث المنبة على معطيات رسام المنخ الكهربائي (١٠) .

كان فرويد يميز بين درجتين في لا شعور الحياة النفسية . أولا كان يميز الميكانيكيات النفسية التي برغم كوبها لا شعورية يسهل تذكير الشعور بها . ولتعريف هذه الميكانيكيات استعمل اصطلاح ما قبل الشعور Preconsient . فأنا أستطيع مثلاً أن أقول إنني أشعر في هذه اللبحظة بضيفط القلم على الوقة وبيياض الورق ، وبالميسيني التي تعزف على البيانو في الحيجرة الحجارة . وإذا ما طلب مني أخيى رقم تلفون أتوقف وأتذكره دون جهد كبير . ويصبح هذا الرقم شعورياً ، وبنفس المهي يمكن التحدث عن نحول المعرقة الذهنية اللا شعورية إلى معرفة ذهنية شعورية ، أي أن ما قبل الشعور أصبح شعورياً (؟) .

ولكن ليس هذا المعنى للاشعور هو الذي يكون الفكرة الأساسية في نظرية فرويد . ففرويد يؤيد فكرة أن هناك أعمالاً نفسية لا يمكن أن يتذكرها الشعور إلا بصعوبة كبيرة . وقد اكتشف فرويد هذا اللاشعور عندما كان يحاول أن يحيى ذكريات الطفولة ، فوجد نظاماً مانماً وادعاً يجهض كل المحاولات الهادفة

Le préconcient est devenu conscient (γ)

للى تحويل العناصر أللا شعورية إلى عناصرشعورية . وقد كتب فرويد في هذا:

إن نظرية التحليل التنمسي تستند في الواقع على الإحساس بمقاومة المريض عندما تحاول جعله شاعراً بما يكمن في لا شعوره . ويشهد على سحة هذه المقاومة وحقيقها كون معاونة المريض للطبب تترقف أو تبتعد كثيراً عن موضوع النقاش، النسان ، بمعنى أنها ذبلت بمرور الزمن ، تكون في تصور فرويد قد كبتت . النسان ، بمعنى أنها ذبلت بمرور الزمن ، تكون في تصور فرويد قد كبتت . الفريدية هو أن ذكريات الطفولة هذه ، مع كوبها مكبونة ، تستمر في نمارسة تأثير هام على التفكير والشاط اليوي . فالكبت حسبها يراه فرويد هو المرادف السيكولوجي للتركيب الفسيولوجي الذي مؤداه أن الجزء المصاب بمرض يعزل عن بقية الجسم بواسطة خلاف من الأنسجة بحميه .

شبه فرويد فى كتاباته الأولى قوى القمع أو الردع بالرقيب. وكان يقارن العقل ببناء مكون من ثلاثة طوابق . يعيش فى الطابق العلوى أعضاء جديرون بالاحرام من عائلة الشعور ، وفى الدور الأسفل تعيش عائلة ما قبل الشعور ، أناس هادئين مسموح لهم بزيارة جيراجم القاطنين فى الدور الأعلى . صحيح أن هناك جنديًا من البلولس ، يقف على السلام المؤدية إلى الدور الأعلى ، ولكنه ربحل طيب ، من النادر أن يمنع الزيارات . وعلى المكس يشكل سكان الطابق الأسفل و البدروم ، مجموعة غير مهذبة ويشاغبة تسمى جاهدة إلى تحظى عسكرى المرور المتعب الذى يقف بها وبين عائلة ما قبل الشعور . ويقتنص أحد أعضاء عائلة اللاشعور فرصة فرم عسكرى البوليس » ويلح إلى الطابق الأعلى متخفياً فى صورة غير هجوبية وسالمة . ويصور لنا عساكر المرور بطريقة طريقة الوقية القوى الرادعة أو الزاجرة .

ولطالما وجه إلى فرويد اللوم لاستعماله كلمات كانت تبدو منطبقة على وحدات حقيقية داخل العقل مثيرة لمصورة عالم غريب له سراديب تسكنه مخلوقات عجيبة شبيهة بالإنسان . والسبب في ذلك يرجع إلى أن فرويد أنشأ كتاباته

<sup>(</sup>١) اغتار النصل الثائي.

قبل أن تكوين مصطلحات مثل و متغيرات و variables و و نواتيج resultantes و قراتيج variables و من تقديم تصوير من لغة علم النفس ولكن فرويد حدد أن هدفه من ذلك كان تقديم تصوير رمزى لجوهر أنشطة العقل . وأعلن أن تصبوراته تؤدى الوظيفة نفسها التي تؤديها: تصبورات الموجة والإلكترون والطاقة في علم الفيزياء والتي تهدف إلى تأصيل بعض أوجه التجربة والمعرفة الإنسانية التي قد تبدو مبعثرة في نظرية معقولة . وقد دافع عن هذه الإيضاحات في مقدمته لعلم النفس معترفاً بأنها قد تبدو أحياناً فظة .

وقد بدا لفرويد أن تقسيم النشاط النفسى إلى شعور ، وما قبل الشعور ، ولا شعور يعطى صورة استاتيكية جدًّا للعقل . لذا أدخل بعض تصورات ثير هذا النشاط بطريقة أكثر دقة عندما استعمل تصورات الأتا الأدنى ، والأنا ، والأنا الأعلى ، وهي ما أتعرض لشرحه فيا يلي .

ففكرة الأنا الأدنى أدخلت لتصوير الأوجه اللا شعورية من الحياة النفسية والتي تندخل في صراع حنيف مع الأفكار التي يقبلها الفرد بسهولة والتي تأثيه من أسرته ومن تجربته في الحياة الاجتماعية وقد استعار فرويد الاصطلاح المبتكر و ES3 من نيشة ، لأنه بدا له مناسباً تماماً ، باحتباره مشتماً من الضمير غير الشخصي في اللغة اللاتينية ، للتعيير عن تنافره مع الألكار الشعورية . ولأنا الأدنى وهو ذلك الشيء الذلك يغمرنا عندما مجد أنفسنا مجبرين على التصرف ضد المدوق المام أو النظام القائم وتميل إلى وصف هذه الاندفاعات بجمل من قبيل و كنت مرضماً على » أو و لم أستطع أن أمنع نفسي » ، كما لو كانت أموراً غرية عن شخصيتنا » .

ويغطى و الآنا الأدنى و الحاجات البدائية الغريزية العلبيمة الإنسانية التي لا تتأثر بالاعتبارات الآحدائية أو الاجتاعية . وخصائص الآنا الآدنى التي شدد عليها فرويد بصفة خاصة هى : رغبته المطلقة فى الحصول على إشباع ، وفساده ، وضافاته للأخلاق . وهو يحوى ما سمى بغريزة الحياة وغريزة الموت وكذلك الحصائص الورائية المتعلقة بالعالم الحيوانى . ومن ناحية أخرى تلتى بمجرى الآنا الآدنى التجارب المكينة لآنها شديدة الإيلام الشعور . ويسيطر على الآنا الآدنى ومبدأ اللدة ،

أى أن الأنا الأدنى يطلب إشباعاً مباشراً ومطلقاً بدون أن يشغل نفسه بظروف الزمان أو المكان.

وإذا ما وجد جهاز إنسانى مستكين تماماً لرحمة ميول الأنا الأدنى فإنه سرعان ما يجد نفسه أمام مشكلة ، بل إنه ربما يهلك بسرعة لأن العالم الحارجى لا يعطى إشباعاً مباشراً وغير متوان لرغباته ويتعين عليه تأجيل هذا الإشباع إلى أن تحين الظروف الملائمة التى تسمح بالحصول على الإشباع في أمان تام .

يسيطر الأنا الأدنى لدى الطفل الصغير لذا يصرخ الطفل لينبه لما يريده . ولكنه يتملم بالتدريج أن هناك حدوداً لإشباع رضاته . فوالداه لا يستجيبان دائماً بسرعة لما يريد وأحياناً يعاقب إذا ما أبدى رضة ما . وتؤثر على الطفل التجربة المؤلقة والى مؤداها أن العالم لا يرضح بسهولة لرضاته فتحدث تغيراً في والأنا الأدنى، الدى يفدو متنباً إلى حد ما للعالم الخارجي منبهاً له وشاعراً به . هذا التعديل الذى يطرأ على و الأنا الأدنى والذى يكتسب بمقتضاه الأنا الأدنى حساسية بالمعالم المخارجي أمهاها فرويد و الآنا و . ولا نعرف كيف يم تحول الأنا الأدنى أن المورد مطلب أسامي بالنسبة للنظرية الفرويدية ولكننا يمكن أن نفرض أن صدمة الواقع الخارجي مؤثرة على أساس أنها عامل عدد ، تحرك عملية النضيج وتؤدى إلى ظهور شعور ومعقولية في الحياة النفسية .

إن مهمة الآنا ، حسب تصور فرويد ، هى تغنيق طلبات الآنا الأدنى والسمى لإشباحها إضباعاً واقعياً . وبعبارة أخرى تضع فى وجه و مهداً اللله ، المسيطر على الآنا الأدنى ومبدأ الله المليطر على الآنا الأدنى ومبدأ الله الملاحي . ويقول فرويد و قصارى الأدنى المدف المحور على إشباع فى العالم الحارجي . ويقول فرويد و قصارى الكلام أنه يجب على و الآنا ء أن ينفذ رغبات والآنا الأدنى ، ويكون قد أدى واجه عندما ينجح فى العثور على الظروف التى تسمح لهذه الرغبات بأن تتحقق على أحسن وجه . و يمكننا مقارنة علاقات الآنا والآنا الأدنى بالعلاقات القائمة بين القارس وحصاده . فالحصان يقدم الطاقة الناقلة ويمتغظ القارس بامتياز يقديد . ولكن غالباً ماينشاً بين و الأنا ، تعديد الهدف وقيادة حركات الحيوان القدير . ولكن غالباً ماينشاً بين و الأنا ، ووالأنا الأدنى ، موقف أقل مثالية من موقف الفارس الذي يجب أن يقود ركوبته

نحو المكان الذي يريد أن يصل إليه ، (١) .

نستطيع أن نلخص الحصائص الأساسية للأنا كما يراها فرويد على النحو التالى : الآنا يتحرك باعتباره همزة الوصل بين الأنا الأدنى والواقع الحارجي . وبرغم أن علاقة الآنا بالأنا الآدنى تظل لا شعورية إلا أن علاقاته بالعالم الحارجي تكون شعورية . وتكون محكومة بمبدأ الواقع وهو مبدأ يستغل إمكانيات العالم الحارجي في مواجهتها لمبدأ الللة المسيطر على الأثا الأدنى . ومهمة الأنا التي هي طاعة مبدأ الواقع تتكون أيضاً من الاحتفاظ برقابة على إمكانيات الميكانيكيات النفسية التي يمكن أن تحرق قواعد الشعور . وبعبر الأنا عن نفسه بواسطة اللغة .

ومع ذلك فإن الآنا يتكون خلال السنوات الأولى للحياة حيث تكون الصلات العاطفية التي تربط الطفل بوالديه أقوى ما تكون، فأنا الطفل الصغير يكون من الفحمت بحيث لا يقدر على مواجهة إلحاجات الأنا الأدنى . هذا الأنا يقوى بفضل سلطة الأبوين . فأوامر وتعليات هذين الأبوين التي تأتى من الحارج بالنسبة الطفل يسجلها عقله باعبارها ممنوعات قوية ، وتنشأ عملية توحد(٢) يكون

Frend: Nouvelles conferences, p.25 (1)

<sup>(</sup>٧) أالتوحة Stensification : انظر معجم المسطلحات في مؤخرة كتاب ثلاث مقالات في نظرة الحاب ثلاث مقالات في نظرية الحنية تأليف سيجمول فرويد ترجمة سامي محمود على يوراجمة معطن زيور ، دار الممارك ، ١٩٩٣ ، ص١٩٧٧ : ترجه : من المفاهم الأساسية التي يختمين بها التحليل الناسي على تفسير نفأة الشخصية وتكويها عن طريق تمثيل الطفل خصائص والديه أو من يقوم مقامهما.

والترجد بخطف من الهاكاة اختلافاً جيوبرياً . فالهاكاة عملية شعورية تصدية يضع بها الدود نفسه مؤقدًا مؤسم فرد آخر نيسك على نحو ما يسلك دون أن ينتج من ذلك تديير جيوبري في شخصيت . أما الترجد فيور حلى الفند ... حملية الانمورية ذات تأثير عميق دائم ، تشكل به أنية الشخص وفقاً الأية شخص آخر تربعه به رابطة افتعالية قرية . وفالأنا يسمى إلى التنب بمن اتخلد نمونجهاً يحتذيه ه .

و بهز التحليل التضمى بين تومين من الترحد ، التربيد الأولى الذي يمدت في الأشهر والدنوات الأولى من مراحل تم المقلي بولي : 
من مراحل تم الطفل وبه يصبح الطفل ما هو يتمثله شخصية والديه أن بديليهما ، أو كا يقول بولي : 
و تربيد السلية ألى يتمين بهل الطفل الآنا والآنا الأمل لديه في نفس الآن الذي يتمي فيه قدرت من الاحتفاظ بالروابط الربيدانية في فياب الدير ، بأنها علية ترجد أن استبطان أو إدماج من صيث إن الاحتفاظ بالروابط الربيدانية في فياب الدير ، بأنها علية ترجد أن استبطان أو إدماج من صيث إن الاحتفاظ بالمراكز الموافقة عليه التربيدات المحرفة الموافقة المناسبين في القوت الماضر .

أما النوع الثانى من التوحد فهر التوحد الثانوي الذي يحدث في أمقاب التوحد الأولى ويكون الدافع إليها عادة تجنب القائل المرتبط بموقف لفسيممين . فهو من أمة حيلة دفاعية وعملية نفسية مسئولة من =

من مؤداها أن طرق وجود وتصرف الوالدين تدون في حقل الطفل . وميكانيكية هذه العملية شديدة التعقيد شبيهة بواقعة محاكماة شخص نحبه ونخشاه في آن واحد ويم على مستوى اللا شعور . وقد وصف فرويد هذه العملية مثل عملية إدماج(١١)

 تكوين الأعراض الرشية لاسيا في المستهريل . وبنالنوع الأغير ما تسميه وأنا فرويده وبالتبوط المتنوى وفيه يسيطر الطفل على غاوفه من فسنس أو مرضوع بشوسته به > فيتمول المهائد إلى نسنس يهائد » .

كلك يقوم التوجد بدور هام في النمو العقل لدى الطفل وفي اكتشانه ما يجعل من موضوعات العالم أن المتحكم المستخدم العالم التوكيف يستخدم العالم و من التفكير التوجيدي و لدى الأطفال وبينت كيف يستخدم الطفل خبرته المباشرة بعيسمة ميؤجاً يتصور على تعلق المؤضوعات الحديدة التي لم يألفها بعد و مثال ذلك أن الطفل الصغير بعد أن كلة طبيقة من المادة برازا وأبي سائل بولا ، الأن البراز وأبيل أشهاد له بها المتحدد المترجمة المتحدد ا

(1) إدباء Interspection . المربح السابق من ١٦٥ : ١٦٦ : الإدباع عملية نفسية لا شعورية تشعير لما تقل شخص موضوعاً ما تقلا عبالياً مجبث يصحح جنوباً من الآل أو الآل الأولى لا شعورية تشعير لما تقلا من الألها ألم الما المنافع المنافعة المنافع المنافعة المنافع

فالحصالي لا يقتأ يبحث عن مؤسومات يتوجد بها وينقل إليها مشاهو ويدخلها في نطاق اهتمائه ، أم يعميها في ذاته . وليرى مريض البارانويا يسمى حمياً عائلًا إلى مؤسومات تصلح للإستاط الملمي يولد لديه شعوطً مؤلفًا . وأعمرًا يجمل المضاد في معات الحاقق : فالعمالي كبير الفلب ، مريع التأثر والاستان يتأجي في مهونة حباً تحالم أجمع أويغفم إلى كراهية العالم قاطبة يبياً يكون مريض البارانوياً مستبر المضمى ، متريةً ، يستد أن الناس جميعاً يراقبونه ويضحلهونه أو يحبوله . فالعمالي يعانى من الساح الإنا وريض الباروليا يشكر .

والإنداج من العليات التفسية المميزة المراحل الأولى من النمو النفسي ، ومونجها الأصيل هو الإبلاع مينا يسم به من معان روزية وبعد الإنساج والإمقاط حياتين فلسيتين مسئولين عن تفاصل الإنا من العالم المعاربين وتحديد المعاربة التي تقصل بيهما. وقد توسعت مهيلاتي كلاين ، في درامة هام المراحل المركزة من النمو التفسى وأبرزت مور الإنداج والإسقاط في الطبرات الأولى بالموضوعات.

و يلاحظ أن و أبراهام ، يطلق على السلية ذاتها اسماً غطفاً هو Incorporation . المارجمة

 أو استدخال سلطة وتأثير الوالدين(والأشخاص البالغين الآخرين الذين يلعبون دورًا هامًا في حياة الطفل)

ويكون الوالدان اللذان تم إدماجهما أو استدخالهما ما يسميه قرويد الأنا الأعلى هو إذن تعديل يطرأ على الأنا في لحظة معينة يكون فيها هذا الأنها من الضعف بحيث لا يقدر بمفرده على مواجهة كل من مشاكل و إلحاحات الأنا الأدفى من ناحية والواقع الحارجي من ناحية أخرى . ويعد هذا نوعاً من تصور الأبوين والأشخاص الآخرين داخل العقل ، تصويراً يجد نفسه مزوداً بصفات مبالغ في أهميها ، حى إن الوالدين يظهران في أحمين الطفل متمتمين بصفات القدة والقسوة ، أي الصفات اللصيقة بأي سلطة لا منازع لها .

وربما بدت نظرية فرويد لأول وهلة غريبة بالفكرة الى تعطيها عن نمو الحياة النفسية . وفكرة الأناءالذي يتوحد في جزء منه بالوالدين والبالغين والذي ينمو ابتناء من إحساس مبالغ فيه عن السلطة الأبوية كما تتكون في عقل الطفل، يمكن أن تبدو كأسطورة عجيبة . ولكن ماذا تعني هذه الفكرة في صلبها ؟ إنها تعنى أن تأثير الأبوين والأشخاص البالغين يلعب دوراً هامًّا في حياة الطفل، بطريقة لم نصل بعد إلى فهمها بل إن هذه الفكرة تستمر مع الطفل بعد أن يكبر وذات فاعلية خلال حياته كبالغ . إن فكرة الأنا الأعلى ضرورية لفهم دوام استمرار المواقف الراجعة إلى فترة الطفولة خلال حياة البلوغ ، وهي مواقف قهرية تذهب إلى أبعد نما يمكن أن يعقله أو يتخيله الإنسان . ويكفي أن نذكر بعض الفظائع الى كانت بعض الشعوب مندفعة لارتكابها (مثل النازيين الذين اعتبروا أنفسهم ملزمين بتحطيم اليهود) . إن التاريخ السياسي والديني ملىء بأمثلة من القسوة التي ارتكبت بواسطة أشخاص يعتقدون أنهم كانوا يؤدون وإجبهم . وتطلب منا النظرية الفرودية أن نتقبل أن نفسية كثير من البالغين، إن لم يكن كلهم، تكونت في مجموعها ابتداء من تصرفات ونماذج ترجع إلى فترة طفولتهم حيث لم تكن ملكة النقد قد بدأت تمارس عملها لديهم وأن هذه التصرفات والماذج استمرت في ممارسة تأثيرها القهري إبان حياة البلوغ .

ولنشرع الآن في فحص لوحة الحياة النفسية كما تقدمها لنا النظرية الفرويدية .

إذا ما نحينا جانباً الاصطلاحات الخاصة التي تصاحبها فإننا نستطيع أن تؤكد ألم المسلمة من ردود القعل بين النشاط النفسي والعالم الخارجي . إن ما يسميه فرويد و الآنا ، هو صفات الشعور أو الإحساس ، التي تزداد دقة ، بالفالم الحارجي ولمكان التوفيق بين الحاجات الداخلية والإمكانيات الحارجية التي يمكنها إلمباع هده الحلاجات . إن مثل هذا النم للحياة النفسية يحدث في الواقع ، وهو أمر تؤكده الحياة اليوبية ؛ وكون الأطفال يتعلمون كيف يتكيفون مع متطلبات الواقع الخارجي لهو عامل من عوامل النم الإنساني الذي لاحاجة بنا إلى تأكيده . إن المساهمة الفرويدية تلتي ضوءاً على المراحل شديدة التعقيد التي يحدثها النمو . إذا كان التطور ابتداء من الامعقولية وخضوع الطفولة الايعدو أن يكون اكتساباً للصفات المعقولة التي تميز عقل البالغ الحسفات المعقولة التي تميز عقل البالغ الحسفات المعقولة التي تميز عقل البالغ الحسفات المعطيل النفسي .

وفى رأيأن النظرية القرويدية يمكن أن تكون عرضة للإنتقاد عندما تصف الملائق بين الأوجه الشعورية والأوجه اللاشعورية من الحياة النفسية . إذ أن النظرية التحليلية النفسية تعرضه أحياناً كما لوكان و الأتا » يرضع عاماً للأهداف . وبعبارة اللاشعورية ، ويعجز عاماً عن ممارسة رقابة .ستقلة على هداه الأهداف . وبعبارة أخرى يبدو أحياناً أن النظرية الفرويدية ترى أن عقلنا خاضع مماماً لسيطرة الأهداف الماطفية الهوائية ، وهدفها الوحيد هو المشور على غارج فى المالم الحارجي المحاطفية ، غارج فى مناى عن تسبيب صراعات مع الأفكار المقبولة فى المجتمع بعمفة عامة . وطبقاً لهذا التضير لايمر نمو المقلى والشمور بمرحلة بحدث خلالها تعديل فى طبيعهما . فالشعور ليس إلا امتداداً لجوهر اللاشعور دائب المحث عن التمبير عن الميول اللاشعورية عن طريق استعمال الإمكائيات المسعوح بها .

حقًا إن الإنسان أقل معقولية بكثير مما يتصوركما أنه يميل إلى استخدام ملكاته الشعورية لتحقيق أهداف بعيدة عن أن توصف بكونها معقولة .ويكنى التذكير بالمناسبات العديدة التى استخدم فيها العلم للتحطيم والقتل التحقق من أن العقل أسير اللامعقول . ولكن وجود علوم مثل علوم النفس والتحليل النفسي يثبت أن عبودية العقل للامعقول ليست مطلقة ، إن العبد الذي لا يعرف أنه عبد والذي يقبل مصيره كما لو كان شيئاً طبيعيًّا سيظل عبداً إلى الأبد . إن الشرط الأول للانتفاضة والثورة على أي شكل من أشكال العبودية هو الاعتراف بوجود العبودية . ويصدق هلا أيضاً على خضوع عقلنا لأهداف لامعقولة أو خضوع الأنا للأدنى . عندا يفهم الإنسان، وهو ما بناً يفعله إنه يستخدم عقله لتحقيق أهداف لا معقولة ، يكون قد خطا الحضوة الأولى لإنهاء هذا الخضوع .

وحرى بنا أن ننبه أن فرويد وإن كان يؤكد ضعف الأنا وخضومه ، كان في نفس الوقت غير متشائم فيا يتعلق بعلاقة الأنا بالأنا الأدنى . إذا تحامل في أحد مؤلفاته على الحلين النفسيين اللدى يصرون على تأكيد ضعف الأنا بل وأكد أن آرالأنا له سلطة رقابة على النفسية . إذ يقول و يحق البساؤل إذن كيف يمكن التوفيق بين الاحتراف بسلطة الأنا وبين وضع الأنا كا إذن كيف يمكن التوفيق بين الاحتراف بسلطة الأنا وبين وضع الأنا كا الأنا الأدنى والأنا الأدنى والأنا الأدنى وطيف المقال من الأنا الأدنى والأنا الأعلى وانه ضعيف معرض القلق في مواجهة ها وذاك وكشفنا الثقاب عن الوضع الظاهري للخضوع اللدى يعانى الأنا عبال الأنا الأدنى، وضعف العقل في مواجهة للجيمان الذي يكبن فينا ويحمل الأنا الأدنى، وضعف العقل في مواجهة الشيطان الذي يكبن فينا وتحميد لتجمل من هذه النظرية دعامة و نظرة التحليل النفسي عن الطريقة النفسي عن الطريقة المقدى يم بنا الكبت أن تجمله يمتنع عن تبنى موقف متطرف ؟ ه (١)

ولكن برغم التشاؤم الذى يخيم على أغلب كتابات فرويد ونظرية التحليل النفسى الى تعرض الإنسان بشكل استانيكي ، فإن فرويد كان يعترف بقيمة تطور الأنا . ومن ناحية أخرى فإن كُتَّابًا مثل فروم وهورفي أعادوا النظر في نظرية التحليل النفسى من وجهة نظر اجهاعية موفقين بيمها وبين فكرة أن الأقل له صقات لا يمكن ردها إلى الأنا الأدفى . وقد كتب فروم : وإن مشكلة علم النفس الأساسية هي صلة القرابة بين الفرد والعالم وليس إشباع غريزة

أو الحرمان مها ١٠/٤ ومن ناحية أخرى فإن محللا نفسانيًّا قوينًا مثل الدكتور ارنست جونز كتب في علم ١٩٥٩ يقول :

وإن نُحد مبادئ التحليل النفسي هو أن الإنسان أولاً وقبل كل شيء مخلوق اجباعي ؛ وللما فإن محاولات تقسيم علم النفس إلى علم نفس اجباعي وعلم نفس فردى هي محاولات خيالية . بمعنى أن عقل الإنسان يتكون في مجموعه ابتداء من ردود فعل تنشأ بينه وبين أعضاء آخرين في المجتمع ولايمكن تطور فرد مكون على نحو غنلف عن ذلك(٢) ع ..

إن 1 صلة القرابة ٤ بين ألإتسان والعالم تظهر في وعيه الاجبّاعي وهو وعي بعلاقاته ومسئولياته حيال الآخرين . هذا الوعي لايتدخل للأسف إلافي نطاق ضيق خلال الحياة إذا أخذنا في الأعتبار التأثير الذي تمارسه علينا المواقف الحيالية من أى معنى "positionsabsurdes" التي تأتينا من الطفولة . ونتيجة لهذا ، وهو ماسأفصله في الفصول التالية ، فإنه من الضروري ، قبل البدء في التفكير الاجمَّامي والسياسي ، ألا نهمل واقعة أن الكثير من الأوجه الهامة لعلم النفس الإنساني توضع أن الرجال والنساء لم ينجحوا في التخلص من العادات وأنماط التفكير التي ترجع إلى فترة الطفولة .

<sup>(1)</sup> (1)

#### ٧ ــ النظرية الفرويدية في الجنس

يقوم الأنا بمهمة صعبة هي التوفيق بين الميول الغريزية وبين ضرورات الواقع . وبلما يكون تصرف الشعور نتاج التأثير المتبادل بين ميول الغريزة والواقع الحارجي اللدي يؤدى إلى وضع حدود لهذه الميول وينكر حقها في الإفصاح عن نفسها بحرية .

ليس هدفى أن أدرس هنا طبيعة هذا الواقع الحارجي الذى يكون الوسط الذى يعيش فيه الإنسان ، ولكن هدفى يتجه إلى عرض نظرية التحليل النفسى عن الغرائر في خطوطها العريضة وربحا بدا أن هذا العرض يوجه اهماماً كبيراً لدور الغرائز ، ولكن هذا الاهمام ضرورى حيى لا نقلل من أهميها عندما يأتى دور دراسة الظروف التى تفصح فيها هذه الغرائز عن نفسها .

توخد تعريفات عديدة الغرائر. وبصفة عامة ينظر إليها باعتبارها ميولاً فطرية أساسية ذات علاقة بالمحافظة على الفرد وعلى النوع. ويقول فرويد: و نستطيع أن تميز في الغريزة مصدراً وموضوعاً وهدفاً. فالمصدر هو حالة إشارة في الجسم ، والهدف هو القضاء على هداه الإشارة. وعند ما تسير الغريزة من المسدر إلى الهدف تصبح نشيطة نفسياً. وانتصورها كما لوكانت كمية معينة من الطاقة تتجه تحو هدف معين ع(١٠).

حاول بعض علماء النفس رسم قائمة للغرائز ، ولكن بدا لفرويد أن هذه التصنيفات لا تطابق تماماً العليمة الحقيقية لحياة الغرائز . ولدا نقد كتب : وإنكم تعلمون بأى طريقة يفهم الجنس البشرى الغرائز . إذ يقبل عدداً من الغرائز بقدر الحاجات .. غريزة السيطرة، وغريزة الماكاة واللهب، والاجماع وكثير غيرها . وتؤخذ هذه الغرائز ، باعتبارها مسلمات ، وتبرك كل غريزة تقوم بعمل خاص ثم يتخل صها . وكان لدى الجميع دائماً إحساس بأن وراء هذا العديد من الغرائز الصغيرة المؤتقة يضيئ شيء هام وقوى لا نستطيع الاقراب منه إلا بمدر الأي

Freud : Nouvella conférences, p. 103

Frend: Nouvelles conférences, p. 101, 102.

وقد ذهب فرويد في محاولته البحث عما وراء تعدد التعبير عن الغريزة للى الغيز بين مجموعتين مختلفتين من الغرائز : غريزة الحياة التي سهاها ايروس Eros وغريزة المحليم والحوت .

سنعود إلى هذا التمييز ف ختام هذا الفصل، أما الآن فستدوس الميول الجنسية الى تحويها غريزة الحياة Eros والى تقابل من الناحية البيولوجية ضرورات توالد النوع .

وقد قوبلت آراء فرويد عن الغريزة الجنسية بمعارضة شديدة عندما قلمها لأول مرة . وكان من الصعب أن يتوقع رد فعل مخالف . ففكرة فرويد عن الإحساسات المكبونة في اللاشعور وكونها نابعة من الطفولة والجنس لم تكن في المؤقع مطابقة لقواعد الشعور ولذا لم يكن الدفاح عنها إلا ليلتي حكماً عنيفاً بالإدانة .

ويعنى لفظ جنسى Sexuel عند فرويد وطاقة الفرائر المعرفة باسم وحب ، «Amour». من ناحية حب الذات ومن ناحية أخرى الحب اللسي نكنه للوالمدين والأطفال والإنسانية بوجه عام وكالمك التعلق بموضوعات عيانية أو بأفكار مجردة ».

فالمنى الذى يعطيه لهذه الكلمة يتعدى بكتير الاستعمال الدارج لها والذى لا يستخدمها إلا لوصف علاقات البالغين والى تجد ختامها فى العمل الجنسى ، أما التعبيرات الأخرى الى وصفها فرويد فيمكن أن تأتى من أى غريزة أخرى . فالكتور ماجدوحل مثلاً ينسب حب الوالدين لأطفالهما إلى و فريزة الحنان ه .

ويسيء فرويد وبممورة أشد إلى التقاليد المتقى عليها عندما ينسب للطفل حياة جنسية منذ أيامه الأولى . فبالنسبة له رغبة امتلاك الطفل لوالده من الجنس الآخر ، وشوقه الملاطفات ، والسعادة التى تغمره عندما تحتويه الأفرع ، وصروره عندما يمس إبهامه ، وخضبه عندما نشاده منه ، واللذة التى يحسها عندما يدغدغ تعد كلها علامات وإضحة على حياة جنسية مبكرة .

وتسيطر الغرائز المكونة للجنس فى الحياة الجنسية للطفل الضعير ولكل غريزة من هذه الغرائز وجود مستقل عن الآخرى تبعاً لطريقة إشباع كل مها وتحلال النمو الجنسى يتم اندماجها واتساقها ، ولكن تسيطر أحياناً غريزة واحدة على الحياة الجنسية للبالغ ، مجبرة إياه على البحث عن إشباع جنسى ذى طابع طفلى . وتبعاً للنظرية الفرويدية يكون الفساد هو الاحتفاظ خلال سن البلوغ بطريقة سلوك طفلية .

يركز فرويد فى وصفه للغرائر المكونة للجنسية بوجه خاص على الغرائر المتجمعة حول المناطق الفمية والشرجية من الجسم . ولذا فإن عملية المص والمعض تعد إظهاراً لإشباع جنسى مبكر . وقد فصل كتاب آخر ون في مجال أبحاث التحليل النفسى ملامح الحلق الفمى الجنسية علدى الطفل وربطوها بالطريقة التي يم بها إشباع الحاجات الجنسية عند الطفل فدراسات أبراهام وجلوفر مثلا ، تجعلنا نعتقد أن الإشباع أو الحرمان الفمى فى فترة العلفولة يؤدى إلى تكوين خلق إشباع أو حرمان فيا يتعلق بالشكل الفمى . فالذين حصلوا على إشباع خلق إشباع أو حرمان المجاويين ، مرحيين بالأفكار الجديدة ، فى حين أن يكوين متفائين كرماء اجهاعين ، مرحيين بالأفكار الجديدة ، فى حين أن الحروبين يصبحون متشائمين ، متفوقعين ، قلقين ، وسلبين . وقد قامت المتكورة فريدا جولدمان أيسلر بدراسة الاستقطاب المزدوج (۱) عند نمو الحاصية الشفوية

<sup>(</sup>١) أزهواج الاستقطاب : Bipolarité . والاستقطاب Polarité كما ورد شرحه في كتاب ثلاث مقالات في فظرية الجنسية ، المرجع السابق ص ١٦٦ ، ١٦٧ : تتسم الحياة النفسية كما تتصورها نظرية اللوالم الفرزية لدى فرويد بوجود ضروب من الثنائية ، تحدد الهود إمكانيات تمود ، وتجمل من مفهوم المرآع النفسي مفهوياً أساسياً نصف على هديه التطور النفسي في صوره السوية والمرضية على حد سواء . والحياة النفسية تخضم لثلاثة أنواع من الثنائيات أو الاستقطاب ، هي التقابل القائم بين الذات ( الأَنَّا ) والموضوع ( العالم أغارجي ) ، وبين الله والألم وبين الإيجابية والسلبية . يقول فرويد : و إن التقابل بين الأنا واللا أنا ( الحارج ) أي بين الذات والمرضوع ، يفرض نفسه على الفرد منذ سامة مبكرة حين يدرك هذا الأخير أنه يستطيع أن يقضى عل التهيجات الصادرة من الخارج بتحريك عضلاته ، ولكنه يظل بلا حيلة إزاء البهيجات العادرة عن الغريزة . ويتحكم هذا التقابل في نجال النشاط العقل عل وجه التخصيص وعد البحث بموقف أسامي لا يستطيع أي قدر من الجهد تعديله . أما الاستقطاب الخاص بائلة والألم فرهن بسلسلة من المشاعر لها أهميُّها التي لا تقدر فيها يتعلق بتجديد أضالنا ( الإرادة ) . ولا ينبغي ألحلط بين المتضادين : النشاط والسلبية وبين المتضادين الأنا – الذات ، والموضوع – الحارج فالأنا يسلك من العالم الخارجي مسلكاً سلبياً عندما يتقبل منه النهيجات ومسلكاً إيجابياً عند ما يود عليها . ودوافعه الدريزية تجبره على القيام بقدر من النشاط الحاص بالنسبة للعالم الخارجي ، عيث مكننا إبراز لب المرضوع في قولنا إن الأنا - الذات سلبي بالنسبة المنبهات الخارجية وإيماني بفصل دواقعه الفرزيه الخاصة به . والمتضادان الموجب والسالب يمترجان فيا بعد بالمتضادين الملكر والمؤنث اللذين لم يكن لحسا من قبل دلالة سيكولوجية . والتصال الإيجابية باللكورة والسلبية بالأنوثة بيمار لنا واقعة بيولوجية ولكما ليست ألبته قاطعة على الدوام ولا هي بالمائية كما قد نسبت للاحتقاد .

مستعملة سلالم للتقييم واستجوابات ، وتابعت دراسة أجريت على ١١٥ بالفاً ويبلدو أنها تحققت فيها من معامل استقطاب مزدوج يشير إلى ترابط واضح بين الخلق الفمى التحليلي النفسي كما وصفها كل من أبراهام ، وجلوفر ، وجونز. و برجار (1)

إن إثارة منطقة الجسم الهيطة بفتحة الشرج هي صورة الإشباع التي تبحث عنها مجموعة أخرى من الفرائز المكونة لفغريزة الجنسية ومن المسلم به أن الموقف اللدى يتخذه الوادان والطفل حيال وظائف الإحراج له تأثير أكيد على نمو أخلاقه في المستقبل . فالطفل يتعلم أن وللديه يعطيان لوظيفة الإخراج أهمية ويتولد لديه تتبجة لللك شعور قوى بقدرته على إرضائهما أو تحييب ظنهما . والفضلات التي يخرجها الجسم هي أول ثوىء يستطيع الطفل أن يقدمه للعالم ، ويتفق المحللون الفسيون على أن ردود فعله المستقبلة في يتعلق بمثاكل النقود والعلاقات الإنسانية والعلم وكلا في مواجهة الفن والحياة بصفة عامة يمكن أن تكون متأثرة بالموقف الذي يتخذه الطفل الصخير حيال ميكانيكيات إخراج الفضلات .

ربما بدا هذا التفسير مفته الآ وبعيداً عن الواقع ، ولكن يجب ألا نسى أن العام الثانى من حياة العلفل محصص لتعليم النظافة وأنه فى سبيل ذلك يستحث الوالدان الطفل أو يمتدحانه أو يعاقبانه . ويتعلم الطفل كيف يعبر عن عدم ثقته بأمه عن طريق الإمساك عن التخلص من الفضلات . ويتخذ هذا الميل إلى الإمساك فيا بعد شكل حامل شخصى يدفع الشخص إلى تجميع المال أو إلى المناد أو إلى البخل ، على حين أن الإقدام على هذا العمل الإرضاء الوالدين فضلاً عن كونه يحدث المذ عضوية ، يتحول إلى كرم وسخاء أو إلى نشاط خلاق في مجال الفنون أو الرسم أو الأدب أو الحطابة .

وقد حاول البعض التحقق من النظرية الفرويدية فيما يتعلق بملامح الحلق الشرجى تماماً كما حدث بالنسبة لملامح الحلق الفمى . والتتافح التي تم التوصل

Freida Goldman Eisler, Brown faciling Personality in Natutre, Society and
outhure, 6d. Khackhonhu & Manzay, New York, Khopf, 1989.

إليها ليست واضحة تماماً إلا أنها تنجه بشكل مؤكد إلى إثبات صحة النظرية الفرويدية (١٠).

إن تجميع الفرائر الأساسية اللدى وصفناه منذ برهة ، يتم عندما يكبر الطفل ، تحت سيطرة الدوافع التناسلية . وعند البالغ المتوازن . تنشأ هذه الدوافع من الفرائر المكونة للغريزة الجنسية ، وهذه لا تساعد إلا على القيام بالعمل الجنسي وللوصول إلى هذا المستوى ، تمر الدوافع الجنسية بمرحلة تمو منشرع في دراسها الآن .

إن العو الجنسى يعبر مرحلتين أساسيتين تفصلهما فترة من الكمين لا يم خلالها من الناحية العملية أى نمو . وحسبا يرى فرويد يكون المستوى الأول أكثر أهمية لأنه يرسم الملامح الى شحدد كيف سيم إعادة تنشيط الدوافع الجنسية ف المستقبل هذه المرحلة تجد مكاما بين الطفولة المبكرة وسن خمس سنوات وتنقسم إلى ثلاثة مستويات . وخلال كل مستوى من هذه المستويات تلعب إحدى الفرائر المكونة دوراً بارزاً .

وتسمى المرحلة الأولى مرحلة الحب الله أقى معند وتبدأ منا وتسمى المرحلة الأولى المحلفة الخب الله أقى الأسابيع الأولى العلفولة ، حيث لا يتصور العلفل بعد أنه فرد . وتبحث كل من الفرائر المكونة للغريزة الجنسية عن إشباع بطريقة مستقلة وتقتصر الحياة الجنسية للطافل على اللله الحسية النابعة من تنبيه جسده . ونظراً لأهمية المص في هده السن تبدو الغريزة الأساسية الفعية أكثر وضوحاً وخلال العام الثاني من حياة الطفل ينمو إدراك العلقل . وتأخذ الغريزة الجنسية الكائن ذاته موضوعاً للحب .

 <sup>(</sup>١) في دراسة هالا بلون Bellicift المنونة : تكوين وأصل الحاصية الشرجية

<sup>&</sup>quot;The Structure and Origin of the smal Character"

لجد بعض التائج الهامة التي تتبت المرحقة بأجاب ه و طالح) على محبورة أحقة مكونة بأداء و المستلجة والمستلجة بالمرحقة واحتفاست من ذلك تعبقة ذات منى متعلة بهكرة فرريد من فلمس المؤسوع . منرى فيا بعد التطاق العلمي النظرية اللاويدية وإمكانيات التحقق سبا تصريع ، ولكن أود منا أن أخير أن النظرية الغروية عليها مثل أن نظرية في مجال العلوم الإلسانية المحتفى المجالجة بقد تقديل من المقدوم على المحتورة المحتفى المجالجة إخضامها المجبورة تعدمت . الأخطي إلا بقدر فعيل من المقدوم على يصحب إخضاعها لؤياة فديدة وهو ما يحدد الاحتجاز التجريعي . فكما منرى المظروبة المواطرة المحتبرية الإنسانية . فكما منرى المظروبة الإنسانية . وبعد المانية المجبورية الإنسانية . وبعد الاحتجارة المجرية الإنسانية . وبعد فال فالور المحتورية الإنسانية . وبعد فال فالور المحتورية الإنسانية .

ولذا سمى فرويد هذه المرحلة بالمرحلة النرجسية Le Stade Marcimique مستميرًا الإمم من الشخصية الأسطورية التي وقعت في غرام صورتها

ويسهل الانتقال من مستوى الحب الله أن auto-écotique إلى هذا المستوى إصرار الأم على تنشئة العلفل على النظافة في حين أنها تفاضت حتى ذلك الحين عن عجزه عن التحكم في عملية إخراج الفضلات . ويكتسب العلفل شعوراً بالقوة يبدو من تصرفه الأهوج المعربد الذي يتعاجب به ، فهو يميل إلى الحرب عارباً لإظهار جسده .

أما أشد المستويات حساسية فهو المستوى الثالث . إذ ينحوف المهام الطفل عن نفسه ليبحث عن موضوعات خارجة يبجه إليها طاقة الحب لديه . وبديهى أن يكون أول موضوع يثير انتباهه هو الأقرب إليه أى أسرته . ومن هما تنزله لمديه ، ما يسميه فرويد ، عقدة أويب أباه دون أن يعرف وتزوج أمه ، تحقيقاً لمسرحية سوفوكل التي قتل فيها أويب أباه دون أن يعرف وتزوج أمه ، تحقيقاً لنبوة . وقد وصف فرويد هذه المقدة على النحو الثالى : وأريد أن أتكلم عن هلما التنافس الماطق الذي تلمب فيه العناصر الجنسية دوراً واضحاً . عندما يكون الابن طفلا صغيراً ببدأ في إظهار حنان خاص حيال أمه التي يعدها ملكاً له ومن هذه الزاوية يرى أن أباه منافس ينازعه فيها يقدر أنه ملك له وحده . وكذلك الحال بالنسبة الفتاة الصغيرة التي ترى في أمها شخصاً يعرفل علاقاتها العاطفية مع أبيها وعمل مكاناً تقدر أنه استطيع ملأه بنفسها . وتظهر أحلام العدم أن الأشخاص أمنية إبعاد الوالد من نفس جنس الحالم » .

ويجد الطفل نفسه مازماً بالحد من ميوله المدائية والودية لأنه يرى نفسه فى مركز أدنى فى علاقاته بوالديه . ويقدر فرويد أن هذا أمر ضرورى بالنسبة لتكيف الطفل مع أسرته وكذلك لتكيفه فى المستقبل مع مجتمعه. وسرى فيها بعد أنه يجب المشور على محارج لهلمه الميول يرتضيها المجتمع . ولكى يصبح كبت هذه الميول واقعياً يجب الساح لها بالإفصاح عن نفسها بطريقة أخمى ، أى يجب المثور على محارج للبالغ تتمكن بها الطاقة العاطفية لهذه الميول المتصارعة من التسرب .

ويؤيد فرويد فكرة أن كبت هذه الميول، الذي يصل إلى طمس عقدة أوديب

يعود إلى الشاط من جديد عن طريق إنماء عقدة الحصاء . Complexe de castration . ويقول فرويد : د كثيراً ما يجدث أن يعمد الوالدان أو المربية إلى "بديد الطفل، اللدى لم يتعلم بعد أنه يجب أن يخفي حملية إخراج القضلات من الجسم ، يعمدون إلى "بديده بقطع العضو المعضو المعضو المعضو المعضو المعضو في المعضو في المعضو المعضو في المعضو المعضو في المعضو المعضو في أعلى المعضو المعضور الم

وترتبط عقدة الحصاء عند الفتيات الصغيرات بالشعور بالحرمان من القضيب غالفتاة تكتشف بسرعة الفارق الجسهافي بيها وبين الولد ويولد لدبها هذا حسها يرى فرويد شعوراً بالنقص لا يعوضه إلا القيام بأعمال نسائية مثل الأمومة وتشييد بيت إلخ . ويوجد فارق بين الجنسين في الدور الذي تلبه عقدة الحصاء . فعلى حين تؤدى عقدة الحصاء عند الولد إلى اختفاء عقدة أوديب ، يحدث المحكس تماماً لدى الفتاة ، إذ تسبق مقدة الحصاء عقدة أوديب . والسبب في ذلك أن الفتاة . مثل الفي ، ترتبط أولا بأمها لأمها ترعاها وتغذيها . ولكن عندما تكتشف الفارق بيها وبين الولد ، تجد نفسها أقل وتلقي باللائمة على أمها ، وتنمى بذلك شعوراً عدائياً عوبها وتجد ملجأ في عقدة أوديب .

وبديهى أن تؤدى نسبة رغبات جنسية إلى الأطفال الصخار بل وذات طبيعة محمدة إلى إثارة شعور بالاحتقار والامنهان بمجرد ظهورها . وقد وجهت لهذه القكرة انتقادات شديدة بواسطة علماء الأجناس ، مثل مالينوقسكى، الذين لا يضيرهم نسبة حياة جنسية للأطفال الصخار وإنما لا تؤدى دراستهم للمدنيات المختلفة إلى تأكيد أوجه هامة من النظرية الفرويدية . إذ يتقد مالينوسكى فى كتابه و الجنس وقمعه فى المجتمعات البدائية و (۱) فكرة عقدة أوديب باعتبارها عاملاً عالملاً علية عدلًا يتحمق فى العلاقات

Malinowski : La sexualité et m repression, Traduction française, Paris, P.B. ( † )

الهائلية لسكان جزر تروبريون Hes Trobriand التي كان يدرسها. وأن فرويد أدخل تعديلاً على تصوره لعقدة أوديب عندما فصل أفكاره عن الأنا والأنا الأعلى والأنا الأدنى. إذ يبدو أن عقدة أوديب « تهار » مع نمو الأنا الأعلى على أساس أن الأنا الأعلى ميكانيكية إدماج نمل محل الأبوين والأشخاص الأخرى التي تلعب دوراً هاماً في حياة العلقل.

واعباداً على التجربة أعقد أنه فى الإمكان أحياناً أن نستخلص لدى الطفل تفضيلاً الوالد من الجنس المكسى وهو ما يبدو تأكيداً غير مباشر لفكرة عقدة لدى أوديب. ولكنى أجتقد أنه منالهمب أن نقول إلى أى مدى ينموهذا التفضيل الطفل الفاتياً أو اعباداً على اهمام الوالدين . إذا كان الوالد يهتم بابته الصغيرة أكثر من اهمامه بابنه الصغير ويهم الأم بابنها الصغير أكثر من بنتها فلا حجب أن يستجيب الأطفال بطريقة تؤكد صمة بعض أوجه عقدة أوديب . وبعارات أعرى إن التفضيل يمكن أن ينشأ فى البداية من الوالد نحو الطفل وليس من الطفل نحو الوالد (١)

حتى الآن تتبعنا نمو الغريزة الجنسية مند ظهورها إلى اللحظة التى تتعلق فيها و بموضوعات و يقدمها لها العالم الحارجي. وتنشأ بين سن الحامسة وسن الثانية عشرة فترة كون تتسم بعدم ظهور الاهمامات الجنسية وينمو و أنا و منسجم مع المحيط ، وهي فترة تقابل يتطور الآنا الذي يختلف عن الآنا الآدف ويؤثر باعتباره قوة الكبت والمراقبة . توام بين ميول الآنا الأدفى وضرورات الواقع الحارجي .

وخلال الفقرة الثانية الهامة من وجهة النظر الجنسية بين ١٧ سنة ١٨٥ سنة تتشط ميول الطفولة مرة أخرى وتتب الحياة الجنسية من جديد متبعة الطرق التي

"بهجيّها خلال تطورها الأولى . لذا فمن الصعوبة بمكان أن تحل مشاكل هذه السن دون التعرف على الظروف التي أثرت في السن السابقة .

وقد كيف فرويد هذا الترقف في النمو الجنسي عند نقطة معينة بأنه و تثبيت و fisation ويعتبر فرويد تثبيت الطفل حيال أحد أبويه ذا أهمية في تحديد اختيار الطفل لمن يحب في المستقبل . وهكذا عندما يكون التركيز على أحد الأبوين قويًا يميل البالغ إلى اختيار رفيق يشبه هذا الوالد الذي يتوحد به . وعندما يكون التركيز على أحد الوالدين أقوى يكون رد الفعل مقلوباً لأن توحد الشخص الهيوب بأحد الأبوين يمكن أن يكون من الأهمية بحيث يثير الحوف والتقزز اللذين يصاحبان العلاقة بالمحارم . وفي هذه الحالة يمكن أن يميل الشخص إلى اختيار رفيق تختلف أما عن الوالد الذي ركز عليه اهيامه الجنسي . وهذا الحوف من الحارم يمكن أن يؤيي إلى البرود الجنسي إذا كان اختيار الشخص لوفيق مرتبطاً لا شمورياً بالوالد من الجنس الآخر . ويمكن أيضاً أن فودى إلى منع الشخص من إلجاس علاقات جنسية مع شخص من الجنس المضاد إذ يُوحدًا الأشخاص من الجنس من نفس جنسه . وهذا الاستعداد يمكن أن يصل إلى المجاد علاقات من من المناس من نفس الجنس وجنسية مثلية و أو تتساى في صورة صداقات من المخاص من نفس الجنس وجنسية مثلية و أو تتساى في صورة صداقات أشخاص من نفس الجنس وجنسية مثلية و أو تتساى في صورة صداقات

والمثالان اللذان سنوردهما فيا يلى اختيرا من كتاب بريل « التحليل النفسى ، تظريته وتطبيقه العمل ه<sup>(١)</sup> وهما يوضحان آثار الترحد بالوالد من نفس الحنس .

كانت سيدة مثقفة في الرابعة والعشرين من عمرها تشكو من برود جنسي

نفسى ، ولكن مشاعرها كانت تتحرك عندما يظهر رجل يعرج . وكان الأصل فى هذه الحالة أنها توحدت مع أمها التى كانت لها مغامرة خارج الحياة الزوجية عندماكانت سن هذه السيدة فى حولل الثالثة أو الزابعة من عمرها . وكان الشريك فى هذه المغامرة رجلاً مكسور الساق . وكان على الأم أن تقوم بعدة سفريات ، وحتى تبعد الألسنة عن أن تلوكها كانت تصطحب ابنتها الصغيرة معها . ومع أن الطفلة ، لم تحضظ فى ذاكرتها بأى ذكرى شعورية عن هذه الحقبة فقد ربطت بطريقة لا شعورية بين الجنس والعرج .

وفى حالة أخرى كانت سيدة شابة متروجة غير قادرة على منع نفسها من الاتصال بالرجال وبرغم أنها كانت تعيش مع زوجها فقد كان لها مغامرات عديدة خارج الرواج . كانت ابنة وحيدة لرجل أعمال كثير الأرحال بسبب أعماله وللما لم تتمكن من معرفته معرفة كافية . وبقدر ما سمحت به قريحها تذكرت أنها شهدت عدة مغامرات غرامية لأمها . وللما فقد تزوجت هي نفسها برجل يشبه أباها وله نفس المشاغل . أي أنها توحلت تماماً بأمها .

وتسمى هذه العمور من التعلق بواسطة ترحد من هذا النوع كفل Anactitique لأنها دليل على الحضوع في مواجهة أب حام أو أم مرضعة .

. وترجد مجموعة أخرى من التعلق يقال عنها إنها نرجسية Marcistique تستمد

. (١) التوحد بذات حالية .

(٢) التوحد بذات ماضية .

(٣) التوحد بجزء من ذات النفس.

( ٤ ) التوحد بما نرغب في أن نكون عليه .

فى الحالة الأولى تبحث عن التعلق بين أشخاص يشهونك فى بعض الملامح الجسانية أو التفسية . ومكذا فإن رجلاً طويلاً قد لا يعجب إلا بالنساء الطويلات

وفى الحالة الثانية تثبت الغريزة الحنسية عند مستوى مبكر، عند اللحظة الى تكون فكرتنا فيها عن أنفسنا فكرة طبية أو عندما كانت الحياة تبدو سهلة . ومن هنا يقع الاختيار على أشخاص يذكرون بهذه اللحظات . وبذا يمكن تفسير الزيجات بين أشخاص يفصلهم فارق كبير فى السن إذ يمكن إرجاع هذا الارتباط إلى وجود مثل هذا الاستعداد لدى أى من الطرفين .

وتوضح الحالة الثالثة حب الملكية لدى بعض الآباء حيال أطفالهم الدين يعدونهم جزءاً من ذاتهم . فيحاط الأطفال بعناية شديدة ويحرم الطرف الآخر من كل عاطفة .

أما فى الحالة الأخيرة فتتكون عقدة نقص تتكون من أنا أعلى قاس حيث يتجه الفرد إلى اختيار رفيق يمتلك كل الصفات التي يبدو له أنها تنقصه ويسبغ على موضوع الحب مثالية ويحيطه بحب يقرب من العبادة.

إن هذه اللمحة عن التظرية الفرويدية توضع مدى تعقد ميكانيكية التطور الجنسى . وربما كان رد القمل الأولى في مواجهة أفكار فرويد مشوياً بالاستغراب والشك . ولكن يحب أن نتحرز من رفضي هذه الأفكار من النظرة الأولى . والأبحاث الحالية في مجال الجنس تجعلنا ندرك بجزيد من الوضوح تعقد الحياة الجنسية للإنسان وتنوع مظاهرها . ولن نلحق وصفاً غير أمعلاقي أو غير مهذب بكل انحراف عن ما يعده المجتمع طبيعياً في مجال الجنس . فقد بدأنا تتقبل أن هذه الانجرافات سواء تعلق الأمر بالميول الجنسية المثلية Stommermalist أو بالميول الاستعراضية في ويد قد أضي على دور الجنس أهمية أكثر مما ينبغي وخاصة فها يتعلق بطبيمة فرويد قد أضي على دور الجنس أهمية أكثر مما ينبغي وخاصة فها يتعلق بطبيمة نموه ، فتفاصيل هذا النو لم يم بعد التوصل ليل معرفها معرفة أكيدة ، ويعارضها نخير من علماء النفس الهنصين الذين يقومون بأبحاث عن الطفل . ولكن من ناحية أخرى يستحيل دواسة نفسيات الأطفال دواسة ذات قيمة دون أن يؤخذ في الاعتبار أن مثل هذا النمر يحدث فعلاً في الوقع .

وهناك وجه آخر النظرية الفرويدية فى الجنس أثار مزجة من العداء الشديد وهر فكرة أن الحياة الثقافية للإنسان فى مختلف مظاهرها تستمد قربها من الغريزة الحنسية . فقى رأى فرويد يمكن أن تجد الحياة الجنسية شكلاً للإشباع أو التعبير فى مجموعة من الأنشطة تبدو صلتها بالغريزة الجنسية غير واضحة . وتعتمد آراء فرويد على وافعتين مؤكدتين . الأولى أن الحاجات الجنسية يمكن إشباعها

خلافاً للفرائر الأخرى من طريق التخيل. في حين أننا لا تستطيع إطفاء جومنا أو "صطفنا عن طريق تصور [الطعام والشراب فإننا يمكن في حدود معينة الحصول على إشباع جنسى! عن طريق الأحلام. لا يمكننا عن طريق البديل أو بمساعدة التخيل إطفاء جومنا أو عطفنا ، أما حاجاتنا الجنسية غير المشعبة فيمكن فيها للبديل أو الحلم أن يمل على الإشباع. وهذه حقيقة تعطى للنظرية الفرويدية أساساً قبلياً peloci.

أما النقطة الثانية فهي أن الحياة الجنسية كانت ولاتزال على كبت أشد بكثير من أي كبت الفراتر الأخزى . في مجتمعنا يكون الشبان الصغار قادرين جسمانياً على عاربية حياة جنسية منذ سن الثالثة عشرة أو الرابعة عشرة ؛ ولكن يتعين عليهم تأجيل إشباع الحاجة الجنسية إشباعاً كاملاً خس أو ست سنوات . فضلاً عن أن المحب فكرة أن الجنس موضوع عرم لا يصبع مناقشته إلا بحلر شديد يمهد الما التأخير . ومازالت فكرة الحليثة وقلة الحياء مرتبطين بالحنس إلى يومنا هلما التأخير . ومازالت فكرة الحليثة وقلة الحياء مرتبطين بالحنس إلى يومنا هلما تفس الأثر الكلمات الحرمة المتعلقة بها ، أما يقية الأنشطة الإنسانية فلاتحدث نفس الأثر اللهم ، إلا الأنشطة المتعلقة بالإغراج. ومن المحتمل أن يكون تحريم هلما الأخيرة مستمداً من صلة هذه الوظائف الوظائف الجنسية فكرة خفية . وبالمناسبة يبدر مفيداً وهاماً أن يبحث كل منا في ذاته عن تأكيد طدا المبكانيكية الرادعة التي تبحث على مقاوية التفوه بكلمات معينة، هذه المقاومة لا تبدر ذات معي إلا في ظر النظرية القروبية .

إذا ما أعلنا في الاعتبار هاتين الحقيقتين مما : أن الرضات الجنسية يمكن لمشاعها بواسطة التخيل أو بواسطة إحلال نشاط آخر علها ، وأن الحاجات الجنسية على كبت أشد من أي كبت تتعرض له الغرائز الآخرى ، نستطيع أن نفهم قوة فكرة فرويد : أن الحياة الثقافية تستمد قويها من طاقة جنسية مكبرتة . (١) وإني لا أرى أن هذا المنصر هو أساس الأنشطة الثقافية ولا أعقد أن فرويد كان يراها كلك . ولكن فكرة فرويد أن من خلال هذه الأنشطة يم إشباع الميول الجنسية المكبرتة يوضع بصورة مؤكدة بعض أوجه الأدب والفن . وهذه نقطة الميا

<sup>(</sup>١) ستناقش قيها بعد سبب أن أبخنس خاضم لحذا النوع من الكيت .

سنناقشها فيها بعد أما الآن فأكتم بالإشارة إلى أن القول بأن ـــ الثقافة مثل حب الفن والموسيق والأدب ـــ ذات جلور جنسية لا يقلل فى شيء من أهمية الثقافة كما أنه يبدو لى أن معارضة هذه الفكرة سيبها الاقتناع بأنها تمس الكرامة الإنسانية .

إن التحقق من التظرية الفرويدية يعنى القط أن الحياة الجنسية للإنسان أكثر 
تعقيداً بما يغلن عادة . وإننا نعرف الآن ، من أبحاث بيتسن وآخرين ، كيف 
تعتمداً بما يغلن عادة . وإننا نعرف الآن ، من أبحاث بيتسن وآخرين ، كيف 
المدور الهام الذى تلعبه الفصوص الحية . فعلى حين أن الإثارة الجنسية لدى أطب 
الحيوانات تعتمد فى جزء كبير منها على الإثارة الموضعية النابعة من الإفرازات 
الهرونية للغدد الجنسية ، فإن هذه الإثارة لدى الإنسان قد لا تم ومع ذلك تظهر 
إمكانيات الرخية الجنسية . ففكرة أن طبيعة الحياة الجنسية للإنسان شديدة التعقيد 
وكين هذه الحياة يمكن لها أن تفصع عن نفسها بوسائل مختلفة ليست مرتبطة 
الرباطاً مباشراً بفسيولوجية النشاط الجنسي يجب ألا تثير دهشتنا أو تحط من 
قلدنا .

وأود أن أخمّ هذا الفصل بتحليل نظرى للتميز بين الغرائز وهو تمييز ذو أهمية كبيرة في عالمنا .

ميز فرويد فى البداية بين نوعين من الغرائز : الأول متملق بالمحافظة على النوع يعنى الغريزة الجنسية كما شرحناها والثانى متعلق بالمحافظة على الفرد أى غريزة الأنا . وكانت هذه الغرائز تبدو كما لو كانت فى خدمة أهداف مستقلة عن بعضها ولا ترتبط بأصل مشترك وفى حالة المصراع كانت غريزة الأنا تنشط كما لو كانت عامل كبت والغريزة الجنسية كما لو كانت مكبونة .

وقد حلت محلي هذه التفرقة تفرقة أخرى بين غريزة الحياة (Bros) وغريزة التدمير أو الموت . وقد الهم طر فرويد إلى افتراض هذه التفرقة بين المجموعتين على إثر دراسته للظواهر المتعلقة بالسامية والمازونجية .

فنى السادية يستمد الإشباع الجنسى من الآلام الى يُعانيها الموضوع الجنسى على حين أنه فى المازوخية تكون ذات المريض هى التى تتألم للوصول إلى الإشباع الجنسى . هذان الميلان لا يمكن فهمهما إلا بافتراض انصهار غريزتين مختلفتين: غريزة جنسية وغريزة تدمير ، ويرى فرويد أن كل الميول الغريزية تجد أصلها في صهر هاتين الغريز تين بدرجات متفاوتة ،

فالمازوخية ، إذا جردناها من عنصرها الجنسي ، تفترض وجود ميل إلى تحطيم الذات . إذ لما كانت الغرائز في مجموعها تتحرك في بده الحياة داخل الشخصية حيث لا ينمو الاهمام بالموضوعات الخارجية إلا فيما بعد فإن المازوخية ، أي الميل إلى تدمير اللات ، يحب أن تكون أقدم وأعرق من السادية . أما في حالة السادية فإن غريزة التدمير لا توجه نحو الذات وإنما إلى الحارج وتتحول إلى نوع من العدوان . وإذا كان هذا العدوان لا يجد محرجاً إلى العالم الحارجي أى إذا لم [ يكن بإمكانه محاصرة موضوعات معينة فإنه يستدير مرة أخرى إلى الداخل مهدداً الشخص بتدمير ذاتي ولتفادي هذا لابد من إيجاد موضوعات في العالم الخارجي يتجه نحوها هذا الميل العدواني . ويقول فرويد : وكل شيُّ بحدث كما لو كنا رغبة في حماية أنفسنا بمن التحطيم اللمائي ، تجد لزاماً علينا تحطيم أشخاص غيرنا أو أشياء ع(١)

وقد أعرب فرويد في خطاباته لا ينشتاين (٢٠) عن فكرة أن الحرب د ما هي إلا تلهية لمغريزة التدمير بتوجيهها نحو العالم الحارجي ، ويعطى هذا الميل إلى الحرب وتبريراً بيولوجيًّا ، ورُمن لا نستطيع إنكار أن الميل إلى الحرب أقرب لطبيعتنا من مقاومة الحرب ، التي تظل في الواقع بظرية ، . وقد تناول جلوڤر. وهو محلل ... نفساتى بارز دراسة العلاقات بين الحزب والجنوح نحو السلام ويذهب إلى أن وجزءاً كبيراً من الطاقة التي تستخدم في تنظيم السلم تنبع من نفس المصامر اللـي تنبع منه الحرب ٥. ولذا فإن إجراءات السلم تكون مُحفَّة واحيَّالية لأنها إذا ذهبت إلى نهايتها فإنها تبدو في الحقيقة عدوانية .

وقد لقي هذا الرأى مقانِمة حتى من بين عبدى النظرية الفرويدية، ف مجموعها ومع ذلك يبدو أن العدوانية عنصر لصيق بنفسية الإنسان وإذا ما افتقد محرجاً خَارِجِيًّا ، يؤدى إلى التحطيم اللاتي . وسواء أكان هذا الرأى صميحاً أم لا فإنه

<sup>(1)</sup> Franci: Nouvelles Conférences, p. 112 (1) Pourquoi la guerre ?

يعتى بشكل مؤكد مع تاريخ التطور الإنساني الذي يزخر بقصص الاضطهاد السياسي والديني وبأنواع التعليب والوحشية ، وهو يفتق أيضاً مع الهديد الذي يحوم حولنا بتدمير نووى ، ولكن من الحطأ الاعتقاد بأن نظرية فرويد تقود حيا إلى نظرة ملؤها التشاؤم في قلوة الإنسان على التحكم في ميوله العلوانية . فأنا الإنسان المتعقل . وهو تتاج التفاعل المتبادل بين مجهودات الآبا الأولى لتحقيق الإنسان من السيطرة على قوى التعدير الكامة في نفسه وترجيبها نحو أهداف أصلح من وربائها الأمل في أن يتمكن أصلح من وجهة نظر المجتمع . وفر ويد نفسه عارض أولئك الهلين النفسانيين ... أصلح من وجهة نظر المجتمع . وفر ويد نفسه عارض أولئك الهلين النفسانيين ... الأنا بالنسبة للقوى الشيطانية التي تسكن في أحماقنا فإن إنماء المعارف في السكولوجية الإسانية وتفهمهما يعد أحسن وسيلة لتحرير الأبا من المبودية حيال الأنا الأدني . ولما يمكن أن يقيم إلانا الأدني . ولما يمكنا أن نعتبر أن اللوحة القائمة التي رسمها فرويد لقوى التدمير التي تسكن فينا والتي تدفير أن اللوحة القائمة التي تعد تعد تحد يحدير أنها لل تدمير نفسه ، تعد تحد يحدير أم يمكن أن يقيم إذا لم نجعل للعقل المنزلة الأحلى .

## ٣\_ الأحلام والتحليل

وفع فرويد الحلم لملى مستوى البحث العلمي . كان الحلم فيا سبق امتيازاً للعراقات والمنجمين والمشعوفين ؛ ولم تفكر العقول العلمية في إعطاء ولو بعض الأهمية لما كان يبدو أرض صيد محجوزة الأوائثك اللذين كانوا يتصيدين ضحاياهم من بين الموسوسين والجمهلة . وإذا ما توصلوا إلى إعطاء الحلم بعض الأهمية الإنهم لم يكونوا يتعلون القول بأنه نتاج عقل مجهد دون اللهاب إلى ما هو أبعد من ذلك .

وقد وصف فرويد هذا الموقف في فقرة كان يقص فهاكيف أصبح الحلم جزءاً من تكنيك التحليل النفسي : واكتشف ذات يوم أن الأعراض المرضية لبعض العصبيين لها معنى . وكافي هذا تقعلة البداية للعلاج بالتحليل النفسي . وخلال العلاج بالتحليل النفسي لوحظ أن المرضى يروون أحلاماً بدلاً من أعراض المرض . وفترض تبعاً للمك أن هذه الأحلام لها بلورها معنى .. وهكذا أصبح الحلم موضوعاً لأبحاث التحليل النفسي . والحلم ظاهرة عادية لا تعلق عليها إلا أهمية ضئيلة ومجردة في ظاهرها من كل قيمة عملية (السدي) ... .

والهلف الرئيسي للحلم في نظرية التحليل النفسي ، هو إيعاد كل ما يمكن أن يربك النوم . والمثال البسيط على ذلك هو الرجل الجائع الذي تزعجه تقلصات الحوع وتكون بذلك مثيرات داخلية . فيحلم هذا الشخص بأنه يحضر وايمة عنفظا ينومه بفضل الإشباع الحيالي لجوهه . ومن الأمثلة المألوفة عن المثيرات الداخلية في الأحلام مثال كيس، الماء الساعن الذي ينساب ويولد حلماً موضوعه ماء البحر ، ومثال جرس المنبه المدى يتحول في الحلم إلى كينن جرس رقيق . وعلى هذا النحو يم الحفاظ على النوم بإدماج ما يزعجه في الحلم .

ويلعب الحلم ف رأى فرويد دوراً آخر هو أنه يجسد تحقيق أمنية مستحيلة فى الواقع . ويقوم جزء هام من تكنيك التحليل على فك رموز الحلم كما رواه الحالم لاكتشاف الأمنية التي يحتويها الحلم . وخلال عملية فك الرمور هذه تتنخل تفرقة بين المضمون الظاهر والمضمون ا الكامن فى الحلم . فالمضمون الكامن هو الباعث الحقيقي على الحلم أى مجموع الميكانيكيات النفسية التي تثيره . وحتى يمكن لهذه الميكانيكيات اللاشعورية أن تفصح عن نفسها فى الشعور فإلها تستخدم أفكاراً أخرى وصوراً أشحرى ورموزاً أخرى تسمع لها بالهروب من قوى الكبت التي تفقد جزماً من فاعليتها فى أثناء النهم و فالحلم هو التحقيق المتنكر لأمنية مكبونة ، وهو التوفيق بين متطلبات ميل ممنوع والمقاومة التي تثيرها الرقابة النابعة من الآنا ، (فرويد)

أما التصوير الفعل للحلم فهو يكون ما يسمى بالمضمون الظاهر ؛ وهو يغطى المضمون الكامن الذى يشير إلى المعنى الحقيق . ويكون عمل المحلل النفسانى هو اكتشاف الميكانيكيات اللاشعورية التى تعد أصل الحلم وذلك فيها وراء الحالم .

وقد شبه فرويد الرقابة على الحلم التي تحول المفسمون الكامن إلى مفسمون ظاهر بالرقابة على الصحف في أثناء الحرب: « افتحوا أى جريدة سياسية وستجدون النص متقطعاً في مواضع متفرقة تاركاً مناطق خالية على الورق .. وفي أحيان أخرى .. يتوقع الكاتب أن بعض الفقرات ستصطلم بفيتو الرقابة فيخفف من لهجتها مقدماً ، ويلخل عليها تعديلات طفيفة أو يكتني بمسها أو الإشارة كناية إلى ما كان على وشك أن يكتبه . وتظهر الجريدة بعد ذلك وبها فراغات بيضاء ولكن بعض التوريات والأفكار الغامضة تكشف لك يسهولة الجهودات بيضاء ولكن بحض الرقابة الرسمية بإخضاع نفسه لرقابته اللهاتية مقدماً هناية الم

وتُحرَف الميكانيكية النفسية التي عن طريقها تَمْسِرُ المادة المكبوتة إلى الشعور ياسم ( صياغة الحلم ، L'élaboration du reve ، ...بهذه الوسيلة تتحول الإثارات التي تقلق النوم إلى حلم وتولد صوراً تفصح بها المادة المكبوتة عن نفسها .

ولندوس الآن بعضاً من الوسائل الى تنشط فى أثناء صياغة الحلم لتحويل المضمون الكامن إلى مضمون ظاهر . يقول قرويد إنه يعنى وبالتكثيف ، أن مضمون الحلم الظاهر أصغر من مضمون الحلم الكامن إذ لا يقدم المضمون الظاهر إلا نوعاً من الترجمة المختصرة للمضمون الكامن (1).

و والتكثيف ، ميكانيكية يتداخل بواسطنها عدد من عناصر المضمون الكامن المشابة لتقديم صورة واحدة أو فكرة واحدة فى المضمون الظاهر . فنى الحلم يمكن أن تولد شخصية واحدة من إذابة ملامع عدة أشخاص . وهكذا يمكننا أي تعلم بشخص يشبه السيد (س) يمشى (عر) ويلبس كما يليس السيد (م) . و تحلم بمكان يسمى Trouport وترجد علاقة فى المضمون الكامن بين الأشخاص والأعمان تسمح بصهرهم فى المضمون الظاهر .

هذه الميكانيكية شديدة التحديد لأنه من ناحية قد يمثل عنصر واحد حدة ميول مكبرتة ومن ناحية أخرى قد يعبر عنصر واحد مكبرت عن نفسه بعدة عناصر ظاهرة . وفي رأى فرويد يوجد هنا تشابك antrelacement بين المضمون الظاهر وللمسمود الكامن حتى إن معنى كل عنصر من عناصر الحلم الظاهر يجب أن تنتظر التضير الكلي للحلم .

ولكن أهم ميكانيكية في تشييد الحلم هي ( النقل ) Le déplacement وهو الممثل الأساسي هن الطبيعة غير المفهومة للحلم .

فالاهمام العاطني يعتصر هام في المقسمون يمكن أن ويقل ع للى عنصر أقل أهمية حتى إن الحلم الطاهر يكون مركزاً على عتاصر ثانوية أو قليلة الأهمية . وهكذا فإن ما يبدو الموضوع الأسامي للحلم قد لا يكون له في الواقع سوي عامل لا معني له ، ويكون المعنى الحقيق مرتبطاً بعتصر مختف . فني حلم يصمف منزلاً وطريقة تزيين الأبواب والنوافل لايتعلق العنصر الهام في الحلم إلا بإناء صغير موضوع على المدفئة . ويقول فرويد إن والتقل » ac deplacement هو العلزيقة المستعملة أساساً في أثناء تشويه الحلم والى تتنخل تحت تأثير الرقابة .

والمسرحة Dramatization وسيلة تتحول بواسطتها ألهكار الحلم إلى صور مرثية

والأفكار المجردة إلى أشياء ثابتة . وترتبط ميكانيكية المسرحة ارتباطاً وثيقاً بمكانيكية النقل لأن اختيار الفكرة التي سيم التركيز عليها بالاشتراك مع العنصر الهام المتحمد على إمكان تصوير هذا المنصر تصويراً مرثباً . و فنشاط الحلم إلا يردد في إعادة تأسيس فكرة صلبة بسرعة وإعطائها شكلاً آخر حتى ولو كان هذا الشكل الحديد بيسر تحويل هذه الأفكار إلى صور مرثبة ، واضماً بذلك باية للقائ الذي تثيره فكرة متسلطة » ( فرويد )

وبهذا يأخل الحلم شكل حركة أو نشاط مسرحى ، أما معطيات الزمن والمكان فلا تتدخل في لعبة الأفكار الظاهرة .

وأخيراً فإن ميكانيكية الصياغة الثانوية L'élaboration secondaire تتلخل في لحظة الاستيقاظ ولا تتوقف عند هذا الحد . وتم صياغة الحلم بواسطة الرقيب المتيقظ الذي يجعله أكثر اتساقاً وأقرب للمنطق . ويم إخفاء بعض العناصر بصورة الفضل حتى لا تزمج الشعور . وزبلط العناصر انحتلفة للحلم الظاهر بيمضها حتى يكون الحلم كلا ، ولكن يجب الاحراس ، بصفة عامة من الرغبة في تعمير جزء من الحلم الظاهر بواسطة جزء آخر كما لوكان الحلم الظاهر بواسطة جزء آخر كما لوكان الحلم فكرة واحدة متسقة أو كما لوكان يشكل تمثيلاً عملياً » . ( فرويد )

ولذًا فإن نتيجة الصياعة الثانوية هي إعطاء الحلم شكلاً جديداً كلية وزيادة صعوبة تفسيره .

وتفصح المكانيكيات النفسية المكبوتة عن نفسها في الحلم بواسطة الرموز فالشي بمثل شيئاً آخر بسبب نقطة تشابه بيهما حتى إن الجمع بيهما يكون من الدقة بحيث لا يدركه الشعور . هذا التمثيل بالرموز يكون قبل كل شي تحويلاً للاهمام العاطني من موضوع إلى موضوع آخر . وهذه الميكانيكية عامة متعلقة بالإنسانية حتى إننا نجدها في المراسم الوثنية والدينية . فالعيش والدم اللذان يرمزان لحسد ودم المسيح والمرأة ذات العينين المعصوبتين التي تحمل ميزاناً لتروز العدالة تعتبر أشكالاً مألوفة لكل منا .

ويمكننا اعتبار مثل هذه الرمزية مقابلاً لحاجة العقول البدائية للتعبير عن أفكارها في صورة عيانية ولكننا إذا نظرنا إليها باعتبارها تعبيراً عن ميكانيكيات لا شعورية فإن الرموز ستبدع كما لو كانت طريقة للتنكر إذ أن الموضوعات المتباعدة التي تجمع يتم اختيارها اتمثل الحاجات المكبوتة .

وهناك رموز معينة بظهر كثيراً في الأحلام لدرجة أن النظرية الفرويدية اعتبرها عالمية . وهكله فإن المنزل يرمز غالباً لحسد الإنسان ، فإذا كانت الجلدوان المساء يكون الأمر متعلقاً برجل ، أما إذا كانت مزودة بأسوار ومطلات فإن الأمركون متملقاً بامرأة . ويظهر الوالدان في صورة ملك وملكة على حين يظهر الإلدان في صورة ملك وملكة على حين يظهر للميلاد أما الملاقات بين الأم وأطفالها فتمثل بواسطة الترول إلى الماء أو الحروج منه ، إياقاذ الغير أو الإتقاذ بواسطة الغير . ويرمز السفر للموت . ويمثل الأحضاء الحسيبة بواسطة أشياء مشهو اللكر يمثل يواسطة على المناسبة على المناسبة المناسب

ويبدو أن التكنيك المستعمل في التحليل التفسى بسيط إلى حد كبير ولكنه يتطلب من الحلل النفساني براعة وصبراً لا يمكن التوصل اليهما إلا يعد سنوات من التمرين العمل . وهذا التكنيك يعرف باسم التداعي الطليق Amocasions libres ويتم عملياً على النحو الآتى : يعرف المريض حلماً ، أو تجربة أو يعبر عن فكرة أو نغير أو يعبر عن المرضوع ويب على المريض آلا يدلل جهداً في ترجيه أفكاره كما يجب أن يعبر عن الأفكار المتواصلة التي تعن له . ولما كان كل تداع يجز آخر فإن المريض ينهي إلى تذكر التجارب المنسية . وفي الهدوه الذي يخيم على مكتب الحلل النفساني يرتخي المريض ويتكلم عن نفسه بطريقته ، وفي الوقت نفسه يعبر عن أحلامه . وعرص المطل ويتكلم عن نفسه بطريقته ، وفي الوقت نفسه يعبر عن أحلامه . وعرص المطل على تجنب ما يرجى إلى المريض بأى شيء بواسطة الحركة أو القول .

ويدون المحلل وقفات بالمريض فى أثناء تحدثه والتى يبدو أنها تعبى وجود أمر مكبوت . ويقابل المحلل حادة مقاومة كبيرة ، كما لو كان المريض يمشى الكشف عن ميوله اللا شعورية ويقتضى الأمر أشهراً عديدة لإتمام التحليل ، أشهراً من الصبروالفهم . وتنمو علاقة عاطفية بين المحلل والمريض تسمى التحويل Transert أى تتحول الانفعالات والميول ذات الصلة بعلاقات سابقة لمتم على النحو الذي كان يأمله المريض إلى المحلل ، وجها يتحرر المريض من موافقة العاطفية الى كانت أساس الصعوبات التي عانى منها ، ويصل الحلل إلى أن يضع أمام عيى المريض تباعاً الأشخاص اللين كانت له بهم علاقات عاطفية . فيستطيع أن يقدم مثلاً منا المريض عندما كان المريض طفلاً تتنازعه نحو الأب الأحاسيس المتناقضة من حب وكراهية . هذا الوضع التناثى (١) الذي يكون فيه الموضوع أو الشخص نحت تأثير الميول المتناقضة عبوباً ومكروها في آن واحد يجمل مهمة المحلل دقيقة ويقول فرويد : و لا يمكن إنكار أن الحمل النفساني في أثنام جهوده لتخطي ظاهرة التحويل بنجاح يلقي صعوبات كبيرة ، ولكن يجب ألا نسبى المريض على النهائية التي نسيا المريض على التي تسدى لنا خدمة إسام الانفعالات العاطفية التي نسيا المريض ع

الهدف الهائى للمحلل هو جعل علاقة التحويل واعية حتى يعرف المريض دور المحلل وطبيعة الانفعالات المتصارعة التي يشعر بها نحوه .لأن هذا يسمح له بالتحرر من الحضوع للمحلل . وتفهم الأسباب التي كانت أصل الصعوبات التي واجهها .

كان فرويد شديد الحرص في أحكامه المتعلقة باستعمال تكنيك التحليل التحليل التحليل وكان يعترف بصر احة أن حالات الشفاء في أثناء العلاج بالتحليل النفسي ليست مرتفعة إلى حد يمكن التفاجر به وفعلاً فقد كتب يقول و لا أحتقد أن نجاحا يمكن المتعلق لأن نجاحا الأشخاص الذين يؤمنون بمحجزات السيدة العلراء أكثر من أولئك الذين يؤمنون برجود اللاشعور به وبصرف النظر عن الدعابة الى تحريها هذه الجملة فإنه يبلد أنها تعترف ضمناً بدور الإيماء في الشفاء إلى حد يصحب معه القول إلى أي مدى يرجع فيه نجاح التكنيك الفرويدي إلى القيمة الذاتية لطريقته أو يرجع إلى التقة الى يضعها المريض في الحلل ولكن أهمية النظرية الفرويدية لا ترجع إلى التجاح الذي

(1)

Frend : Nouvelles conférences, p. 165

<sup>(</sup> y ) مكان شهور العبع تخمص العثراء . Tarouse

تحرزه في العلاج بقدر ما: ترجع إلى قدرتها على جعلنا نفهم ، بطريقة أفضل ، الطبيعة الإنسانية . فأهمية العلم لا تكمن فقط في الإمكانيات التي يقدمها لنا للتدخل أو التنبق ، وإنما يهمنا العلم كذلك لأنه يجعلنا نفهم الميكانيكيات الى تمكننا من التدخل . فنظرية فرويد عن الحلم تعطى للأحلام معنى وتشرحها باعتبارها شكلا للنشاط النفسي ينتج عندما يكون الشعور في حالة راحة . وفي ضوم هذه النظرية فلاحظ أن الطريقة التي تعبر بها الحيالات عقلنا في حالة اليقظة مرتبطة بالأحلام الى تراودنا فى الليل . فنحن نعلم أننا نحاول فى أحلام اليقظة تحقيق الآمال والرغبات الواعية ؛ فعرى أنفسنا وقد حققنا النجاح ونقوم بتحويل الأحداث لتمكس لنا صورة طيبة عن أنفسنا . وحسب النظرية الفرويدية فإن حدوث مثل هذه الميكانيكية أثناء النوم يصبح شيئًا ذا معنى . وقد كان اللـكتور براون على حق. عندما قال إن فهم جزء كبير من هذه النظرية يرجع إلى أنها تعبر عن أشياء ـ طالما عرفناها ولكن بصورة مشوشة (١) ويورد الدكتور براون حجة الأستاذ نوتكات ف كتابه و Psychology of personality والتي مؤادها أنه وحتى أوائك الذين يعدون التعبير بالرموز في الأحلام مفتعلاً ومضحكاً يعرفون تماماً معناه . فإذا ما حلم شخص بأنه ينزل إلى مطبخه ويفتح الفرن فيجد به قطعة من الحلوي فإنه عندما يستيقظ يرى الحلم حجرداً من كل معى ؛ ومع ذلك فإنه عندما يجلس فى مقهى الحي مع جندى يقول له : ٩ إن لدى زوجتي قطعة حلوي في الفرن ۽ يفهم بسرعة ما تعنيه هذه الجملة ، (٢)

أكدت الأبحاث على النوم بطريقة غير مباشرة صمة نظرية فرويد عن التعبير بالروز في الأحلام ، وتمت دراسة الطريقة التي يحدث بها تعديل مضمون الأحلام بواسطة المنهات الشفوية . وتعلال إحدى التجارب أوقط الشخص بعد أن أعيد على سمعه مراراً اسم صديقته " Jemmy" والذي كان يردده جهاز تسجيل . وعندما استيقظ تذكر أنه كان يجلم بأنه كان يقوم بفتح خزانة حديدية بواسطة كماشة "Jemmy" . فالتعبير بالمرموز في هذا الحالم واضح . ولكن الشيء الذي

Dr. J.A.C. Brown : Frend and the post --- Frendisms, Penguin 19262, P. 189 ( )

<sup>(</sup>٢) جملة شعبية إفجليزية تعنى أن المرأة حامل.

<sup>. (</sup>٣)

يلفت النظر هو كون الإثارة الشفوية ذات المضمون العاطني القوى ، يمكن أن تولد حلماً ، وأن هذا الحلم مع كونه نابعاً من الإثارة الشفوية ، يصل إلى التعبير عن ميول عاطفية كامنة .

وبرضم أن فرويد نادى بضرورة إدخال الحلم ف مجالات البحث العلمى وبرضم أن فرويد نادى بضرورة إدخال الحلم فه مجالات البحث العلمي وبأن الحلم له معنى ولا يقتصر على كونه نتاج نشاط نفسى لم يتم التحكم فيه ، فإننا نستطيع أن نقول وبحق إنه بالغ في تقدير الدور الذي يلعبه تحقيق الرغبات في صياغة الحلم إن أقصى ما يمكن أن نقوله هو أن نشاط الحلم يستمد من تحقيق الرغبات فقط وأنه لا تتدخل عوامل أخرى في صياغة الأحلام . وتعلمنا تجربتنا الرغبات فقط وأنه لا تتدخل عوامل أخرى في صياغة الأحلام . وتعلمنا تجربتنا من خلال الحياة اليومية أن خوفنا وقلقنا يعبران كلمك عن نفسيهما في الحلم ، وبرغم أن هذا الحوف والقلق يمكن أن يكون مصدرهما الرغبات المكبونة ، بمعنى أن هذا الحوف والقلق يمكن أن يكون مصدرهما الرغبات المكبونة ، يمكن أن يكون مصدرهما الرغبات المكبونة ، يمكن أن يكون مصدرهما الرغبات المكبون والقلق يمكن أن يكون مرتبطين بأسباب أكثر موضوعية .

وعلى سبيل المثال أسر لى صديق فقد عمله لمدة ثلاث سنوات خلال أزمة . الثلاثينات بأن الحوف من البطالة ظل يراوده ولم يستطع التخلص منه تماماً فى أية لحظة . وبرغم أنه يستطيع التحكم فى هذا الحوف فى أثناء يقطته فإنه يعود للظهور أحياناً فى أثناء نويه .

والحقيقة أن جزءاً كبيراً من حياة اليقظة خاضع لما يفضل تلاميد فرويد تسميته «القمع » "repression" في مقابلة «الكبت » "refoulement" أي تنحية الأفكار المقلقة جانباً بطريقة شعورية . ولما كانت الرقابة الشعورية تضعف في أثناء النوم ، فإن الأفكار المنحاة والميول المكبوتة يمكها أن تظهر وتعبر عن نفسها .

إن الماركسية التي تعالج وقائع محددة موضوعيا وعلى وجه الخصوص وقائع اجتماعية لا تفسح للحلم إلا مكاناً صغيراً في تركيبها النظرى. ومع ذلك ، كما سأحاول أن أوضح ، فإن الأحلام ذات أهمية خاصة بالنسبة لنظرية المعرقة . ذلك أنها الملاكسة

للهذا تعييراً عن التفكير الاجهامي . بمعى أنها لا تعتبر جزماً من وسائلنا المعتادة في التعيير وبالتالى لا تستخدم الوسائل اللغوية الى تسمح لنا بالتواصل مع الآخرين . هذه الوسائل اللغوية ، نظراً لأنها على قدر كبير من التجريد ، تحضع لتحريفات خاصة بها . وأياً كان الأمر فإن الدواسات المعلقة بالإنسان لا يمكنها أن تتجاهل حقيقة الحلم . فكوننا تستطيع أن محقق في الأحلام ما يأباه علينا الواقع الحارجي جقيقة ذات معى اجماعي لا تزال أهميها في انتظار استكشاف الإنسان لها .

## ٤ ــ السواء والمرض في علم النفس

من بين الاعراضات التى توجه إلى نظرية التعطيل النفسى أنها مؤسسة على إلى المسلم على المحالات تعدد من الحالات غير السوية أى المرضية نقطة البداية لها : وقد كان رد فرويد على ذلك أن الحالات غير السوية إلا تختلف عن الحالات المرضية إلا اختلافاً فى الدرجة وأن الإنجاهات المرجودة فى الحالات المرضية ولكن بشكل مخفف . ويؤدى تضخم الأعراض كا تظهر فى الحالات المرضية إلى تسييل دراسها ويكنى أن نتأمل بعمق السلوك المحتاد لنعش على نفس الانجاهات والميول ولكن بصورة أقل ظهوراً فى تصرف كل منا .

ویکمن الحطر الحقیق عند القیام بممارسة العلاج النفسى . فیجب علی القائم بالعلاج النفسى أن بحترس من تعلیق المعلیات غیر الطبیعیة علی أشخاص طبیعین من أن یری كل شخص عصابیا أو مریضاً باللهان ــ ذلك أنه تظهر علی كل منا إلى حد ما ، ملامم سلوك غیر طبیعی .

وخلال هذا الفصل أود أن أصف بعض أشكال التصرف التي تبحث فيها ميولنا اللاشعورية عن وسيلة تعبر بها عن نفسها والتي تكون ميكانيكيات الدفاع التي يستعملها الأنا . والتمهيد لوصف السلوك العادى سأبدأ بدراسة السلوك غير العادى .

الشكلان غير العاديين للسلوك غير الطبيعي هما العصاب Névriose واللهان Psychose أي المرض العقلي .

فى المصابينشاً، حسب النظرية الفرويدية ، وضع تكون فيه الميول والاتجاهات المتضادة قد بلغت حدا من التوتر لا يمكن احياله . وإذا بالكبت تقل فاعليته في التحكم في هذه المتضادات . ويهدد القلق البالاستقرار . وفي سبيل تجنب هذا ينمى الآنا أعراضاً عصابية تقوى الكبت أوله تسمع للميول اللا شعورية أن تقصع عن نفسها بجوئياً . وتعد هذه الأعراض بالنسبة للآنا وسيلة الهروب ين فده الميل

التى يثير الصراع فيها بينها قلقاً كتيفاً . وهكذا في أثناء الحرب يفدو كثير من المنتخذ فريسة لا نفعالات وميول متضادة . إذ تكون لديهم رضة في الابتعاد وبقدر الإمكانا عن مكان الحطر ولكنهم يحجمون عن ذلك لما يولده تحقيق هذه الرغبة من الشعور بالإثم . الحرب غز ، والبقاء ينطوى على خطر ورعا يؤدى إلى المنت . فلاحظ هنا وجود ميلين متضادين . فيجب على الأنا أن يواجه من ناحية الشيط العاطفي الذي يولده وضع منطو على خطر ، ومن ناحية أخرى التركيبات أن يقدم جرح وسيلة للهرب من هذا الاختيار ، وإذا بالشخص المصاب يعمل على أعدا عمى أو شلل يحمل على حالة عجز عن العمل الإيجابي . وبهذا يشم غريزة إلا بتعاد عن الحمل الإيجابي . وبهذا يشم غريزة الابتعاد عن الحمل دون أن ينجم عن ذلك شعور بالإثم . ويمكن أن تكون الأعراض المساب يعمل على المتعابية مصحوبة بالام شعورية لإرضاء الأنا الأعلى ويرتبط العمى أو الشلل القدرة على الحركة ثم يخفى عندما تترقف حالة التنوع المغناطيسي . وقم المغافيات المغروض بميكانيكية لا شعورية تماما ودون غش متعمد .

وتسمى هذه الوسائل للهروب من صراع عاطنى عن طريق الإصابة باضطراب جسانى ببحث فيه الآتا المهدد عن ملجأ ، تسمى فى لغة التحليل النفسى بعصاب الاستبدال أو التحول . Newroses de conversion . ويحدث كل شيء كما لو كان الصراع النفسى يتحول إلى أعراض جسانية . وفي الحالات الأخف درجة الى لا تعمل إلى أن تكون عصاباً نستطيع أن نلاحظ كل يوم هذه الميكانيكية في ظهور إصابات قليلة الحطر: سعال ، زكام ، صداع ، تجنبنا لقاءات لا ترغب فيها أو أهمالاً متفرة . فالصداع المدى يمنعنا من إلقاء خطبة يمكن أن يبدو تلقائياً ولكنه يساعدنا على التخلص من مهمة كنا لا نرغب في القيام بها

ويعد العصاب الفهرى<sup>(۱)</sup> شكادً آخر من أشكال الهروب . ويدخل في هذه الطائفة الموسوس الذين يشعرون يضرورة القيام بأعمال معينة مجردة من أي معمى في

<sup>(1)</sup> يقابل ما يعرف في اللغة الدارجة بالوسواس مثل أن يقرم المريض تحت إحساس قهري بفسل يديه مرات حديد في أثناء العبار أو بدير ذلك من الطفوس الفهرية قبل النوم مثلا.

ذاتها ولكمها ترمز إلى ميول؛ مكبوته ، فالأعمال مثل الترتيب ، والعد ، ولمس الأشياء لها قيمة نحمى أولئك الذين يلجاون إليها من أن يقوموا بأعمال أخرى يمكن أن تولد إصابات غير مرغوب فيها . ويمكن أن تكون ردود فعل تسمى ، ومزياً ، إلى إعدام عمل سابق ذى معى نفسى قوى . وقد تكون أعمال القهر مصحوبة بأفكار تبدو غالباً تافهة وخالية من أى معنى ولكها تساعد على إضفاء أفكار أعرى هامة من الناحية النفسية . وتسبب استحالة القيام بهذه الأعمال والجهود التى تبذل لطرد الوساوس في حدوث اضطراب عقل خطير .

ويفرب فرويد مثلاً طريفاً عن العصاب الحيازي في كتابه و مقدمة في التحليل النفسي ۽ .

كانت فتاة ذكية في التاسعة حشرة من عرها تشعر دين سبب ظاهر بالهيار شديد. إذكان عليها قبل أن تأوى إلى فراشها أن تقوم بمجموعة من الطقوس المقدة؟ كانت لا تريد أن تسمع أى ضبعة في أثناء الليل وفي سبيل ذلك كانت توقف الساعة ذات البندول في حجربها وتبرك ساعة يدها خارج الحجرة. ثم ترتب بعناية الزهريات وشوالى الوردا على مكتبها حي لا تسقط على الأرض وتزعج نومها . وكانت تصر على أن يترك باب حجربها المؤدى إلى حجرة والديها مفتوحاً . وأخيراً ترتب فراشها بطريقة معقدة بحيث لا تمس الوسادة الطويلة تحشب السرير وتوضع الحدة عازية تماماً لقطر الوسادة الطويلة . وتهز زغب المخدة حتى يسقط الريش كله في القاع ثم يبسط ليعاد توزيعة مرة أشرى يصورة متسا وية و وتكون جميع هذه الحركات مقبرتة بالحوف من علم القيام بها على النحو الواجب . ولما كانت تعخلها مرازاً وتكواراً ؟ ويتسرب الشلك أحياناً إلى الاحتياطيات التي كانت تتخلها وتكون النيج وتمرك والديها المدحودين ينامان ؟ ( فرويد)

وقد أظهر التحليل اللدى قام به فرويد لهذه الطقوس أن الهدف مها مزدوج فهى من ناحية ترمز لرغبات جنسية مكبوتة ومن ناحية أخرى تمد وسيلة دفاح ضد هذه الرغبات .

نبه فرويد إلى أن الاحتياطيات التي تتخذها هذه الفتاة قبل أن تأرى إلى

فراشها لها مقابل فى الحياة العادية . فكثير من الأشخاص يلجأن إلى القيام بأعمال روينية قبل أن يناموا . ولا تعد هذه الاحتياطات أعراضاً عصابية إلا إذا انخلت شكادً مبالفاً فيه وكانت مصحوبة بوسومة شديدة . وكالمك الحال بالنسبة لأعمال الوسومة الأقبل أحمية مثل: تفادى وضع القدم على الشق بين بلاطنين ، ولمس حاجز السلم ، وعد الحطوات ، وضعل الأيدى وفيرها من الأعمال الحي يمكن ملاحظها كثيراً فى الحياة اليوبية . وهي لا تشير إلى وجود عصاب إلا إذا أصبحت تشيم الاضطراب جدياً في سير الحياة وتصبح مصدراً للقلق إذا لم يتم إنجازها .

إذن فالأعراض العصابية لها معنى . إنها ميكانيكيات يستطيع الأنا بواسطتها الدفاع من نفسه أمام إلحاحات الأنا الأدنى والقلق الذى يصاحبها عامة يمثل الخطر المدأم النابع من الأعماق .

يميز فرويد بين ثلاثة أنواع من الحصر أى القلق النفسى أو الفيق : حصر موضوع نابع من تهديد خارجي ، وحصر عصابى يأتى فيه الحطر من الداخل وتثيره متطلبات الأنا الأدنى ، وأخيراً حصر أخلاق يكون سببه الأنا الأعلى عندما تكون الأفكار والأعمال في صراع مع أحكام الأنا الأعلى القاسية . وفالباً ما يكون الشخص العصابى فريسة للقلق الذى لا يستطيع منه فكاكاً برفم أن هذا القلق يكون على غير أساس أو مبائماً فيه بالنسبة للمركز الحارجي ويمكن أن يكون القلق و حصراً هاماً على (معمد Anagoine flottante أن يكون صب معين ، وبرغم ذلك فهو بولد شعوراً بعدم الراحة وبالحوف . ويمكن أن يكون المبت موبياً عن الأماكن العالمية ، أو من الفضاء أو من الأماكن العالمية مثل: وقد يوافق المريض على أن خوفه لا يتناسب مع الهديد الذي يقدمه المؤقف الحارجي وهذا الموقف الحارجي وهذا الموقف الحارجي وهذا الموقف الحارجي وهذا المؤقف الموقف الحارجي وهذا المؤقف الموقف الحارجي وهذا المؤقف المي يضفاها يمكن أن تكون ذات صلة يميول لا شعورية تهدد هذه المؤقف بتحريكها .

 <sup>(</sup>١) ألحمر ألهائم : المتصود بالحمر القائق النصى والمقسود بالفقة الهائم أن القائ غير موتبط بموضوع سين وإنما يستشعر المريض قلقاً دون ريطه مصدر سين .

والمصافى برغم مرضه لا يفقد كل اتصال بالواقع . فقد يبحث عن مساعدة لتحسين حالته ويريد الحروج من حالة الشعور بعدم الأمان والتعاسة . ولا يسمى إلى الهرب من مشاكله عن طريق تشويه علاقته بالعالم الحارجي تشويم كاملاً ، أو الانسحاب الكامل منه . فهو واع بعجزه ويفهم ذلك إلى جدما ويشعر بمسئوليته اجهاعياً . ويكمن هنا الفارق الرئيسي بين العصابى والمصاب باللمان يعرضي اللمان ينسحبون من الواقع أو يشوهون بعض أوجهه . فالمريض باللمان نادراً ما يعترف بعجزه و والانسحاب من الواقع يتم لدى المرضى العقليين بطريقتين : إما أن اللاشعور المكبوت يصبح من القوة بحيث يغرقه الشعور الذي يحدده ولى الواقع يقدو من القسوة بحيث لا يمكن أن يحتمله الأنا المهاده وفي فورة يائسة للدفاع يلقي الأنا بنفسه بين فراعي الميل اللاشعورية ع (١)

ويعد تصنيف الأمراض العقلية خامضاً إلى حد ما<sup>(٣)</sup> . والأشكال الرئيسية هي الشيزونزاينا أو القصام Schizophrénie والذهان الهوبي الاكتئابي psychose maniaco — depressive

ويتميز الفصام La schizophrenic ما باختلاف الحياة العاطفية عن الجياة العاطفية عن الجياة العقلية . فالمريض يتأثر بصورة بالغة من شيء تافه في حين يظل ساكناً تماماً في ظروف من المفروض حسب طبائع الأشياء أن تثيره . وعلى هذا النحو فقد تصيبه نوبة هياج لأن ورقة وقست عند قدميه ويبدو غير متأثر عند إخباره بوفاة قريب له . هذا الاختلاف بين الحياة العاطفية والحياة العقلية أدى إلى دفع الفصام

Freid ; Nouvelles conférences, p. 16 (1)

<sup>(</sup>٢) يوجد تسنيف منتشر الاحتمال ، يميز بين الأمراض العقلية الضوية والأمراض العقلية الضوية والأمراض العقلية الشوية هي التي نجد لها سبياً جمالياً . ويمكن أن يحسب فها. تدهور في العماد كا في حالة الشيخوخة وإصابة المنع وعدم كفاية مد المنع بالدم والتسمم إلغ . أما اللحان الوظين فلا يدو واضحاً أن حاك سبياً عضوياً . ويدخل في هذا الشعان الفسي الكحتابي .

وتحير هذه الأمراض أمراضاً في الشخصية لا أمراضاً في الجمعد ، ولكن ليس من السهل تأكيد أنه لا توجه عوامل حضوية خصصا لحجرد أننا لا فراها . ثم إنه لا يجب أن نسى أن الأمراض المنظية العضرية تفسد الشخصية شئ إنه ليس في الإمكان وقسع خط فاصل بين اللمان التشوي واللمان التيليني .

بأنه و انفصال الأفكار ع (۱۱ "dimociation dea idéea" فالمصاب بالشيزوفرانيا انسحب من العالم ليدخل فى عالم من صنعه مأهول بالأهوام الغريبة والأفكار العجبية .

وعيز الطب النفسى أربعة أشكال رئيسية لقصام: البسيط ، الحفرين وعيز الطب النفسى أربعة أشكال رئيسية لقصام: البسيط ، الحفرين وشكله البسيط يتميز ببطء التفكير والانسحاب من العالم المصحوب بالتخيلات. في شكله البسيط يتميز ببطء التفكير والانسحاب من العالم المصحوب بالتخيلات أما في الشكل المفرية عن الخوام الخيالية ، والموسة المسموحة ، ونوع من العبط ، وأزمات ضحك عصبية وكذلك استعمال الفائل ومعان جديدة في الحديث . وتتولل على الشكل الشخل عالم من الواقع ، ويبدو المرض غريباً كلية عن محيطة وعن حاجات بصده . فهولا يتكلم ويجب أن يعامل كما لو كان علفاً صغيراً . وعندما يتحول إلى حالة الإثارة التخشية يصبح ملكه النفاعي وشكن استجاب في حالة مضادة عن النشاط الزائد لا على أثر تغير في مركزه الحارجي ولكن استجابة لميكانيكيات عقله الغربية الأطوار . وأخيراً في الشكل الباراناوي ولكن استجابة لميكانيكيات على المتحوب بالموسة شديدة وزر ؟ ويا بالاضطهاد المصحوب بالموسة شديدة (؟)

هذا الشكل الأخير يشبه الذهان المعروف باسم بارانويا ، وفي الحقيقة ، يرى بعض الأطباء التصانيين أن هذا الشكل يدخل في هذه الطائفة . وبع ذلك في البارانويا لا وجود لاضطرابات التمكير وإن وجدت فبقدر ضئيل . وتتسم

<sup>(</sup>١) اصطلاح قد يفهم خطأ ويخلط بين الفصام وتعدد الشخصيات – وهو حالة بهدو قبها أن لقدو بغير شخصيت – إحداهما تبدو مبتهجة وبناكمة عل حين تكون الأعرى جادة وبتعقلة كا في الحالات الشجرة التي درسها مورتيز، بزش : حال بوشون .

<sup>(</sup>٣) كثيراً ما تنظ الحلوبة بالأبرهام فالرج milluman هو ذكرة عاملة عثل الاستداد الحامل. أن الأشخاص يتآمرون ضفك أما الحلوبة mailumanan فهي تصور خيال دون موضوع مثل سياح أصوات أو دارية أشخاص في حين أنه لا يوجد من يتكلم ولا يوجد من يري.

البارانويا بأقصى حد من عدم الثقة ، إذ يصل حال المريض بالبارانويا إلى حد الاعتقاد بأن العالم كله متامر ضده ، وأنه مضطهد وأن أبسط الأعمال تبدد راحته . والواقع أنه مضطهد مبررة بمعى معين ، والمن على منافعات في المقيقة داخلى ، إذ أن الأعمال والأقوال التي لا يثن فيها تأتى منه وتمثل الميول المكبوتة واللا شعورية التي يخاف منها . وبعيارة أخرى هو يحاول الهرب من الميل الداخلية بإلقائها على العالم الحارجي ونسبها إلى أشخاص آخرين وسنناقش وبعد هذه الميكانيكية المسهاة بالإسقاط projection

عندما يم إسقاط الميول غير السارة على العالم الحارجي تصبح العملية منطقية للغاية . غالباً ما يشيد مرضى البارانويا نظاماً للدفاع على درجة عالية من الإحكام لتبرير ريبتهم . وقد ترامت إلى علمي حالة مماثلة كان المريض فيها قد بني حجة مفيدة مؤداها أنه كان المقصود بأغلب عمليات القتل التي وقعت حديثاً . فكل القتل في السنوات الأخيرة يحملون حنصراً كان يراه في نفس سواء لتواجد، في نفس المكان عند ارتكاب الجريمة أو لأن الحروف الأولى من اسمه كان يحملها القتيل . وكان يرد على كل اعتراض بمجموعة من البراهين المرتبة بطريقة معقدة لتكون حجة مقمة للغاية .

والشكل الأعير من أشكال الدهان الذي سندرسه باختصار هو الذهان الهوسي الاكتئائي معير من أشكال الدهان الذي يعرف فنزات الزاج أو لحظات الإحساس بالراحة التي يتبعها أبيار . وبصفة عامة يمكننا تقبل هذه القفزات الإحساس بالراحة التي يتبعها أبيار . وبصفة عامة يمكننا تقبل هذه القفزات أو التخلص منها أو التصرف بحيث لا تسيطر علينا سيطرة كاملة . ولمكن في اللمان وفي حالات معينة تطول فترة الأبيار ثم يتبعها تغير مفاجىء يأتى بإثارة شديدة . وفي حالات أخرى تتقهى فترة من المدوه النسبي ثم تليا فترة من الانشراح المفاجئ ويتعلف التطور من مريض لآخر . ف حالة الابيار يكون المريض جاملة ولا يستطيع التغلب على حزنه العميق ، يرى نفسه غير صالح لأى شي " ، يدين فيسه ع المريض شديد المريض شديد ويمكن أن تأتى مرحلة الجنون فجأة ، فيسبح المريض شديد المريض المريض شديد المريض شديد المريض شديد المريض شديد المريض شديد المري

كا لو كان يتفجر طاقة . ولا يزال أصل هذه الحالة غير واضح تماماً . والتفسير الفرويدي لها هو أنه في حالة الانبيار يسيطر أنا أعلى شديد القسوة على الأنا غير المسلح الذي يكون تحت رحمته ويجبره على الرضوخ لقواعد أخلاقية في القسوة . وبعد فترة ممينة يفقد الأنا الأعلى قدرته على الانتقاد ويستعيد الأنا قواه .وعندما يهذا الأنا الأعلى ويسترد الأنا قدرته على الحركة ، يجد نفسه في حالة من ازدياد النشاط ممزوج بالنشوة ويمثال كما لو كان الأنا الأعلى قد فقد كل سلطته أو اختلط به وبالتالى فإن هذا الأنا المفتل الذي تحرر يستسلم تماماً لإشباع كل رفياته (١) .

وهكذا فإن العصاب واللهان ميكانيكيات للدفاع يسمى الآنا بواسطتها لحماية نفسه من إلحابات الآنا الآدني وفي بعض الحالات يسمى للتصالح مع أنا أعلى شديد القسوة . وهذه الميكانيكات تعبر في أشكال متطرفة عن ميول موجودة لدى كل منا فنحن نيستخدم في حياتنا اليوبية ميكانيكيات نرى بواسطتها إلى الدفاع عن أنفسنا من ميول لا شمورية قد يؤدى إظهارها إلى الاصطدام بواصد الشعور . هذه الميكانيكيات هي مصدر أشكال التصرف التي تشبه إلى حد ما تصرفات المصابين ومرضى اللهان . ومعرفة هذه الميكانيكيات ذات أهمية كبرى لفهم الإنسان على المستوين الشخصى والاجهامي . ولذا فإنني أختم هذا الفصل بتعداد أهم هذه الميكانيكيات .

أولة التكرين المكسى La formation réactionnells وهو يتعلق بإغاء مهات واهيامات شعورية هي نقيض المديل المكبوتة . فيوجه الاهيام بعيداً عن إهده المهرل المكبوتة في فيوجه الاهيام بعيداً المحكمي المكبوتة وبلما يشتد ردعها . ومن الأشكال العامة للتكوين المحكمي المحكمي وقص ، أشخاص يتعانقون ، فن حديث، روايات يتم الوصول إلى حل وسط تكون فيه الميل الجنسية اللا شعورية قد يجدت مخرجاً جزئياً في الاهيام المركز على الأشياء الجنسية على حين أنها في ذات الوقت تمنوعة منماً قطعياً بسبب العليقة الما الاهيام من فيجد مثارة أشخاص مغيمين بالبحث الدائم من العليقة المائم من

منظر غير محتشم فى الحدائق العامة أو يتنزهون فى الأماكن الخلوية للتعبير عن عدم رضائهم عن البطاقات البرايدية Les cartes postales المعروضة فى واجهات المحلات.

وهناك مثال آخر مألوف وهو مثال ربة البيت اتى ترعب كل من يحيط بها بدأبها على إزالة الغبار والدعك والتنظيف . هذه المفالاة فى النظافة هى تكوين عكسى لميل شديد تكون فيه القلمارة ذات معنى هام .

والإسقاط projection وسيلة الهروب من الميول اللاشعورية عن طريق نسبها إلى أشخاص أو مراكز في العالم الخارجي فيتحول الهديد من بهديد داخلي له شهديد خارجي . وبدلك يصبح الهجوم والهروب ممكناً كما لو كان متعلقاً بتهديد خارجي حقيق . فبواسطة الإسقاط تميل إلى التمرف لدى الغير عليهده الميول التي نرفض الاحتراف بوجودها فينا ونديها . وإن مراقباً يقفلاً يستطيع في الفالب أن يحدد خاصية الميول اللاشعورية بتسجيل الأشياء التي يديها بأعنف صورة . فالشخص الذي ينتقد كثيراً أخطاء الآخرين يكون لديه إحساس شديد باللذب حيال أخطائه هو ، والشخص غير المخلص يقف بالمرصاد لغدر ، وإلماش الخير ، وإلماش الكثير الشكوك ويسقط ، ميوله الشخصية بعدم الواء .

ويعتبر التسامى وسيلة جامة للتعيير عن الميول الجنسية . إذ نجد هذه الميول ويعجها الجنسي من هذه الميول ويجهها الجنسي وتعبر عن هذه الميول ويجهها الجنسي وتعبر عن نفسها بوسيلة يقبلها المجتمع . وترماً لنظرية فرويد ينبع الكثير من صور الإبداع الفني والأدبي والثقافي من نحول الطاقة الجنسية . وميزة التسامى أنه يتضمن أقل قدر من الردع إذ لا يتعلق الأمر بميكانيكية دفاع عن الأنا ضد إلحاحات الأنا الأدفى وإنما يتعلق بطريقة تعاون بين الأنا والأنا الأدفى . ومن هنا فهي الربست جونز التقابل بين التكوين المكسى والتسامى على النحو الآتى : « يمكن أن اربست جونز التقابل بين التكوين المكسى والتسامى على النحو الآتى : « يمكن أن يتحول هذا يتحول من المكال البدائي للاستعراض إلى رفية في السيطرة جسمانياً أو بالقول أو بأى شكل من أشكال الشهرة . وبواسطة التكوين المكسى يمكن أن يتحول هذا الميل للاستعراض إلى تواضع أو خجل . ويمكن أن تتسامى اللذة البدائية الي يجلها الأطفال، في القدارة إلى هواية الرسم أو النحت أو فن الطبخ ، أو تؤدى إلى

رد فعل يبدو في الميل للنظافة والترتيب وما إلى ذلك ،

ووجود التساى دليل على أن الأتا من القوة بحيث يستطيع استعمال الميول الفريزية لتحقيق أهداف اجهاعية . وبدلاً من أن يضحى الأنا أمام الواقع الذى يضيق المحتاق على ميول الأنا فإن الأنا يبحث فى الواقع المحارجي عن وسائل التعبير تكون غرجاً مناسباً لميول الأنا الأدنى دون أن تثير صراعاً مع القواعد والقوانين الاجهاعية . ولذا يمكن اعتبار التساى المصدر الذاتى للتقدم الاجهاعي . أما الأمر الذي يثير نقاشاً فهو إمكان تشجيع التساى لأنه يتدخل على مستوى لا شعورى، ولكنني أميل إلى الدفاع عن نظام تعليم مستنير بمعرفة التحليل النشعي ، يكون الهدف منه ترقية مناهج تقوية الأنا والتأثير بطريقة غير مباشرة على إمكانيات التساى . وفي نفس الوقت يجب إتاحة الفرصة للتقدم الاجهاعي مثل التنظيم الاقتصادى القائم على أسس معقولة وغيره من الأشياء التي سنعرض لها بعد دراسة النظرية الماركسية .

ومن أشهر ميكاليكيسات الدفاع المعترف بها دون صحوبة التبرير المستحدة المستحدة المستحدة مصدر قلق المستحدة المستحدة المستحدة المستحدة المستحدة عن طريق المحاد توافق بينها وبين قواعد الشعور . ويم الوصول إلى هذا الهدف عن طريق، توسط ميكانيكية قوامها تبرير العمل . وعندما يم العشور على السبب اللدي بيرر هذا العمل على ضوء قواعد الشعور يمكن القيام به دون لوم أو شعور بالمدنب . وهل هذا النحو فإن منتج الأسلحة يمكن أن يجد لنفسه أعذاراً لكون أرباحه تأتى نتيجة لموت الأبرياء عن طريق و إثبات ٤ أن الطبيعة البشرية تتطلب الحوب وأن هذه الحرب ضرورية التقدم لأنها تنبه وتمرك الخلق والاعتراع ، هذا التبرير هو دفاع ضد المنطق الذي يمكن أن يجبرنا على تعديل سلوكنا .

عندما نتبى وجهة نظر لضبط التعيير عن ميولنا اللا شعورية والتوفيق بينها وين قواعد الشعور فإن أى اعتراض منطق يمكن الإحساس به كما لوكان مهدداً لحلا الفسيط بين الآنا والآنا الآدنى. ويلتى هذا ضيوماً على واقعة أن كثيراً من الناس فها يتعلق بحياتهم العاطفية ، يقرون الانباء سياسياً أو دينياً ثم يبحثون عن أسباب تبرر قوارهم هذا ، وإذا ما دار نقاش بين شخصين في هذا الوضع ، فإنه ينتهى

عادة بصراع بين نظريتين عقليتين يتبنياجها لتبرير أهداف عاطفية . فكل شخص يفكر في المثور على حجيج لتدعيم ميكانيكية دفاعه أكثر بما يفكر في الإصفاء للآخر . والشخص ذو والعقلية الواسعة ، خاصة إذا كان يحب توجيه الأنظار إلى هذه الصفة ، يكون عادة أكثر ميلاً إلى والمعقلية ، من خصمه اللك ينوه بهذه الحصلة . فإصرار شخص على سعة أفقه وتفتح ذهنه يكون في الفالب دليلاً على أنه يستشعر الحاجة إلى تبرير مجموعة من المتقدات التي يتعلق بها بشدة . فإذا كانت هذه الأكثير من المناقشات اليزاطية غير المجدية ، خاصة فيا يتعلق بالدين والسياسة ، حيث لا تغلب الحجج البيزاطية على الآراء النابعة من الماطفة . والحاجة التي يستشمرها بعض الأشخاص المتعلقية على الآراء النابعة من الماطفة . والحاجة التي يستشمرها بعض الأشخاص المتعلق بمتقداتهم تؤدى بهم إلى الاندفاع وراء أنواع متباينة من التطرف حيال المدن يختلفون معهم في الرأى . وأياكان هدوه وساحة طبيعة الشخص فن الملكن أن تتحول إلى وحشية وشراسة إذا ما كان توازنه العقلي مهدداً بواسطة عرض وجبهات نظر لا يستطيع تقبلها لأسباب عاطفية .

هذه المكانيكيات التى عرضناها فيا سبق يمكن ملاحظها في الحياة اليوبية ، وليس من الصعب استظهارها لذى الأشخاص الذين نعرفهم ولكن الصعوبة تزداد عندما يتعلق الأمر بأنفسنا . ويزداد حديث النسيان في الكلام أو عند الكتابة وهو ما يطلق عليه فرويد دعلم النفس المرضى للحياة اليوبية على فله على الله وهو ما يطلق عليه فرويد دعلم النفس المرضى للحياة اليوبية عن النسيان من قبيل الصدفة الميحتة ولكنها مقصودة ومحددة بواسطة تدخل المكانيكيات اللاشعورية في الحياة الشعورية .

وعلى ذلك فقد أوضح أنه عندما ينسى شخص ذو ذاكرة قوية موحداً فلملك لأن لديه نفوراً حقيقياً لاشعورياً من هذا الموحد. والطبيباللدى يقول لعميلته الفنية وآمل ألا تفادرى الفراش سريعاً ٤ يعبر عن رضبته اللا شعورية فى أن يستمر فى المناية بها . ويعرض فرويد المحالة الرئست لجونز اللدى أهمل تصدير رسالة بالبريد عدة أسابيع وعندما صدرها فى الماية نسى أن يكتب العنوان وأعيدت له فكتب العنوان ونسى أن يضم عليها طابع البريد له فكتب

العصاب واللهان أشكال من سوء التكيف مع الواقع الاجباعي . وهي تميز

الأشخاص الذين يخفقون بطريقة أو بأخرى في علاقاتهم الشخصية والاجماعية ويستبد بهم القلق والتعاسة حتى إنهم يرون الحياة غير محتملة . ويعد سوء التكيف هذا ذا أهمية كبرى في المجتمع المعاصر . وهكذا فني نهاية عام ١٩٥٤ قرر البيان الذي أصدرته لحنة أندروود Underwood عن الأطفال أن خسى ( ٢ ) أسرة المستشفيات المهيأة يشغلها المصابين بأمراض عقلية أو مختلى العقول . أما عن كون العلاقة بين العصاب واللهان علاقة كمية فهي نقطة لم يم بعد توضيحها ويجادل البعض في كون الذهان شكلا متطرفاً من أشكال العصاب. فيدافع أيسنك Eysenck مثلاً عن فكرة أن كلا من الشكلين يكشف عن أوجه مختلفة من الشخصية . وببدو مع ذلك أنه في كلا الشكلين توجد عوامل أساسية يؤدى التوتر الذي يطرأ على المركز الشخصي أو الاجتماعي إلى التأثير عليها . وتقدم الحياة الحديثة فرصاً عديدة لإيقاظ ميول عصابية أو ذهانية لدى الأشخاص الذين لديهم استعداد سابق . فالسمى لإحراز نجاح شخصي ولزيادة الثراء الذي يعد سمة التوفيق ، والعمل على التفوق على الجار الذي هو أساس نظام التعليم لدينا ، والشعور بعدم الطمأنينة اقتصاديا واجباعيا مضافا إليه الخطر المستمر الناشئ عن إمكان التدمير النووى وغيرها من العوامل تساهم في زيادة التوتر وتعمل على تهديد التوازن العقلي للأشخاص الدين يكون تكوينهم هشاً . ويبين لنا تحليل فرويد ما هي الصراعات الى على أسامها يتطور العصاب واللهان. وسنرى فيها بعد أن التحليل الماركسي سيوضح لنا المراكز الاجتماعية الخارجية التي يمكن أن تنبه وتزيد شدة هذه الصراعات.

وبهذا نصل إلى جاية الموجز الذي أقدمه للأفكار الرئيسية للنظرية الفرويدية .

كان شاغلى هو عرض هذه النظرية بأكبر قدر ممكن من الأمانة مع تجنب المتاهات. لقدكان فرويد أحد المفكرين العباقرة الذين تحتفظ أفكارهم بحيويتها وسلطتها خلال عشرات السنوات بعد موت أصحابها، على حين أن أفكار من يدعون بالمصححين ، Revisionnistres تختفي معهم . ولذا فإن نظريات يونيع Jung وآدار Adter الا تقدم اليوم اسوى قيمة تاريخية بعد أن اختنى مقيساها .

ولا يعنى هذا أن النظرية الفرويدية لا تتطور ولكن يعني أن التطور طرأ

فى مجال العلاج ، فى تطبيق أسس النظرية على المركز الإكلينيكى . وقد سبق لنا أن سجلنا أن التلاميد المصاصرين لفرويد لديهم إحساس متزايد بالمشاكل الاجهامية وأن هناك عاولة لإدخال النظرية الغرويدية فى الأسس الثقافية والاجهامية لسلوك الإنسان . وهذا الكتاب مساهمة فى هذه المحاولة مادام يسعى للجمع فى وحدة غنية بين المحاولتين الكبير تين الله التين شهدها رئاننا لفهم الطبيعة الإنسانية .

يأتى الاحتراض الأسامي على التحليل النفسى ، في علم النفس العام من السلوكيين تعطر بنظرية باقلوف. وخاصة من أوائك المتأثرين بنظرية باقلوف. ولما كانه كتير من الماركسيين يعدون نظرية باقلوف ركتاً في علم النفس فإنى لا أود أن أختم هذا القصل دون أن أمسها .

إن نقط الالتقاء بين فرويد وبافلوت أكثر نما يتصور بصفة عامة . فكلاهما انفرادى متزمت ، وهما يعتقدان أن السلوك الإنسانى له أساس عصبي عضوى . Neuro—physiologique . ولكن على حين يصر فرويد على واقعة أن علم النفس لا يستطيع أن ينتظر حتى يم الوصف العصبي القسيولوجي فلسلوك الإنسانى ، يرى بافلوف وتلاميده أن علماً وضعياً السلوك الإنسانى لا يمكن أن يوجد دون هذا العمل .

ومع ذلك فقد باعت بالإعفاق جميع المحاولات التي أرادت إكمال المسافة بين الفروفسيولوجيا والسلوك ٥ حتى إن سلوكياً دقيقاً مثل كلارك ك مل Chark بين الفروفسيولوجيا والسلوك 6 حتى إن سلوكياً دقيقاً مثل كلارك ك مل التشريحي والفسيولوجي الدجهاز العصبي كما نعرفه اليوم في أدق تفاصيله ، وما يعتبر ضرورياً لتشييد نظرية معقولة ومرضية لسلوك الجماعات ٤ . وحتى يتقدم علم النفس يزداد اليقين يوماً بعد يوم بضرورة إبقائه مجالاً مستقلاً تشيد أفكاره وقوانينه الحاصة على حدة .

اقترح بافلوف أن عملية التعلم يمكن أن تم فى ظروف معينة وأن حيواناً عفوظاً فى الجو الصناعي، لأحد المعامل يتعلم الاستجابة لبعض المثيرات التى كانت قبل ذلك لا تؤثر فيه . فالكلب يسيل لعابه عند ساع دق الجوس الذى أصبح علامة للأكل بعد أن حوك عدة مرات فى نفس وقت تقديم الوجات . وقد وسع

بعض علماء النفس الأمريكيين حدود الميكانيكيات الشرطية وصنوها . وحددوا على وجه الدقة وسيلة مسياة و الشرطية الآلية ع "conditionnementinstrumental" يقوم فيها الحيوان بعمل مثل الضغط على بدالات أو إدارة الرأس وهي حركات آلية تؤدى إلى حصوله على مكافأة .

أما ما يحدث في مع الجيوان ، وطبيعة الاتصالات المتمركة في خشاته فلايزال موضوعاً تسيطر عليه التأملات الحيالية . ويرفض أخلب طماء أمراض المجموعة العصبية الحديثين وصف بافلوف لهذه الميكانيكيات . ومع ذلك فإن من فضائل النظرية الشرطية أبا تستطيع أن تعلمنا شيئاً عن الميكانيكيات التي تعمل في أثناء اكتسابنا الأشكال جديدة من السلوك مثل كيفية تعلم هذا الشيء أو ذلك . ولكما لا تستطيع برغم ذلك أن تبرر نظرية السلوك، وإنما أقصى ما تستطيع هو إيضاح بعض الأوجه الهامة مثل معوفة ردود الفعل التي تحدث في ظروف معينة . ولكننا يجب أن تسامل وهذا أمر عظيم الأهمية فيا يتعلق بالسلوك الإنساني: لماذا تكتسب هذه المجموعة من ردود الفعل وما هي أهدافها ؟ لأن الترقف عند معرفة كتسب عير كاف .

فنحن نعرف مثلاً أن الأطفال يحتاجون للحب وللأمان ولعناية شديدة من الوالدين حتى يصبحوا بالغين سعداء . ونعرف أن الإهمال والفقر والحرمان من الحب والبيت المحطم يمكن أن تسبب كارثة في حياتهم المستقبلة . فيمكن أن يتج عن عدم إشباع بعض الحاجات أشكال من السلوك تؤدى إلى هذا الإشباع ولكنها تحقق مضرة الفرد وللمجتمع .

وكمبدأ عام يمكن وصف أشكال السلوك هذه بعبارات شرطية غير أن الموضوع الحقيق لدواستنا هو هذه الحاجات غير المشبعة ، أما التشويه الذي يطرأ على السلوك نتيجة لعدم إشباع هذه الحاجات فيضع مشاكل خطيرة في علم النفس لا يمكن الرح عليها بعبارات الاتعكاس الشرطي .

ويمكن أن نتساءل أيضاً : ما هى فائدة نظرية الانعكاس الشرطى لإيضاح انجذابنا نحو الدين اسرى أن فرويد كان يعتقد أن الدين يقدم إشباعاً وهمياً لحاجات عميقة وأنه مواساة لصدمات هذه الحياة وفكرة فرويد عن الله، هى إسقاط projection للصورة الأبوية يتوجه نحوها الفرد ليستكمل الانتفاع بالحب والحماية اللذين كان ينتفع بهما عندما كان طفلاً ، توضع معنى الميل الدينى عند فرويد . ويبقى أن نعرف هل يمكن أن نفسر هذه الفكرة بعبارات شرطية ؟

نحن نعرف أن نوع الدين والاعتبارات الأخلاقية مشروطة بالوسط الاجماعي الذي ينشأ فيه الفرد ومن الممكن دراسة الطريقة التي تصطدم بها المؤثرات الاجماعية لدى الطفل عندما يكبر . ولكن المشكلة الرئيسية تظل قائمة . ما هي طبيعة الحاجة التي تبحث عن إشباع وهي في الدين ؟

وصف فرويد بعض الميكانيكيات الداخلية التي تفسر سلوك الفرد والتي تتحدى تفسيراً بعبارات شرطية مثل ميكانيكيات الإسقاط projection والتبرير المستفلة Rationalisastion اللذين شرحناهما في هذا الفصل . فهما يساعداننا على تفهم ما يحدث في حالات التمصب المنصري واللوني ؛ وهما يخرجان إلى النور الكراهية والحموف الكامنين واللذين يسقطان على الأقليات ثم يبروان بحجج عقلية بعد ذلك .

وقد خلق طرويد إنظرياته قبل أن تدخل اصطلاحات مسيطرة dominantes وتواتيج تدخيرات résultantes فواتيج ومتغيرات variables في النفس. وتعد أفكاره عن الكبت والآنا والآنا الأحلى والآنا الأحلى جزءاً من الأفكار المتسلطة التي بدأ مها عمله . وهي ذات قيمة في تفسير أوجه السلوك الإنساني اللدى يبدو بدويها متناقضاً ، وهي تسمح لنا بفهم جزء كبير من الشاط الإنساني .

كان فرويد يأمل أن يأتى اليوم الذي يدم فيه علم أمراض المجموعة العصبية و الزرلوجيا «"neurology" نظرياته وكان شديد الإيمان بالوحدة العلمية . وفي رأي أن أيحاث بافلوف ساهمت إلى حد كبير في تحقيق هذا الأمل . ولكن هذا لا يمنع أن يكون لعلم النفس نظرياته الحاصة من الممكن أن ترودنا نظرية نوروفسيولوجية Neuro — physiologique بمعلومات عن طريقة سير الميكانيكيات الوسيطة السلوك ولكن خصائص حاجات الإنسان والتمبير ون رضاته أو حرمانه تتطلب لإيضاحها أكثر من د اسة نورولوجية . وأى نظرية علم النفس، ولكنها لا يمكن أن تفيد إلا كسند لنظرية علم النفس، ولكنها لا يمكن أن تميد إلا كسند لنظرية علم النفس، ولكنها لا يمكن أن تكون بمؤدن بمفردها نظرية .

## الجـــزء الشانى فرويد وماركس

## ٥ \_مجتمعات بدائية

لفرويد وماركس كثير من الأفكار المشتركة عن طبيعة المجتمعات البدائية . كلاهما (١) شيد نظريات تأملية إلى درجة عالية حتى إنه يصعب إذا أخذنا في الاعتبار صعوبة الموضوع ، دعمها ببراهين مادية . فقد حاول كل منهما أن يستتج ما حدث للإنسان البدائي اللدى انقاد إلى إخضاع نفسه لمحرمات وإقامة حدود لحياته الجنسية .

اتخذ فرويد من إحدى نظريات دارون المتعلقة بعليمة الجماعات الإنسانية الأولى نقطة البداية لنظريته عن العشيرة البدائية . افترض دارون أن الإنسان و كان يعيش في الأصل في جماعات صغيرة ، كلرجل مع امرأة ، أو مع عدة نساء إذا كان قوياً ، يدافع عبن بغيرة ضد الجميع (٢) . وابتداء من هذه الفكرة فصل فرويد نظريته عن العشيرة البدائية والتي مؤداها أنها كانت تعيش تحت سيطرة رجل قوى محفظ لكنسه بجميع النساء ويجبر الشبان على ضبط رغباتهم الجنسية وإلا تعرضوا للخصاء . وقد مكتبه هذه النظرية من تفسير النظام المقد للموانع بين الحارم كا توجد في المجتمعات البدائية وكذلك أصل التوكية . وفي كتاب أخاذ ، التوقم والتحريم (١) Totemet Tabou صور الرابطة بين التوتم المتعلق على غيوان أو نبات احترم على منوال أحد الأسلاف وبين تفنين القيود التوتمية . وكان فرويد يعتقد أن هذا التغين يعكس القيود التي كان يفرضها الإنسان البدائي على وغراد المؤمة احتراماً لذكرى الأب .

 <sup>(</sup>١) هذا البحيه من أرجه الماركسية كان موضوع دراسة هامة من جانب إنجاز ، زبيل ماركس ،
 دراسة منشورة في و أصل الأسرة » .

The Origine of man, Vol. II, P. 603 . ١٠٢ . المن الإنسان، الجزء الثاني ص ١٠٣ . . ٢٠٢ أصل الإنسان، الجزء الثاني ص ٢٠٣ . . ٢٠٢

<sup>(</sup> ٣) التوتم Totess: . وهو مبارة من كانن حيران أو نباق وأحيانا ماهى ينظر إليه الرجل البدائ. في احتمام مضفوع ريمتك البدائيون أنهم يتحدون من ذلك التوتم كما تسمى الفييلة باسمه أي أن التوتم مدينه هو بوز للأب أو الجد وبديل مه .

والتوتم كما يعرفه فريزر (١) . هو مجموعة من الأشياء المماثلة يكن لها البدائي احتراماً متسماً بالاعتقاد في الحرافات ، وذلك لإيمانه بأنه توجد بينه وبين كل أشياء التوتم رابطة وثيقة وخاصة . والعلاقة بين الفرد وتوتمه علاقة مباركة متبادلة ، فيحمى التوتم الإنسان ويعبر الإنسان عن احترامه للتوتم بطرق مختلفة : بعدم قتله إذا كان حيواناً أو بعدم قطعه أو جنيه إذا كان نباتاً . والذي يميز التوتم عن التعويذة هو أن التوتم لا يتعلق أبداً بموضوع معز ول وإنما دائمًا بمجموعة من الأشياء ، عادة يكون نوعاً من الحيوان أو نوعاً من النبات ونادراً ما يكون صنفاً من الأشياء المادية . ويحمل أعضاء الجماعة التوتمية اسم توتمهم ويكونون مقتنعين بأنهم من سلالته . في داخل القبيلة الواحدة يمكن أن تتواجد معاً عدة جماعات توتمية ويمنع التنظيم المستمر لقواعد الزواج أعضاء المجموعة التوتمية من الزواج من أشخاص ينتمون إلى نفس التوتم أو من إيجاد علاقات جنسية: معهم . ويعتبر هذا مبدأ أساسياً من مبادئ التوتمية . فيتعين على أعضاء التوتم أن يتزوجوا من خارج جماعتهم التوتمية ومحالفة هذه القاعدة معاقب عليها من القبيلة بأجمعها . وكذلك فإن خرق القاعدة الى تحرم قتل أو أكل الحيوان أو النبات التوتمي يعاقب عليه بقسوة برغم أن العقاب فى هذه الحالة ينزل على المحالف تلقائياً . وهكذا فإن الفرد الذي يكتشف أنه أكل بطريق الحطأ حيواناً توتمياً يمكن من جراء ذلك أن يمرض ويموت . ويسرد فرويد المثل الآتي المأخوذ عن فريزر، الإيضاح مدى قسوة معاملة الأشخاص الذين يخرقون قواعد تحريم الزواج : و في الحالات النادرة التي تحلث فيها الواقعة التي نتكلم عنها عند قبيلة ( تا ــ تاــ هي ، thi ــ ta ــ thi ، في ويلز الجنوبية الجديدة ( أ ) ، يقتل الرجل ، أما المرأة فتعض وتصوب الرماح على جسمها إلى أن يمتلى بالجروح حتى تموت أو تكاد ، والعلة التي لا تقتل من أجلها فوراً هي أنها تعرضت للإكراه، وحيى فيا يتعلق بعلاقات الحب المؤقئة تكون موانع القبيلة مراعاة بدقة حيى إن

J.g. Frazer : Totomism and Esuganny, Hogarth Press, 19190. ( \ )

Nouvelle. Galles du sud, New South Wales. (Y)

إحدى دول الاتحاد الفيدوالي الأستراني على الشاطئء الشرقي وعاصمتها سيدني .

أي خرق لهذه الموانع يعد أكثر الأشياء بشاعة ويعاقب عليه بالموت ١١٥٠.

وترقع موانع أكل التوم وقتله فى فترات معينة فى الاحتفالات المعرفة باسم العيد التوتمى. ويشترك كل الأعضاء فى هذه الاحتفالات ويأكلين قطعة من حيوان الضحية ، مقيمين بالملك جماعة بريطها التوم . ويصحب مأتم الحيوان أثات عالية ثم يلى المأتم احتفالات ترضع فيا كل قواعد التحريم التوتمية . وبالما تطاق الحرية لكل الرغبات المكبوتة وتسود 3 روح الإجازة التي تسمع بكل أنواع الإفراط ويرى فرويد أن هذا يوضع طبيعة الإجازات فى وقتنا الحاضر، التي يبدو خلالها أن كل القواعد الملازمة فى الحياة العادية تلتى جانباً ، ونسمح فيها لأنفسنا بالإفراط والمغالاة التي تحمل على تقطيب الجين فى الغروف العادية .

توجد إذن ثلاث عصائص أساسية يحاول فرويد تفسيرها عن طريق نظريته في المشيرة البدائية . أولا: أن أعضاء التوجم يعد ون أنفسهم من سلالة سلم مشترك . ثانياً : أن العلاقات الجنسية داخل الجماعة التوجمية تمنوعة بشدة . ثالثاً : أن الأعياد التوجمية التي يحفظ بها دورياً تأذن برفع التحريمات وتكون مصحوبة لنا التحليل النفسي أن الحيوان التوجمي يقوم مقام الوالد ، وهلما يفسر لنا التناقض الليه فيا سبق : من ناحية تحريم قتل الحيوان ومن ناحية أخرى الاحتفال الذي يلى موته ، احتفالا يسبقه تفجر الحزن . هذا الوضح العاطف المتناقض ، الذي يميز حتى الآن عقدة الأبوة صد أطفالنا والذي يمتد أحياناً إلى عبد الميارة الفي الحيوان التوجمي الذي يعد الحيان الترتمي الذي يعد أحياناً إلى حياة البانين ، ينطبق أيضاً على الحيوان التوجمي الذي يعد الحيان التوجمي الذي يعد الحيان التوجمي الذي يعد بديلا للأب (٢٠) .

حاول فرويد إيماد علاقة بين هذا التفسير وفكرة دارون عن العشيرة البدائية عن طريق الفرض الذي قد يبدو ، باعترافه خياليًّا ولكنه يتميز بتقديم وحدة السلسلة من الظواهر التي ظلت معزولة حتى ذلك الحين . في العائلة الإنسانية المبدائية يبعد الذكور الأصغر سنًّا نتيجة لفيرة الأب . فيتجمع أولئك الصغار لقتله وأكله . وقد كتب فرويد « إن الجد العنيف كان تحوفجاً محسوداً وشيقاً

Freed : Totom et Pahou, p. 18.

Freud : Totem et Tabou, p. 162.

<sup>(1)</sup> (Y)

وبع ذلك فإن إقامة سور ضد فكرة المحارم لم يكن يتم بسهولة ، ذلك أن كل أخ كان منافساً للآخرين . ويفرض فرويد ، أنه خلال مدة ، وجدت علاقات بين الحارم ، إذ أن الميزة الكبرى التي كان يتمتع بها الآب متفرداً قد أصبحت من حق الأبناء . ولتتي هنا بالأفكار التي عرضها إنجلز في ه أصل الأسرة ، اللذي يستعمل اصطلاح د زواج الجماعة ، المأخوذ من كتاب ل . ه . مورجان لله الحبيم القديم "مصلاح د زواج الجماعة ، المشير إلى أن جميع نساء الجمساعة الداخية يتمون جنسياً إلى رجال جماعة توتمية مختلفة . وقد أمضي مورجان الجزء الأكبر من حياته بين الهنود الإيروكيين وتبتته قبيلة السنيكا . ويصعف عمله الأسلى د المجتمع القديم ، تطور المجتمع الإنساني ، من الوحشية إلى المدنية مارةً بالبربرية . وعلى أثر أبحائه التي قام بها بين الهنود ودراساته للوثائق التي أتته من العالم أجمع ، انتهى إلى أن نظرية الزواج من خارج القبيلة وحموهما من الحراج القبيلة المتعالم القبيلة وحموها القبيلة وحموها من الحراج القبيلة وحموها القبيلة وحموها من خارج القبيلة وحموها القبيلة وحموها من العالم أجمع ، انتهى إلى أن نظرية الزواج من خارج القبيلة وحموها القبيلة وحموها من نظارج القبيلة وحموها القبيلة وحموها من نظارة القبيلة وحموها القبيلة وحموها المنافقة وحموها من نظارة القبيلة وحموها القبيلة وحموها المنافقة وحموها المنافقة

التي يتبناها عدد كبير من علماء الأثرو بولوجيا (علم التاريخ الطبيعي للإنسان) 
تستند على فهم خاطئ، فالزواج من خارج القبيلة samaganes بصف أشكال الزواج التي كانت تم عندما كان أعضاء قبيلته مجبرين على البحث عن نساء خارج قبيلهم في حين أن الزواج من داخل القبيلة samaganes ينطبق على الزياح من داخل القبيلة ولكن مورجان أوضح أن التفرقة بين القبائل التي تتزوج من الخارج والقبائل التي تتزوج من الداخل لا أساس لما وأنه التواج من داخل القبيلة ولكن مورجان أوضح أن التفرقة بين في داخل الجماعات البدائية كانت القبائل مقسمة إلى عدد معين من الطبقات و طبقة متزاوجية عداد عليه عدد عليه يكونون و المناقبة كانت تسمح في مجموعها بالزواج من داخلها في حين أن الطبقات إن القبيلة كانت تسمح في مجموعها بالزواج من داخلها في حين أن الطبقات كانت لا تسمح بالزواج إلا من خارجها . هذه الطبقات محكم المنه المطلق للزواج كانت لا تسمح بالزواج إلا من خارجها . هذه الطبقات محكم المنه المطلق للزواج داخلها ، تبدو مقابلة للجماعات الترتجية التي تكلمنا عنها .

ويفترض مورجان وإنجلز أنه في أقدم شكل لنظام الرواج كان رجال جماعة ما بمارسون حقوقاً روجية على جميع نساء جماعة أخرى ، بمعنى أن الأعضاء المكونين بلحماعة ما لم يكونوا عندين بالاتصال بامرأة واحدة وإنما كانوا يستطيعون الاتصال جنسياً بأى امرأة من الجماعة الى لهم حق الاتصال بها . ويكون هدا و رواج الجماعة ، والأطفال من نتاج هذا الزواج كانوا ينادون كل رجل كان من حقه أن تكون له علاقات جنسية بأمهم و بأبى ، وينادون كل امرأة من جماعة الأم و بأوى وكذلك كانوا يتنادون فيا يسهم بأخى وأخنى . ومع ذلك فإن أنجلز يعتقد أن هذا الوضع الذى كان لا يقيد الحياة الجنسية بشدة ليس أقدم أشكال الملاقات الجنسية . أو كما يقول و إن جميع أشكال الزواج الجماعى التى نعرفها مصحوبة بشروط معقدة إلى حد كبير حتى إنها تقودنا إلى قبول وجود علاقات جنسية سابقة عليها أكثر بساطة ، فصل في نهاية تتبعها وتحليلها إلى فترة سحيقة تطور الحيوان نحو الإنسانية ، فصل في نهاية تتبعها وتحليلها إلى فترة سحيقة تطور الحيوان نحو الإنسانية ، ويتساءل أنجلز : وماذا يعنى تعبير علاقات جنسية حرة حرية مطلقة ؟ إنه يعنى أن الموانع الموجودة حاليًّا لم يكن لها وجود فيها مضى .. حرة حرية مطلقة إلى حد أن الحدود التي فرضها العرف كانت غير موجودة بعد s .

ما هى التميود التى سادت فى الفترة التالية خلال زواج الجماعة ؟ على ما يبدؤ 
هذه القيود هى الأسوار ضد زواج المحارم التى كانت أصل تحريم الزواج داخل 
الجماعة ، فإذا كانت نظرية فرويد فيا يعطق بأصل التوتية .. صحيحة أى أن 
هذه النظم تنبع من قتل الآب – فإن علينا أن نعرف بوجود فرة اسراحة بين القتل 
وبعث منع الاتصال جنسيًا بالمحارم ، فترة اسراحة يطلق فيها الأبناء المنتصرون 
العنان لشهواتهم الجنسية . ولذا فإن فرض هذه القيود لم يتم كما لاحظ فرويد 
بسهولة ، بحيث إننا نستطيع أن نضع جنبًا إلى جنب نظرية أنجاز عن ه فترة 
الملاقات الجنسية الحرة حرية مطلقة ، ونظرية فرويد المتعلقة بقتل الآب .

ويبدوالتشابه بين آراء فرويد وأتجاز أحمّر وضوحاً فيا يتعلق بالشروط الضرورية لتكوين زمرات اجمّاعية هامة والتي يقف التنافس بين الذكور عقبة في طريقها . ويعبر فرويد عن ذلك بقوله : « إذا كان الأبناء متفقين طالما أن الأمر متعلق بقتل الأب، فإنهم يتحولون إلى متنافسين بمجرد أن يتعلق الأمر بالحصول والسيطرة على النساء، فيبدى كل مهم، تشبيها بالأب ، إرادة في الحصول على جميع النساء . وكان الصراع العام الذي يمكن أن ينتج عن ذلك كفيلا بتحطيم المجتمع . فإذا ما أراد الإخوة أن يعشوا معاً لم يكن أمامهم إلا طريق واحد عليم أن يسلكوه : بعد تحطي خلافات بين المحارم بعد تحريم العلاقات بين المحارم ومنى القواعد التي بواسطها يتنازلون جميعاً عن رغبة تملك النساء على النزاع » .

أما أنجلز الذي لم يكن في استطاعته إلا التأمل في مجال استطاع فيه فرويد أن يشيد بناء مؤسسًا على أبحاث أثر وبولوجية أكثر عمقاً ، فقد مهد برخم ذلك بطريقة بارعة لنظرية فرويد عن الكبت، باعتباره عنصر ثبات أب نسانية ، الاجماعية . وقد كتب في ذلك وإن التسامح المتبادل بين الكائنات الإنسانية ، واختفاء الغيرة ، كانا برغم ذلك الشرط الأول لتكوين جماعات أكثر أهمية ، وأكثر دواماً ، وهي التربة الوحيدة الصالحة لتحقيق تطور الحيوان نحو الإنسانية » .

ويستطرد مشيراً إلى إحدى خصائص الرواج الجماعى ، الذى يكون أول أشكال الرواج من خارج القبيلة ، وهى خاصية اختفاء الغيرة لأن هذا الرواج يتطلب حتماً أن أى امرأة تستطيع الحصول على إشباع جنسى من أى رجل من الجماعة المقابلة: و ولكن ما هو أقدم وأقوى شكل للأسرة وجدفى والتاريخ و يمكن أن نلاحظه حتى يومنا هذا هناك والا إنه زواج الجماعة، ذلك الشكل من أشكال الرواج الذى تتمى فيه جماعات كاملة من النساء بالتبادل وهو شكل لا يرك أى مكان للغيرة و .

إذن نستطيع بسهولة ربط وجهات نظر إنجاز وفرويد . « فترة العلاقات الحنسية الحرة حرية كاملة » إلى يشير إليها الأول ، تجد موازيها في الفترة التي للى قتل الأب البدائي ، الذي يسمح بالإشباع الكامل للغرائز الجنسية . وهلي حين يذكر إنجاز أن التسامح المتبادل بين اللدكور الشبان كان ضروريًّا ثبات الهتمع ، يلاحظ فرويد أن على الإنجوة حتى يعيشوا مما أن يقيموا أسواراً في وجه الاتصال بالمحارم . وفي ختام المطاف ، يكون الزواج الجماعي المؤزن لأول تجمع توتمي تكون في داخله الفيرة والمداوة المتبادلة ممنوعة ومعاقباً عليها وتكون في خارجه الرغبات الجنسية مباحة .

ولدرجم الآن إلى نظرية الأب البدائي والتي يرجع إليها الفضل في إقامة تأصيل خموعة كبيرة من المناصر المتضادة . فقد كان فرويد شاعراً بأنها ذات صبغة تأملية إذ يقول بصددها : وحتى أتجنبأي سوء فهم أعتقد أنه من المفيد أن أذكر صراخة أنني عندما أقيم علاقات ، لا أنسى أبداً الطبيعة المقدة للظواهر التي يمكن أن تستتج وأن نبي الرحيدة هي إضافة عامل جديد يمكن استخلاصه من الأبحاث في التحليل التفسى إلى الأسباب المعروفة أو غير المعرف بها حتى الآن في الدين والأخلاق والمهتم ع(١٠).

وهناك احتراض واجهه فرويد فى الكتاب الذى نحن بصدده يبدو لى أنه يجد ردًا جزئيًا عليه فى اكتشافاته التالية المبيول التفسية التى تضمها فكرته عن الأنا الأعلى وقد ذكره كما يلى : « إننا نقبل فى الواقع أن إحساساً بالمشولية استمر خلال ملايين السنين ، منتقلاً من جبل إلى جيل ومتصلاً بخطأ قديم موفل في قدمه حتى إنه في لمخطأة معينة لم يستطع الإنسان أن مجلية عاطفية لم تتولد إلا لدى جبل من الأبناء أسبتت معاملتهم بواسطة الأب، استطاعت أن تظهر لدى أجيال جديدة لم تقدر لها هذه المعاملة بفضل القضاء على الأب الطافحة »(١).

إن الصعوبة فيها يتعلق بهذه النظرية تتجلى في استنادها إلى الاعتقاد في توارث الصفات المكتسبة ، وفي انتقال نتائج التجارب العاطفية من جيل إلى جيل وأن هذا يناقضي النظرية الممترف بها والمقبولة في التوالد الجنسي . وبع ذلك فإن فرويد بعد أن كتب التوتم والتحريج Totem et Tabou فصل آراءه المتعلقة بالصلات بين الطفل وأبويه حتى إن فكرته عن الأنا الأعلى تلتى أضواء جديدة على الموضوع ويتكون الأنا الأعلى ابتداء من توحدات بالأبوين ، وإدماج الأب الشديد القاسي كما يبدو للطفل في الشعور . ولكن الموقف القامي للأب حيال طفله يمليه علم . الطفل الأنا الأعلى لديه . وهكذا فإن الأنا الأعلى يتصرف كما لو كان حاملاً للتقاليد ، حتى إنه يعد مجموعة من التوحدات يظهر الشعور بالإثم النابع من قتل الأب البدائي ، بعد أجيال من اقتراف الجريمة . وفي الفقه المسيحي مثلا يلعب الشعور بالإثم المنساب من نشاط ثورى ضد الأب( الرب) دوراً أساسيًّا ويكفر عن هذه الحطيثة بواسطة تضحية الابن الذي يصبح ، بعد التكفير عن جريمته ، شبيهاً بالرب ، مثل أبيه . فني سر القربان المقدس a سر الأفخارستيا ، (الاحتفال التوتمي للمسيحيين) ، يؤكل جسد الابن ، ويتوحد اللمين يشتركون في هذا الاحتفال بالأب بوساطة الابن ، ويشاركونهما قداسهما . ويفترض مذهب الحطيئة الأولى حتماً أن الإحساس بالذنب المتولد عن أول ثورة ضد الرب، يتنقل من جيل الي جيل.

وهكذا نرى أن فكرة فرويد عن الأنا الأعلى تعطى لهذا الاحتفال تفسيراً نفسيًّا . ورأينا أن نظرية فرويد تبرز الدور الأساسى الذى تلعبه العوامل الجنسية فى التنظيم الاجمّاعى . ويبدو— وإن كان أقل وضوحاً وصراحة ـــ أن إنجلز يعترف بأساس جنسى المجتمع ، وهو ما يبدو في تعليقاته التي تمتدح مورجان و إن الفضل الأكبر لمورجان هو أنه اكتشف وأعاد بعث هلما الأساس الجنسي السابق التاريخ المكتوب في خطوطه العريضة ، وأنه عثر ، في الاجهاعات الجنسية لدى الأمريكيين الشياليين ، على مفتاح يقدم لنا حلاً لأهم ألفاز التاريخ اليوناني والروماني والألفاني القديم والتي ظلت دون حل حتى يوبنا هذا هذا » (1)

ولكن مع قبول فكرة الأساس الجنسي للتاريخ كان إنجلز يصر على أن التعلور المؤسس على الصلات الجنسية ، كان يسمح بالفو التقدى لإنتاجية العمل ، حيى إن العلاقات الاقتصادية تنجه لتصبح الحاصية المسيطرة على التنظم الاجتماعي وهذا لا ينهي الدور الأساسي للعوامل الحنسية ، لأن الطاقة الغريزية المتصلة بهذه العوامل قادرة على التنقل ، أو على التسامى ، أو على أشكال أخرى غير مباشرة من التعبير ، كما رأينا في الفصل الرابع . فتحول الاهبام الجنسي إلى ميكانيكية عمل قد أوضحها فرويد فيها يتعلق باللغة ، فاللغة في بدايتها كانت وسيلة لمناداة الرفيق الجنسي وتحولت إلى إثارة منغمة منتظمة للعمل . وقد كتب فرويد ناقلاً عن أحد علماء اللغة الذي وصل، عن طريق مستقل عن علم النفس، إلى نفس النتائج: و إن الأصوات الأولى المنطوق بها استخدمت لنقل أفكار وللنداء على الرفيق الحنسي ، وقد صاحب النمو التالى لجذور اللغة تنظم العمل في الإنسانية البدائية . كانت الأعمال تنجز بطريقة مشركة مصحوبة بكلمات وعبارات منظومة تتكرر . وهكذا انتقل الاهمام الجنسي لينصب على العمل . كما أو كان الإنسان البدائي لم يلجأ إلى العمل إلا عن طريق جعله موازيًا وبديلاً للنشاط الجنسي . للما فإن الكلمة التي تنساب في أثناء العمل الحماعي كان لها معنيان ، الأول يعبر عن العمل الحنسي والثاني العمل الإنجابي الشبيه بهذا العمل الجنسي . وشيئاً فشيئاً أخلت الكلمة تنفصل عن معناها الحنسي لتلتصق لهائيًّا بالعمل ع(٢) وهكذا تلتمي أفكار إنجاز بأفكار فرويد الذي يرى أن ميكانيكية العمل تقدم مخرجاً للطاقة الجنسية المتنقلة . ولعل دراسة دور الكبت توضع ما سبق .

Engels : Der Uroprung der Familie Préface. ( 1)

Introduction à la psychanalyse, p 152

للكبت في تاريخ المجتمع أهمية أساسية . كان كل من إنجلز وفرويد يعتقد أنه عنصر ضرورى لتوفير الثبات للمجتمع . وقد كتب فرويد : و نعتقد أن الثقافة خلقت تحت دفع ضرورات حيوية على حساب إشباع الغرائز ، . ولكن كبت غريزة بخلق الحاجة إلى شكل واع من أشكال النشاط يسمح لها بالتعبير عن نفسها دون إشاعة الاضطراب في التنظيم الاجتماعي . كلما ازداد خضوع مجتمع للجنس قل وضوح الحاجة إلى نقل التعبير عن الغرائز الجنسية لأن هذه الغرائز وإشباعها لا تصدم قواعد الضمير . وقد قابل إنجلز بين نمو ميكانيكية العمل وبهاية الحضوع للجنس ، وطبيعي أنه عندما كان يتكلم عن الجنس كان يقصد التعبيرات الشعورية ، الظاهرة للحياة الجنسية ، لا الغرائز الشعورية الكامنة "sous -- jacents" وقد رأينا أن هذه التعبيرات، مثل مذاهب الزواج، هي مظاهرات واعية ، دخلت في إطار اجمَّاعي آذنة للرغبات المكبوتة بالحصول على إشباع . وتتنازل ف رأى إنجاز و العلاقات الحنسية الحرة حرية مطلقة ، التي كانت تميز الأشكال الاجماعية القديمة للإنسانية ، عن مكانها عن طريق خلق الزواج والمجتمع لمظاهرات وأشكال أكثر تحديداً . ويمر بذلك المجتمع من التنظيم الاجتماعي الذي كانت تسيطر فيه الغريزة الحنسية إلى تنظيم مختلف تسيطر فيه ميكانيكية العمل. . وبعبارة أخرى يصبح الإنسان عاملاً عندما يكون قد كبت أطماعه الحنسية ، لأن العمل يفترض تعاوناً اجمّاعيًّا لا يمكن وجوده دون وجود هذا الكبت. وقد رأينا أن الكبت أساساً لتوقير الثبات للعلاقات الإنسانية في المجتمع ، ولكن النقطة المهمة ، عند أخد هذا العنصر في الاعتبار ( عنصر الكبت ) ، هو أنه تدخل تحت ضغط الأحداث الحارجية . ويرى فرويد ، وهو يحلق متأملاً في أصل الكبت ، أن الفترة الجليدية Période giaciaire من المكن أن تكون قد أثارته بإجبار الكاثنات الحية على العيش في أراض أصغر عن طريق جعل زجر المخالفات ضروريًّا في قلب العشيرة ، بهدف شحد قتال عنيف بين العشائر المتنافسة لامتلاك الأرض . وهكذا أنجهت الحلافات الداخلية في جماعة واحدة إلى خلافات مع جماعات أخرى لضرورات اقتصادية بحثة .

ويعبر فرويد بطريقة أكتر وضوحاً عن فكرة أن الكبت هو رد فعل ضد صعوبات اجماعية واقتصادية عندما يقول : وإن الأساس الذي يرتكز عليه المجتمع الإنسانى هو فى النهاية من طبيعة اقتصادية : ذلك أن المجتمع أمام عجزه عن تقديم وسائل العيش لأعضائه دون عمل، يجد نفسه ملزماً بالحد من عدد أعضائه وتحويل طاقهم من النشاط الجنسى إلى العمل . ونحن هنا أمام الحاجة الحيوية الأبدية ، التى ولدت مع الإنسان وما زالت مستمرة حتى أيامنا هذه ه(١).

نستطيع أن نقول إن نظريات فرويد وماركس عن السلف البدائي للإنسان تأملية إلى درجة يصعب معها الاعتراف لها بقيمة علمية. وفي الواقم تتعرض هذه النظريات لانتقادات قاسية من جانب على من الأنثرو ولوجيين. وهي تقرب في هذا من نظريات هوبز وروسو ولوك عن أصل الإنسانية : تأملات تثير الاهمام بسبب قيمها التفسيرية . وبرغم ذلك فإنني أعتقد أن قيمها تتضيح أكثر إذا نظرنا إليها باعتبارها عاولات لإكمال النقص في معرفتنا بنوع إنساني سابق ، لا باعتبارها مكملة لنقص معرفتنا للإنسان . إذا كان لنظرية التعول عالم الإنسان . معنى فهو في ضرورة الاعتراف بأن الإنسان له سلف هو ما قبل الإنسان .

إن إحدى الصفات التى يتمتع بها الإنسان دون غيره هى قدرته على التنبؤسلة ، واستطاعته التنازل عن إشباع غريزى مباشر الفائدة مستقبلة وإن كان هذا أمراً محمياً حتى على إنسان اليوم فلاشك أنه كان شديد الصعوبة على أسلاف ما قبل الإنسانية الذين كانوا خاضعين لغرائر ملحة تطلب إشباعاً مباشراً وغير مزودين بحيكانيكية نحكم فعالة . كل ما نستطيع أن نحمنه هو العملية التى استطاع بها الإنسان تشييد نظم اجهاعية واقعية تسمح له بتحديد حياته الجنسية والتحكم فيها ، الإنسان . ولعل ما بعمانا نقتيم بنظريات فرويد وماركس هو أنها تعكس على المستوى التاريخي ما نلاحظه لدى الطفل الذي يكبر ويتحول إلى كائن اجهاعى ، يتدرب على السيطرة على غرائزه وعلى تحديد احتياجاته ليندمج في الخيط الاجهاعى ، يتدرب على السيطرة على غرائزه وعلى تحديد احتياجاته ليندمج في الخيط الاجهاعى ، ويتعمل التنازل عن بعض طموحه الشخصى الذي يهدد الأهداف الاجهاعية . ولما الفضل الأكبر التصوير الفرويدى والماركمي هو أنه يحطينا لحة المحاولات ولما الفضل الأكبر التصوير الفرويدى والماركمي هو أنه يحطينا لحة المحاولات والصعوبات الطفولتنا الأولى : طفولة الإنسان الفرد وطفولة الإنسانية .

## ٣ ــ الدين والأخلاق

الفكرة الأساسية التي يقوم عليها هذا الكتاب هو أن الماركسية والتحليل النفسي يكونان محاولتين متكاملتين لدوامة الطبيعة الإنسانية ، وبيها يرتكز التحليل النفسي على السناصر الشخصية والحاجات والقوى التي تنفع الإنسان إلى النشاط ، تهم الماركسية بالمركز الاجتماعي الحارجي المدى يعبر هذا النشاط من خلاله عن نفسه . وهذا الفصل يدرس هذا التكامل من وجهة نظر الدين والأسلاق ، ولمل التكامل بين المحسل يدرس هذا النفسي لا يظهر في أي عبال من المجالات الأخرى بقدر ما يظهر في مرضوعنا هذا .

وأود بادئ ذى بدء أن أحدد نقطة . إن أى عاولة لوصف وتصوير العوامل النفسية والاجتماعية التي تحيط بالفكر الديني لا يمكن أن تعيننا على معرفة ما إذا كانت التأكيدات الدينية المتعلقة بالله ، وبالحلق، وبالحياة الآخرة ... إلخ .... عصبحة أم عاطئة . وبعدارات أخرى ، إن شرح أسانيد عقيدة معينة وتفسيرها لا يفيدنا فى بيان صحة أسامها وسلامته . لا اعتراض لى على هلا كله . وسنكنى هنا بمعالجة الرجه الاجتماعي والنفسي للدين . ربما وجدت حقائق دينية معينة ومناهج خاصة لإيضاحها لكن هلا يخرج عن نطاق بحثنا . فوضوع بحثنا هو دراسة الأسباب التي من أجلها يعتنق بعض الأشخاص ديانات معينة والصلة بين هله المعتدات والخيط العام للحياة الاجتماعية .

عند ما يعيش عدد كبير من الأشخاص ويعملون مما خاصة في ظروف تكون فيها المفارقات في الامتيازات والطبقات مصدر طاقة للتوتر ، يعسبح من الفسر ورى العثور على وسائل لتحديد علاقاتهم . وهذه الوسائل يمكن أن تقوم بدور التحديد هذا ؛ إما بواصطة القوة أي عن طريق الممارسة الحكومية للسلطة ، وإما بالتربية واتباع وسائل إفناع لقيادة هؤلاء الأشخاص إلى قبول بعض قواعد السلوك باعتبارها طبيعية ولا يمكن مناقشها . ويعتبر الدين إلى حد كبير وسيلة لتحقيق هذه الوحدة في السلوك الاجماعي .

وهر يصل إلى هذه النتيجة عن طريق إقامة بعض قراعد السلوك ، وبعض الأفكار هما ينجب أن يكون وما ليجب أن يكون ، ويتأكد من مراعاتها عن طريق تعزيم جزاء ينزل من عل ، من مستوى فوق إنسانى . وبعبارة أخرى تحصل الأديان على آثارها الاجهاعية الهامة بقيلاً و يجب أن تتصرفوا على نحو معين لأن هذه هي إرادة الله . فإن أطمة فستكافأون فيا بعد وإلافإن عقاباً شديداً يتنظركم ، وبيدوأن هذا هو الدور الاجهاعي الأسامي للدين : فرض الرضا بقواعد سلوك باسم عقاب .

وتتوقف الآثار الاجماعية للدين على أهمية بعض الحصائص النفسية لذى الإنسان . ويأتى في مقدمة هذه الحصائص الاستعداد للبساؤل عن معنى البحود الإنساني وعن طبيعة الحياة وهدفها . وهذه الساؤلات لا يُرضع بطريقة محدة وفادراً ما تعدى الفلق الغامض فيا يتعلق بوضع الإنسان ، ولكن هذه المكنة ، مكنة التفكير والشعور بهذه المشاكل تبدو مقصورة على الجنس البشرى، ويعطيها الدين فوعا من الإسارة وتقدم العلوم والفلسفة إجابات أخرى .

لا يكنى أن نقول إن الدين يعظى إجابات للأسئلة المعلقة بالمصير الإنساني إذ أن القعلة الهامة هي معرفة السبب الذي من أجله يحتاج كثير من الناس إلى إجابات خاصة يقدمها لهم الدين تحت شكل إله وحلق ومهاء وجحيم ? وفهم السبب الذي من أجله تسمح هذه الإجابات الدين بأن يلعب دوره في التحكم في العلاقات الإنسانية ، بمساهمته في التقليل من التوترات الإجهاعية ؟ تنبرنا التظرية القرويذية على وجه الحصوص فيا يتعلق بالسؤال الأولى وترشدنا الماركسية بالنسة. السؤال الأافى .

كان ماركس بعد الدين في الأصل انعكاساً في عقل الإنسان لعلو القرى. الطبيعية . كان الإنسان المبدأتي الذي عليه أن يواجه مخاطر الطبيعة يفترض وجود قني فوق طبيعته مسئولة عن تقلبات الحياة . وكان يسمى إلى استرضاء هذه القوى. بمساعدة القراين والصلوات ، يتصور أن هذه القوى كاثنات قادرة على التأثير في حياته تأثيراً طبياً أو تأثيراً حيثاً .

وقد تعدلت الفكرة عن الدين مع تطور المعرقة وتعاظم الانتصارات العلمية التي حققها الإنسان وإلى أدت إلى انصار اللحر الذي كانت ترجى به العلميمة . فالمتهديد الأسامي لأمن الإنسان أصبح إذا نابعاً من القوى الاجهاعية ، وحل محل المعهد الأسمادي كان يستضوه الإنسان في مواجهة القوى الطبيعية عجز في مواجهة القوى الطبيعية عجز في مواجهة القوى الاقتصادية والاجهاعية التي لا تخضع بدورها لزقابته وتحكمه . ويعبر إنجاز عن هذه الفكرة بالعلريقة الآتية و كل دين ما هو إلا انعكاس خيالي في عقل الإنسان القوى الحاربية التي تسيطر على وجوده اليوى ، انعكاس تأخذ فيه القوى الأرضية شكل قوى فوق أرضية ... ولكن سرعان ما تدخل قوى اجهاعية إلى جانب المفرورة التي تبدو بها سيطرة قوى العلبيمة نفسها . ومن هنا تجد الشخصيات بنفس المفرورة التي تبدو بها سيطرة قوى العلبيمة الفامضة ، تجد سنداً اجهاعياً الحسيح ممثلة لقوى تاريخية ... رأينا في مناسبات عديدة كيف أن الإنسان فيسه ، ولوسائل إنتاج ناتيجة يدورها عن الإنسان فيسه ، ولوسائل إنتاج ناتيجة يدورها عن الإنسان فالموسائل إنتاج ناتيجة يدورها عن الإنسان فيسه ، ولوشية . فيه النياط الانعكاس الدين نفسه ، ولوش غرية . فالأساس المؤتمي النشاط الانعكاس الدين نفسه ،

فالنظرية الماركسية ترى إذن أصل الدين في الخاصية المسيطرة للحقيقة الخارجية، حقيقة كانت تعكس في البداية القرى العبيعية ثم بالتدريج القرى الاجراحية التي يشعر الإنسان وهو أمامها بأنه ضعيف أعزل عاجز . ولكننا نستشعر الحاجة إلى تضير مكمل لغموض وتركيز هذا الفكر الدي عاولة استجداء مساعدة الآفة أو الإله عن طريق الصلوات والطقوس ؟ يبدو أن التفكير الماركسي يتطرف عند التشديد على الطابع الاتعكاسي للدين وتجاهل النشاط النفسي اللي يبدو ممقصوراً على الإنسان إذا تم يكن لدي الإنسان مبدأ إسجابي ، وإذا تم تكن حياته المنسية سوى انعكاس سلبي للعالم ، فا أمكننا تصور قدرته على إكمال ضعفه أمام قوى الطبيعة والقرى الاجماعية بواسطة خاص الدين . لذا يبدو لنا أن دراسة الموامل القرية القرة المقالية المقرى المدائية التي تعدد الطابع الديني ضرورية حتى نسطيع إنمام هذا الوصف للقري

الخارجية الى تسبق الإنسان إلى طلب ساعدتها . وهوما تمال نظرية فرويدالقيام به . يميز فرويد ثلاثة عوامل مشتركة بين الأديان . أولا: يحتوى الدين على تصوير لأصل العالم وهو تصوير مشتق من وصف مولده . ثانيا : اتجاهه إلى مواساة . الإنسان عن متاحب هذه الحياة بمنحه تأمينًا يتمثل في حياة أفضل في المستقبل .. ثالثًا : يقدم قواعد للحياة يستحق من يراحيها المكافأة في الحياة الآخرة . ويسأل فرويد كيف يعمل الدين للتوفيق بين هذه الحصائص الثلاث ؟

يصف فرويد الصلة بين تظريتي خلق العالم وتصوير الإنسان لمولده على. النحو التالى :

ه يروى المفكرون أن العالم قد خلق بواسطة كاثن بشبه الإنسان ، ولكن يفوقه ف كل شيء في القوة وفي الحكبة وفي العاطفة ... كاثن أعلى من البشر أسبغت عليه كل الصفات المثالية ... ومن الطريف أن نذكر أنه ، عندما يتعين الاعتقاد. بوجود عدة آلمة ، يظل خلق العالم منسوباً إلى إله واحد وأن هذا الإله الحالق غالباً ما يكون رجلا برخم الإشارة إلى مقلسات نسائية وكثير من الأديان تجعل بلم خلق العالم انتصار الإله على قوة نسائية ينزل بها إلى مستوى الوحش . ويسهل بقية تحقيقنا أن الإله الخالق يسمى دون مواراة الأب ، ويستنتج التحليل النفسي. من ذلك أن الأمر في الواقع يتعلق بأب قوى قادر يهيمن كما كان يبدو فها مضى. لطفل صغير ، ويتخيل المؤمن خلق العالم على الصورة التي ثم بها مولده هو ذاته ۽ . تستطيع أن نوفق بين الآراء الماركسية والآراء الفرويدية في الدين على النحو الآني : العجز الذي يقود إلى الدين في الفكر الماركسي يخلق الحاجة إلى الحماية والتوجيه لمواجهة صدوبات العالم الحارجي . هذا العجز إن هو إلا تكرار لتبعية الطفل لوالده في رأى النظرية الفرويدية ، هذا الوالد الذي كان يحمل تبعة الترجيه والحماية اللذين كان الطفل في حاجة إليهما . ومن الطبيعي ألا يرى. البالغ أباه بنفس الصورة التي كان يراه بها أيام كان طفلًا ، فقد اكتشف أن والده تحت نير حدود ونقائص الجنس البشرى . وللبحث عن الحماية لا يستطيم أن يتجه إلى والد يعيش على هذا الكوكب الأرضى . وبرغم ذلك فهو لايزال مجتفظ في الأدعية بصورة الأب التي رسمها أيام طنولته ، الأب القادر الذي كان يعاقب ويكافء من يطيع أوامره ومبادته وأنه ليتجه إلى هذه الصورة ليحمى نفسه ويبحث لنفسه عن الراحة عندما يهدده الراقع . ويتم إسقاط هذه العمورة للأب القري المقتدر على العالم الحارجي ، وتستخدم باعتبارها حامياً . وهكذا يستعيد المجون بطريقة مبالغ فيها ، المواقف التي كان يتخلما نحو أبيه عندما كان طفلاً . الإله السمائ متعدد لا تنفى عليه خافية، وهو قاس ومعذلك فهو يشيع عبة ورحمة . إذن فنحن المواعى في الدين الدور الهام المدى يقوم به الأنا الأعلى الذي يتوحد بالقري الحارجية التي تحكم حياة الإنسان . فالانعكاس الحيالي في منح الإنسان لهذه القوى ، كما يقول إنجاز يقود الإنسان الحياية .

ترجع أهمية هذه المحاولة الفرويدية – الماركسية إلى قدرتها التنسيرية وتعلمنا الملاحظة أن الناس يبحثين خاصة عند الفيق أو القلق ، عن الراحة والحداية لدى كائن مقتدر . ونستطيع أن نفهم لماذا تلجأ الأديان عادة إلى عبارات تذكرنا يبعلاقة الطفل بأيه ، لماذا يقدم الإله أحياتًا كما لو كان أباً ودوداً رحيمًا وأحيانًا كشخص مطلق مهيمن ، يمكن أن يتملكه الفضب (المنتقي – الجار بالمعلل القهار) . لأن هذه هي الصفات التي ينسبها الطفل الضغير لأبيه ، الأب الذي يكون أحياتًا عبًا مطلقة مطلقة على مشروطة وافعل هذا لأن أمرتك به » .

كان فرويد يشبه الدين بعصاب يجتازه الإنسان خلال تطوره: « فهو يكون عاولة لسيطرة على العالم الراقعي الذي نعيش فيه بمساحة عالم مثالى ولكنها محاولة لا يمكن أن يقدر لها النجاح. هذا الفهم يحمل علامة الحقبة التي خرجت منها طفولة الإنسانية المصبوفة بالجهل .. ولمكافآت التي يعد بها هذا العالم غير جديرة بالمثنة ، فالتجربة تعلمنا أن العالم ليس جنة للأطفال ».

وبنفس الروح البلاغية يعبر ماركس عن أفكاره فيا يتعلق بالآمال التي تخلفها الأديان في القلوب: والدين هو التنهد، تنهد كائن محمل بالمشاغل، إنه قلب عالم بلا قلب ، إنه روح ظروف حياة معينة ولكن هذه الحياة مجردة من هذه القلروف ؛ إنه أفيون الشعب . إن إلغاء الدين الذي هو سعادة ولهمية الشمب ، لحو الشرط الأول لتحقيق سعادته » .

لقد بدأت قائلاً إن بحث الحصائص النفسية والاجهاعية للدين لا تفترض

سبق الحكم على وجود حقائق دينية . وكثير من الأشخاص اللبين يميلون إلى قبل جزء كبير من التحليل الفروياني -- الماركستى السابق المتطل إلى المقاف بعض الاجهاعي لللبين بمكن مع ذلك أن يحتجوا على هذا التحليل إلى تتجاهل بعض الضفات الأساسية . ربما يشيع الدين الحاحات روحانية نعينة تنبع من طبيعتنا ويقرفنا إلى الحقيقة المتفلقة بالله وملاقاتنا به . ربما كان ضخوحاً النا تميل إلى أن نسقط على الله مواقف وهاوف وعواطف كنا نستشمرها نحو أب طفولتنا ولكن حذا ليس كل شيء . إن عقيدتنا في وجود الله ، مضدر وسند وجودنا الا تعتمنا فقط على هذه الإسقاطات . إن التجربة الدينية تحتى كشفاً لحقائق لا يستطيع أي تحليل قرويدي -- ماركسي أن يحوها .

واستطيع أن أرد على خولاء الأشخاص بأن قيلم ربما كان صحيحاً ، ولكن حتى يومنا هذا لا يوحداًى تكنيك مستطيق أن قدم حتى يومنا هذا لا يوحداًى تكنيك مستطيق أن قدم حيازة هذه الحقيقة الماصة التى نسميها الحقيقة الدينية ، تهم العالم النسانى أكثر مما تهم العالم النسانى أكثر مما تهم العالم النسانى المراحات ، فهو يهم من الناحية النسبية بكون المؤفن لا يميل إلا إلى اخترام معتقدات ، فهو يهم من الناحية النسبية بكون المؤفن لا يميل إلا إلى اخترام معتقدات ، ويعد معتقدات من لا يتمى إلى دينه ولهمية نتاج الجهل والحلط وإنى أزى العالم النفسانى قادراً على فحص هذه المسألة المتعلقة بالمتقدات المتصارعة . فالحلل النفسي الفرويدي مثلاً سيميل إلى تفسير هذه الطبيعة المتشددة فيا يتعلق بالميقين الدينى بنسبتها إلى الآثار المشركة لمتطلبات الآثا الأحلى ، ياليقين الدينى بنسبتها إلى الآثار المشركة لمتطلبات الآثا الأحق والآثا الأعلى عن منح السلطة لهيئة لا يمكن سجبها منها أبداً .

إذن آراء فرويد وماركس فى الدين شديدة التقارب ، تنسبه إلى الطفولة : طفولة الإنسان الفرد وطفولة الجنس البشرى .

وسنقوم بدراسة نظريات كل من فرويد وماركس بالنسبة للأخلاق وقواعدها . لا تبتعد وجهة نظر فرويد هنا عن وجهة نظره فيها يتعلق باللمين لأن فرويد يعلق ويربط الأوامر الأخلاقية وللتزامات الضمير والأفكار عن الحير والشر بالأنا الأعلى و فنواهى وأوامر الآباء تبقى مع البالغ وتكون ضميره الأخلاق ، يريد فرويد بهذا أن يقول إن اكتساب الأفكار الأخلاقية عند الفرد يتم بواسطة نظام المكافآت والمقوبات . فالطفل يتعلم ربط الحير بالشيء الذي يرتضيه الوائدان، والشر بالمشيء المذى يستنكرانه ويتجسم في حقل الفرد توجيه الآباء وسلطتهم إلى تعمل في البداية كوالرات خارجية على طريقة تصرف الطفل تتجسم لتصبح نوجاً من الرقابة الأخلاقية . والآباء أنفسهم يعكسون في نواهيهم ضغوط المجتمع فيتقلون إلى أبنائهم طرق تفكير مجتمعهم مع ربطها بقيمة عاطفية إلى حد أن ما لا يسمح به المجتمع يرتبط لدى الطفل بالحوف من فقدان حب الأبوين .

وعلى العكس ترى الماركسية المشكلة الأعلاقية ابتداء من هذا التفكير الاجماعي حيث إن المجتمع مقسم إلى طبقات ، فهي ترتكز على الدور الذى تلعبه المصلحة الطبقية في تحديد أشكال التفكير . هذا التركيز من جانب الماركسية على الدور الذى تلعبه المصالح الطبقية في تطور الفكر الأخلاق كان نقطة البداية ، في تصور خاطئ للأعلاق الماركسية . إذ أن هناك فكرة ذائعة مؤداها أن الماركسية ترفض كل الأفكار الأخلاقية ، التي كانت تعكس مصلحة هذه الطبقة أو تلك ، وأن الذى يخدم مصلحة طبقة يعد وطبيا ، بالنسبة لأعضائها ، والذى يعرق مصالحها يعد وسيناً ، وهذا هو المعني الرحيد والعليب ، ووالسيء » .

هذا الرأى يظهر كثيراً فى كتابات إنجاز وساركس لأن كتاباتهما عن الأخلاق تميل إلى التلميح أكثر من ميلها إلى التصريح ولكن لتقدير عمل أى مفكر من المحروري أن ندرك ما وراء أفكاره ، وأن ندرس، على ضوم المحى العام، الفقرات التى تبدو غامضة مبهمة . ومن الممكن دائماً أن نأخد كأساس لتضمير وشرح أى مؤلف فى مجموعه فقرة من هنا وأخرى من هناك ، وأن نبدأ نقاشاً مشوهاً . ومن ناحية أخرى إذا بلذا مجهوداً لربط الأخلاق الماركسية بالنظرية الماركسية العامة عن طبيعة المجتمع واضحاً أنها لا تؤدى بالضرورة إلى السبية الاجتماعية التي أوضحناها فيا تقدم .

من الضرورى أن ندرك تمييزاً بين المهى العام والمعى الحاص للأخلاق بالنسبة للأخلاق الماركسة . ترتبط الأعلاق الماركسية ، بنظرة شاملة لطبيعة المجتمع ، وهي نظرة نشبه كثيراً الأعلاق عند أرسطو يرى في دولة المدينة الا Polts (١) طريقة للحياة الطبيعية للإنسان الأنها تقدم له الوسائل التي كان يستطيع بواسطتها إنماء الحصائص التي تميز الجنس البشرى . كان أرسطو يقول : إن الإنسان اللي اليميش خارج المجتمع إما حيوان أو إله . ولعل ماركس لم يكن ليمارض هلم الجملة عاصة في شقها الأول .

إذا وضعنا سؤال أربهلوطاليس – ما هى وظيفة المجتمع ؟ وما هدفه ؟ نجد أن الإجابة التي يعطيها ماركس مفتاح لنظريته فى الأخلاق العامة . عند ماركس يعد المجتمع بالنسبة للإنسان نظاماً يجب أن يتيح له الحصول على وسائل المعيشة ، والوصول إلى التحرر من سيطرة القرى الطبيعة فعند ماركس كما هو الخال عند أرسطو المجتمع هو الوسيلة التي بواسطتها يستطيع الإنسانية ، هنا تكمن عظمة المجتمع ودوره الإيجابي . المعنى الأرسطوطاليسي من الإنسانية ، هنا تكمن عظمة المجتمع ودوره الإيجابي . المعنى الأرسطوطاليسي أن نقارناالأشياء ، نستطيع أن نشيد تدريحاً بين الهتممات على أساس فالدتها ، نستطيع أن نقول إن تعليم على حبر أن نقول إن مجتمع الأنه يم كتب بطريقة أكثر دعة ويحترى على حبر بالمؤلفة أن المنافقة على أعمر المنافقة المرفوبة في قلم . أكثر إلخ . . . . ونستطيع أن نسطر لوحة القلم المثالي بتعداد الصفات المرفوبة في قلم . أكثر المنافقة عندما يتكلم ماركس عن اليوم ويتبدى لنا هذا المجتمع المثالي في النظرية الماركسية عندما يتكلم ماركس عن اليوم والذي يعلى فيه التعاون عمل الصراع بين العلمةات ، اليوم الذي يعنى فيه و الأكن النظيق المفيقة المؤلمة و من إلى كل حسب المفيقة قد من إلى كل حسب حاجاته » .

تبدو فكرة ماركس أن ما هو طيب بالنسبة للإنسان يتحقق في مجتمع دون طبقات مؤسس على مستوى مرتفع للإنتاج ، تبدو هذه الفكرة مختلفة عن المثل

<sup>(</sup>١) يستخدم أرسطن لفظ عقدة أى مدينة بمنى المجتم من الناس الذين تنظيم أرضاع تدير غارض وطعائم بعضهم بيمض فى كل الهالات ووز هذا الفظ اشتقت كامة coission أى سياسة أمور الناس ( افظر أرسطن : الأعلاق إلى ليقرماعيوس . ترجمه أحمد لطن الديد) .

الأعلى السياسي لأوسطو والذي وصفه الاستاذ و تيلور ، كما لو كان المثل الأعلى الأوسقراطية قليلة العدد ولكنها بمتلك أرقات فراغ وسستين عالمياً من الثقافة ، هَده الأرستقراطية الى لا تمثيك ثروة هائلة ولا تتميز بطريقة ملحوظة بغي مادى ، وقلد تحررت تماماً من روح المقامرة والهاطرة تعمل بهدوء على ارتقاء العلوم والفنون على احين تقوم طبقة من العمال على توفير حاجاتها المادية . هذه العلقية العاملة لا تتمتع بالحقوق المدنية ، عامل بلطف ولكنها تظل دون مستقبل . ومع أن ماركس كان يكن لأرسطو إعجاباً شديداً ويعده أعظم فلاسفة الحضارة القديمة ، إلا أنه كان أول من يعترف بأن فكرة أوسطوطاليس يجب أن ينظر إليها من زاوية الظروف التاريخية الى كان يعيش فيها وليس على ضوء ظروف الوحود المعاصرة .

كان ماركس لا يشغل باله بتعريف ما هو خير للإنسان بقدر الشغاله بكيفية تمقيق السعادة في المجتمع . وبعبارة أخرى الذي كان يهمه هو تحقيق الظروف المواقية التي تمكن الإنسان من الوصول إلى السعادة ، أكثر من اهيامه بالمعمائص المجردة لحالة السعادة . كان يرى في البداية السعادة في اختفاء عبودية الإنسان المقوى الطبيعية والاقتصادية ، وفي إيقاف الظروف التي يعد الإنسان فيها نفسه : على حد تعبير و كانت ، وسيلة لا خاية . ولكنه ذهب إلى أبعد تما ذهب إليه وكانت » على أوضع أن واقعة معاملة الآدميين كوسائل أكثر منهم خاية كانت نتيجة ظروف اقتصادية تعميب البعض على استخدام آخرين كما لو كانوا وسيلة لزيادة ثرواتهم وتأكيد سلطاتهم وامتيازاتهم . كان ماركس يذكر الضرورة الملحة للممل على القضاء على كل الفروف الي كان المركزة ، مندهوراً ، ذليلاً ، ومعتمراً .

ق ضرء هذه الفكرة العامة التي ترى سعادة الإنسان في تعطيم الظروف الطبيعية والاقتصادية التي تكبل حياته ، يجب أن تكبن دراستنا الفكرة الحاصة النظرية الماركسية التي تربط الأخلاق يطبيعة طبقات المجتمع وقد عبر إنجاز عن هذه الفكرة بالطريقة الآتية و إننا نرفض كل عاولة لفرض أى مبدأ أخلاق علينا ، تكبن بمثابة قانين أبدى . يتجدد بطريقة أزلية غير قابلة للتعديل ... وإننا لتتفقى على أن كل الأخلاقيات السابقة مشتقة في آخر المطاف من المستوى الاقتصادى على أن كل الأخلاقيات السابقة مشتقة في آخر المطاف من المستوى الاقتصادى اللقتصادى المقاف به عجمع في عصر معين . ولا كان المجتمع قد نما جي الآن تبعاً لتناقض

الطبقات ، فإن الأخلاق ليست إلا أخلاق طبقة و وعندما يصل إنجاز إلى هذه النقطة يلفت الانتباه إلى الرجه المقاتلت (الأيديولوجي) للأخلاق ، واقعة أن الأخلاق يمكن استخدامها لحماية المصالح الخاصة وتبريرها لطبقة ما . ويؤيد فكرة أنه طالما كان المجتمع مقسمًا إلى طبقة تحكم وطبقة محكمية فإن تطبيق قواعد الأخلاق يتجه إلى الاكتفاء بحماية طبقة أو إلى الإثقال على كاهل أجزاء معينة من المجتمع . في مجتمعنا المعاصر ، مثلا سواء تعلق الأمر بغي أو فقير ، تعبر سرقة الطعام شرًا ، ومع ذلك إذا أخلت الطروف الاقتصادية إلى يعيش فيها الرجل الذي في الاعتبار فإن القاعدة الأخلاقية ولا تسرق الا تنطبق عليه فيها الرجل الذي في الاعتبار فإن القاعدة الأخلاقية ولا تسرق الا تنطبق عليه الرجل بعد شكلية .

تفترض فكرة الأخلاق العالمية في تطبيقها ، ويصوغ الفلاسفة عامة قواعد أخلاقية عالمية . ولكن هذه القواعد تظل ، في تصور الماركسية ، صيغًا مجردة وخاوية مادامت الظروف المادية الضرورية لتطبيقها عالميًّا غير مواتية .

لذا تدعو الماركسية إلى وضع أخلاق يرى سعادة الإنسان في تحريره تدريجياً من المصادفات المادية والاجتماعية التي تحد من تموه . وينهض ماركس، باعتباره داعية الأخلاق، ضد استعلال الإنسان للإنسان . أما باعتباره مفكراً علمياً فإنه يماول تجاهل الاهتمامات الأخلاقية ، في تحليله المجتمع ، ولكن وجهة نظره الأحلاقية تنفل من حين إلى آخر ، وهو ما قاله شومية تعتملها 3 Schumpers ، إلى برودة النظرية الاقتصادية تحييلها في صفحات ماركس ثروة من الحمل التي تفيض بالمواطف فتكسبها حرارة ليست من طبيعتها ، ويحاديا من أن تقوينا هذه الحمل إلى هز أكنافنا عندما يطلب ماركس الحق في مطبيعة التحليل .

إن العجز عن تفهم المتطلبات الأخلاقية الماركسية هو المسئول عن هذه الشروح الحاطئة للموقف الماركسي . ونجد مثالاً على ذلك في انتقاد الأستاذ ك ر . بو پر (١) للماركسية ، عندما يصف الماركسية بأنها تتسم بنسبية أخلاقية : والمبدأ الأخلاق الذي تعتمد عليه الماركسية ، يمكن تلخيصه في الشعار: « تبنوا

أخلاق المستقبل، . » يتصور بو پر أن ماركس يقول لنفسه: «اننى أرى أن البورجوازية مصيرها الفناء وأن البروليتاريا وسمها أخلاق جديدة ستنتصر عليها، أرى أن هذا المطور لا يمكن تجنبه . ومن الجنون أن نقاوه ، تماماً كالجنون اللى يمكن أن تصاب به إذا ما ذهبنا إلى عكس قانون الجاذبية الأرضية . لذا فإن اختيارى الأسامى يكون في صالح البروليتاريا وأخلاقها . هذا القرار يرتكز على تنبؤ علم وقا وحق .

وبعبارة أخرى فإن ماركس اختاز الاشتراكية لا لشيء إلا لأنه كان يرى أنها جزء من مستقبل ممكن التحقيق. ومن المقبل أن يكون هلما المستقبل الممكن التحقيق قد بدا أقل طموحاً مما كان يتصوره ماركس ومع ذلك فإن ماركس كان يقول في رأى بوهر : « تبنيل الناموس الأخلاق اللدى يسرع بتحقيقه » إذن فالماركسية بحسب بو بر تتطلب مستقبلية أخلاقية ، فكرة : «كل ما هو آت حسن » .

نرد باختصار على پوپر بأن ماركس انساق إلى تحليل المجتمع الرأسالي في زمنه لأنه كان يفرض حدوداً خطيرة على ازدهار حياة الكثيرين من أعضائه. وكوفه فكر في أن يتناول هذا المجتمع بالدراسة العلمية قد أدى بهو پر إلى إساءة فهم مارکس بجمله یعتقد أن مارکس لم یکن سوی عقل علمی ولیس کالناً بشریّاً متأثراً بآلام الهجتمع الرأسيالي في زمنه . ويعطى بوپر بهذا الصدد دليلا على فكرة خاطئة لدور العلم في اكتشاف القوانين . إن التفكير العلمي لا يسعى إلى اكتشاف القوانين بهدف إنْذَار البشرية بأنه من الجنون أن تقاوم هذه القوانين. إن هدف البحث العلمي ليس تأكيد عجز الإنسان ، ولكن مساعدته في جهوده لإخضاع الطبيعة للأهداف التي يرنو إليها . إن قانون الجاذبية الأرضية والقاسي ، لا يعيد الإنسان على سطح الأرض، فهو يصنع الطائرات آخداً في الاعتبار هذا القانون، ويدرس الوقائع المحكومة بهذا القانون ، وعلاقاتها ببعضها ، ويجد بذلك نفسه قادراً على استخدام الرسائل التي يتمكن بها من عاصرتها وتجنيدها واستخدامها والتعاون معها . إن شفقة ماركس نحو الكادحين حثته على البحث عن علاج لآلام حياتهم عن طريق نظام اجماعي أكثر عدالة . وقد علمه تكوينه العلمي أن يبحث عن القوانين التي تسود تغيراً اجماعياً بهدف أن تكون إعادة بناء المجتمع على أسس أكثر إنسانية أقاس على المضى ابتداء من قاعدة معقولة . إننا نفهم الآن بأى طريقة تتكامل وجهات نظر ماركس وفرويد فى الأخلاق رأينا أن الفكر الفرويدى ينسب إلى ضغط الأنا الأعلى الأوامر الأخلاقية والإحساس بأن أعمالاً معينة يجب إنيانها وأنها شريفة . ولكن هذا ليس كل شيء كما يشير إلى هذا فرويد ، فالنمو النفعي يتطلب إحلال أخلاق الآنا على أشلاق الآنا الأعلى . وبجارة أخرى ، إن الشخص البالغ ، الذى تعنى الإلحاحات العاطفية للطفولة والذى أصبحت أحكامه مبنية على ملاحظة الموقع ، يتبنى أخلاقاً تتفق مع هذه الملاحظة ، يكف عن الخضوع المتعلبات الأنوية ويتكيف مع المجتمع ويبدأ فى التفكير بطريقة عالمية ، فى التفكير للآخرين كما يفكر لنفسه ، وفى أن يصبح واعباً اجماعياً ، هذا الوصف للتطور النفسي الذى يذهب من الأنانية التى تلازم واعباً اجماعياً ، هذا الوصف للتطور النفسي الذى يذهب من الأنانية التى تلازم بالخلاقة ، ولكن وهو ما اعترف به تلاميذ فرويد بسرعة ، نادواً ما تم هذه المعلية يطريقة كاملة ودون عقبات . فالحياة المعاصرة تميل إلى تشويه وإقلاق وإيقاف هذا النمو للصفات المقولة .

أما المساهمة الماركسية فتتحصل في التركيز على الجانب الاجهاعي للأعلاق ، على واقعة أن مجتمعًا ما أفضل أخلاقيًّا من مجتمع آخر بقدر ما يسمع للإنسان بإنماء كل خصاله .

فإذا ما نظرنا إلى النظريتين الفرويدية والماركسية معاً ، فإننا نراهما يقدمان لوحة كاملة لمؤلد الفكر الأخلاق ونموه صند الإنسان .

## ٧\_التطور الاجتماعي

الماركسية تحليل للعوامل التي تحدد تطور المجتمع ، ولكن ما يطلق عليه امم مجتمع ليس فقط جماعة مجردة أعلى من مجموعة أفراد . فهذا الاصطلاح بشمل كذلك مجموع العلاقات التي تنشأ بين هؤلاء الأفراد . وقد أصاب جينسبرج وجه الحق عندما عرفه عن طريق تشبيهه باللوحة التي تمثل الأنشطة والعلائق بين الآدميين . هذه العلائق الاجهاعية لها ملامح الطريقة التي يعيش بها الأفراد مِعاً ، وطبيعة التناقضات والصراعات التي تتدخل بينهم ، ونظم وقواعد السلوك التي يملونها للتجكم في تصرفهم . لذا فإن دراسة تطور المجتمع يؤدى بنا إلى دراسة التغيرات التي تطرأ على تصرفات الأفراد في طريقة تفكيرهم وفي طريقة عملهم . وللما أيضاً فإن الماركسية التي تدرس أوجه تغير السلوك الإنساني الناتج عن التغيرات فى ظروف وجودهم تستدعي بالضرورة نظرية نفسية ، نظرية موضوعها العلاقة بين المظاهر النفسية وظروف الحياة الخارجية . وسنعود إلى هذه النقطة فيها بعد . أما الآن فاهيَّامنا يقتصر على الإشارة إلى أن الماركسية تعود بالضرورة إلى وضبع بعض الفروض النفسية ، وذلك لأن هدفها هو بيان أشكال التفكير والنشاط الى تنتج عن التغيرات الحاصة في المجتمع. وبيع ذلك فيستفحص ، قبل دراسة هذه الفروض ، ما تنبئنا به الماركسية عن العوامل الخارجية التي تكيف السلوك الإنسائي .

تعرف النظرية الماركسية في التطور الاجتماعي ياسم الفكرة المادية للتاريخ أو المادية التاريخية ، وقبل وصف جوانب هله النظرية التي تهمنا سأتعرض لشرح بعض الاصطلاحات الهامة المستعملة في التعبير عن هله النظرية .

المملية التى ينتزع بواسطنها الإنسان وسائل وجوده من العالم الحارجي أى خذامه وسلابسه ومأواه يطلق عليها ماركس دون تعين عملية الإنتاج أو شكل الإنتاج أو مربح الإنتاج . وهى تشمل ، إجمالا ، مجموعتين من العوامل : عوامل ذات صلة بدور الإنسان في شكل الإنتاج ، وهى التى تسمى أحياناً عوامل شخصية ، وعوامل بتعلق بالظروف الخارجية أو العوامل الموضوعية . وتنطبق العوامل الشخصية على هذا النشاط ذي الطابع الإنساني الذي يسمع للإنسان بالتأثير على الطبيعة والذي يسمع للإنسان بالتأثير على الطبيعة والذي يسميه ماركس العمل . فهو يقول ه إن العمل هو أولا وقبل كل شهم عملية تنشأ بين الإنسان والطبيعة فيا يتعلق بقواعد تعديل بين الإنسان والطبيعة فيا يتعلق بقواعد تعديل المادة وطرق التحكم فيها . وهو يقف في مواجهة الطبيعة باعتباره إحدى قواها . وهو يحرف القرى الطبيعة باعتباره إحدى قواها . وهو يحرف القرى الطبيعة بلحصل على الجوهر في شكل يغيده في وجوده (1) .

ويوضح ماركس هذه الحاصية ذات الطابع الإنساني للعمل بقوله التالى : وإننا تتصور العمل بشكل بجمله مقصوراً على الإنسان وحده . فالمتكبوت يقوم بعمليات تشبه همليات الناسج ، والنحلة تحجل أكثر من بناً ، إنسان بالطريقة التي تهى بها خلاياها الشمعية . ولكن الذي يميز في المجموع أسواً بناً ، إنسان عن أحسن عملة ، هو أن البناء يشيد خطة الحلايا في رأسه قبل أن عيققها في الشمع ع .

وتشمل من ناحية أخرى العوامل الشخصية العلاقات بين الناس بعضهم وبعض.
فى أنشطة الإنتاج وطبيعة وتقسيم العمل ، والطريقة التي يم بها تقسيم ثمار الإنتاج والمعلاقات المتعلقة بالملكية ، وطبيعة المنظمات مثل النقابات والكارتل والحميات التعاونية ، وكل فيء يكون لوجوده تأثير مباشر على أنشطة الإنتاج : باختصار مجموع الروابط التي لما علاقة مباشرة بالأنشطة الإنتاجية في المجتمع .

ويقول ماركس إن الإنتاج يتطور في وسط هذه الروابط: « إن نشاطآ الإنسان. في الإنتاج لا يمارس فقط على الطبيعة وإنما أيضاً على الآخرين من بني جنسه . فالأفراد يتتجون بالتماون بطريقة معينة وبتبادل أنشطتهم . وحتى يتتجوا فإسم يحددون بعض الروابط بينهم ولا يتم الإنتاج إلا في هذا الوسط وهو بللك نتيجة تأثيرهم على الطبيعة » .

والعوامل الموضوعية التي لا تعتمد على الإنسان تشمل : (١) الأشياء التي تصنعها الطبيعة تحت تصرف الإنسان : الأرض ، والغابات ، والسمك ، والمناجم ، أر الحيوانات ، إلخ ، والمواد الأولية مثل الحشب والفجم والتقاوى ، (ب) آلات العمل . ويسمى ماركس هذه العوامل أحياناً وسائل الإنتاج ويسميها أحياناً أخرى القوى المنتجة .

والآن تتجه نيتى إلى عرض التطور التاريخى كما يراه ماركس . ولما كان هذا الرجه للماركسية غير مشروح شرحاً كاملا فى أى من كتابات ماركس وإنجلز وانهى أجد لزاماً على أن أفسر وأن أحلول استخلاص الفكر العميق لمذين الكاتبين وأن أحول المتاصر صريحة واضحة .

تعملق النظرية الماركسية في التاريخ بالتغيرات الهامة التي حدثت في التاريخ والتي ولمنت هياكل اجتماعية جديدة وهي تدرس في المقام الأول نتيجة التغيرات في طريقة أو شكل الإنتاج التي تسمع للناس بكسب عيشهم . فعل عكس الجيوانات لا يقف الناس سليين في مواجهة الوسط المخرافي ، فهم يتعاونون ليتوانون من هذا الوسط وسائل يقائهم ، وتعلمهم التجربة والاكتشاف مناهج بديدة ، أكثر فاعلية لتنظيم جهودهم ، وهم يتعلمون كيف يصنعون أدوات لي الأرض وكيف يتقون الفايات ويجوبها ، كيف ينتوف من الطبيعة أكدر عما تقدم . ويكف الوسط الإنساني عن أن يكون صاحب الدور الأوحد في التأثير على الصفات الطبيعية للأرض والمناخ .. إن أي وسط اقتصادي يتطور على أساس وسط أصبل طبيعي ، يشهد على اشتراك الجهود التعاونية للإنسان التي تسمع إلى الارتفاع فوق مستري الوجود الذي تسمع به الظروف الطبيعية .

فالمجمع من وجهة النظر الماركسية هرحصيلة قدرات التنظيم التي تسمح للإنسان بالتعاون مع غيره في الأعمال التي بهدف إلى تأكيد وسائل الوجود . أى شكل الإنتاج اللدى يسمع للإنسان بإحراز النصر في كفاحه من أجل الوجود . وهداء نقطة رئيسية في النظرية الماركسية . إذ يتطلب شكل الإنتاج أن يقيم الناس فيا بيهم روابط من طبيعة تجعل سير الإنتاج فعالا إلى أقصى درجة بمكنة . وفي المجتمعات البدائية تبدو حقيقة هذا الأمر واضحة . وبالضرورة يكون هيكل جماعة من الصيادين مختلفاً عن هيكل جماعة من الزراع . وتختلف العلاقات بين أعضاء كل جماعة ومهمة كل مهم وواجباته . وتعكس الأعراف والقواعد العامة السلوك هذا الاختلاف . ويعطى أحد الكتاب الماركسين ج . بليكانوف مثالا طريفاً على ذلك : لم يتخط ٥ المازى ٤ Les Mausis ، بإفريقيا الاستوائية الشرقية ` اجهاعيًّا مستوى الوعى ، فوسائل وجودهم كانت غاية في البدائية تسمح لهم. بالكاد أن يعيشوا ، ونتيجة لذلك لم تكن بهم حاجة إلى أسرى الحرب لأمهم. ما كانوا إلا ليضيفوا حملا ثقيلا على إمكانياتهم الضئيلة . لللك فلم تكن بهم أى رحمة حيال هؤلاء الأسرى ، يقتلون كل من يقع بين أيديهم . وعلى العكس فإن جيرانهم الڤاكومبا Les Wakamba ، وصلوا إلى مرحلة الزراعة وكانوا بحاجة. إلى أيد عاملة إضافية ، إذ كانت كثرة العمال تعنى لديهم محصولا أوفر .. ولذا فإمهم كانوا يحولون أسراهم إلى عبيد ، أى كانوا يظهرون بمظهر أكثر إنسانية لأنهم بلغوا مرحلة أرق في الإنتاج . ومن وجهة النظر الماركسية يوجد هنا علاقة هامة بين قواعد الأخلاق ومستوى الإنتاج . وهو موضوع سنعود إليه فيا بعد ـ وقد وضحت احدى الدراسات الحديثة للبوشيان و بصحراء كالأهاي ١٠٠٠. العلاقة. بين الهياكل الاجهاعية وندرة المياه وموارد الغذاء(٢) . يعيش البوشهان في مجموعات صغيرة عائلية حول نقط مياه لأن تكوين جماعات ضخمة يؤدى سريعاً إلى. الإقلال من احتياطي الغذاء . ويلعب الصيادون بيهم دورًا خطيرًا بسبب المسئولية. الَّبي تفرض عليهم مطاردة وذبح الصيد المتناثر وإحضاره إلى نقط مراكز المياه .. وقانوبهم الحنسي غاية في القسوة والاختلاط ممنوع بأى شكل من أشكاله : وهي نتيجة مباشرة لضرورة عدم زيادة عدد أعضاء الجماعة . ويتوقع من الأم التي ترضم وليدا وتنتظر طفلا ثانياً أن تقتل هذا الطفل التاني.

ويؤدى اكتشاف أشكال جديدة للإنتاج إلى تشييد روابط اجماعية جديدة تسمح لها بالسير بطريقة أقل عنفاً . وييدى الأستاذ أكتون في دراسته للنظرية المادية للتاريخ فكرة أن الرابطة بين ظروف الإنتاج ومناهج أو قوى الإنتاج هى إلى حد ما ، وابطة منطقية تنشأ حتماً . وهو يوضح هذه النقطة بتصور مجتمع من الصيادين يستعملون زوارق صغيرة يسير كل منها شخص واحد : 8 فالقوى المتنجة هى الأشخاص اللين يسيرون الزوارق القردية واللين يصيدون على ظهرها ؛

Les Bochimans du desert du Kalahuri

<sup>.</sup>Elizaberth Thomas, The Harmless People, Seepler and Warburg, 1959.

وعلاقات الإنتاج هي دفع الزوارق فرديًّا إلى البحر وعمل الأفراد المستقل ، .

مُمْ يَعْتَرَضُ أَنْ أَصْحُصا يَبِي سَفِينَة أَكِر ، أَى أَنَه يَشْخَلُ قَرِي إِنَّا جِية جديدة . 
وهذا يؤدى إلى تغير في روابط الإنتاج لأن القرى الجديدة محتاج إلى شخص يعبي لركوب البحر وإلى شخص بدير وإلى عدة أشخاص الإلقاء الشباك الكبيرة . والآن بأى طريقة ينشىء الاعتراع الجديد علاقات إنتاج جديدة ؟ يبدو لى أننا عندا انتكام عن اعتراع جديدة ي الفتر في انفس الوقت الذي ينفذ فيه الخترع مشروع إنزال مركب ضخمة يفترض قبل فنس الوقت الذي ينفذ فيه الخترع مشروع إنزال مركب ضخمة يفترض قبام وظالات جديدة ... لذا ، عندما نقول إن التغيرات الهامة في القرى المنتجة تكوار غير أنه ليس عبداً من كل فائلة . لأن معرفتنا لدواليب العمل في المجتمع تتحسن إذا ليس عبداً من الخبيمة والأفراد . ما أخذنا في الحسان أن إنتاج الثروة ليس فقط علاقة بين الطبيمة والأفراد وإنا أيضاً علاقة الأشخاص بعضم يعضى و(١).

هذا المثال الذي ضربه الأستاذ أكتون يثير الانتباء إلى نقطة هامة في النظرية الماركسية . فعلى الرغم من الاصراف بأن التغيرات في القوي المنتجة يولد تغيرات في علاقات الإنتاج ، فكثيراً ما يحدث (في رأى الماركسيين) أن هذه التغيرات الأخيرة لا تم إلا بعد وقت طويل . يمعنى أنه لا يرجد ضبط آلى لملاقات الإنتاج لتواثم التغيرات في أشكال الإنتاج . ويفسر الماركسي هذا التأخر بإرجاعه إلى عامل هام في علاقات الإنتاج لا يواجهه الأستاذ أكتون : وهو واقعة أن هيكل المجتمع الطبقي ينتج عن العلاقات المتصلة بالملكية في الهيتمع :

ربما كان هذا العامل قليل الأهمية في مجتمع كللك المجتمع الذي يواجهه الأستاذ أكتون . ولكن في مجتمع معقد حيث يكون من شأن الهياكل الاجهامية المرحودة أن تضيى امنيازات هامة لحزه من أعضاء المجتمع يصبح انضباط ظروف الإنتاج لتلائم فوي الإنتاج الحديدة حسيراً . وهذا هو سبب تركيز الماركسيين على التناقض بين علاقات الإنتاج وثمر قوى إنتاجية جديدة . فاركس مثلا

H.B. Acton, The materialist Conception of History, dans Proceedings of the ( ) Aristotelian Society, Vol. III, 1951. 52

ينادى بأن نمو شكل الإنتاج الرأسهالى عاقده الروابط الاجهاعية التى كانت ترجع لهل الإقطاع والامتيازات الهلية والامتيازات الموروثة بمجرد الميلاد . ولكى يصبح حلما الشكل الرأسهالى فى الإنتاج مزدهراً كان فى حاجة إلى شروط معينة : حرية التنافس ، حرية حركة اليد العاملة ، الحقوق السياسية للطبقة الرأسهالية المعاهدة . وينفس الطريقة يؤيد ماركس أن الهيكل الاقتصادى الرأسهالية — أى الملكية لفوصة لوسائل الإنتاج التى تجمل الربح هو الحرك \_ يعوق الاستعمال الكامل الانتقال من المرحلة التى تسيطر فيها الفائدة الحاصة إلى مرحلة الاستجابة للحاجات الانتقال من المرحلة التى تسيطر فيها الفائدة الحاصة إلى مرحلة الاستجابة للحاجات المنتاجية التي تسمح بأحسن استخدام لقوى الإنتاج . ولما كانت هذه التغيرات تقرض تغيرات فى ملكية الجهاز الإنتاجى ، فإن التناقض بين علاقات الإنتاج الملكية وبين والله وبين يريدون الاحتفاظ بعلاقات الإنتاج القوى الإنتاج قوى الإنتاج القوى الإنتاج . ولما الدين يطالبون بتغيرات تسمح بملامه علاقات الإنتاج لقوى الإنتاج . هذا الدين يطالبون بتغيرات تسمح بملامه علاقات الإنتاج لقوى الإنتاج . هذا العداء بين الجماعات ، كما يؤكد ماركس ، هو المنبع الديناميكى التغير طلاحياء إله العداء بين الجماعات ، كما يؤكد ماركس ، هو المنبع الديناميكى التغير طلاحياء إله مواع الطبقات .

ومن المهم أن تحدد على وجه الدقة هذه الفكرة الماركسية عن صراع الطبقات ، الأن أهميتها في النظرية الماركسية ربما يبالغ فيها أو يقلل من قدرها .

يعرف ماركس الطبقات بطريقة موضوعية بالنسبة للملكية . وهكذا فمخلال أى مرحلة تاريخية ، تكون الطبقة المالكة للجهاز الإنتاجي في المجتمع ، الطبقة المالكة للجهاز الإنتاجي في المجتمع ، الطبقة المسيطرة اقتصادياً ، وفي مجتمع صناعي تكون طبقة ملاك المصانع هي المسيطرة ... المسيطرة اقتصادياً ، وفي مجتمع صناعي تكون طبقة ملاك المصانع هي المسيطرة ... المناكة وملده الرابطة بين الطبقات غير المالكة فيا يتعلق بوسائل وجودها على الطبقات المالكة والطبقة التي لا تملك شيئاً — بين أصحاب الامتيازات والمحروبين من كل الامتيازات ... تكون عاملا هاماً في الظروف العامة للإنتاج .

ويرجع إنجاز ظهور انقسام المجتمع إلى طبقات إلى زيادة قوى الإنتاج حيى

أصبح فى الإمكان إنتاج فائض عن الكمية الضرورية لحاجات الحياة الأولية . فكان إنجلز يغترض أن المجتمعات البدائية لها هيكل غير طبق أو لا طبقات فيها لأن مستوى الإنتاج كان منخفضاً يكنى بالكاد لتخلية جميع أعضائها . ومن نتيجة ذلك أنه كان يجب على الجميع المشاركة فى العمل بطريقة متساوية . وكانوا جميعاً يقتسمون حاصل هذا المجهود الجماعى . لم يكن هناك مكان لطبقة صاحبة الميازات لأنه لم يكن هناك فائض لمدها بالغذاء . فى هذه الظروف كان وجود هذه الطبقة كفيلاً بتعريض الجماعة لفقدان جزء من قوة العمل الإنسانى مما يودى إلى نقص تغلية بعض أعضائها . كان الفقر بولد المساولة .

ويشرح إنجاز هذا بالطريقة الآنية: «كما يخرج الآدميون بدائياً من المملكة الميوانية – بالمغي الفييق للكلمة – يدخلون في التاريخ وهم لا يزالون نصف حيوانات ، أفظاظ ، لا يزالون عاجزين في مواجهة قوى الطبيعة ، لا يزالون يجهلون مدى قويهم ، وتتبجة لللك يكونون مساكين مثل الحيوانات ولا ينتجون أكثر منهم إلا بقدر ضميل . فيسود بلنك نوع من المساواة في ظروف الوجود . وبالنسبة لرؤساء العائلات يسود أيضاً نوع من المساواة في الوضع الاجتماعي – على الأكل – انمادام الطبقات الاجتماعية - 10.

وهذه هي المرحلة التي سياها إنجاز والشيوهية البدائية ٤ ومع ذلك فقد أذكر يعض الأنثر وبولوجيين وخاصة الأستاذ مالينوفسكي أن هذه المرحلة وجدت في أى فترة من الفترات . وعلى الرغم من ذلك فهو يذكر في دراسته لسكان جزر تروبيون (٢٠ على سبيل المثال ، بعض العادات التي تدلل على وجود مرحلة شيوعية بدائية . فهو يصنف بالألفاظ الآتية القيام بالعمل الجماعي : و العمل الجماعي عنصر هام في الاقتصاد القبلي لسكان جزر تروبيرون . وهم يلجأون إليه عند القيام ببناء الأكواخ السكنية ومخازن حفظ الاحتياطي ، وبعض أشكال العمل الصناعي ونقل البضائع وخاصة في لحظة الحصاد عندما يتعين نقل كميات كبيرة من المنتجات من بلدة إلى أخرى غالباً ما تكون متباعدة ٤ .

Anti Duhring, p. 211, Editors Sociales (1)

ومن المهمأيضاً أن تذكر أنه في تصديره للدراسة الني قامت بها دكتورة أودري ريتشاردز عن a الجوع والعمل في قبيلة متوحشة ع<sup>(١)</sup> والتي ركزت فيها على أن العمل الجماعي هو أساس البحث عن الغذاء في الجماعات البدائية كتب الأستاذ مالينوفسكي: والآن فقط بعد أن أحطت بدراسة الدكتورة ريتشاردز أستطيع أن أرى بوضوح الفجوات في ملاحظاتي على الميلانيزيين . إذا لم يكن لهذا الكتاب فضل سوى أنه يلزم الباحث بأن يفتح عينيه وفكره على الدور الهام الذي يلعبه الغذاء في المجتمعات البدائية ، فهذا يكني لاعتباره حادثة في تاريخ الأنثر ويوليجيا ، وقد كتبت الدكتورة ريتشاردز تقول: ﴿ فِي أَكْثِرِ القبائلِ توحشاً تعد المجاعة واقعة ممكنة الحدوث بصفة مستمرة إن لم تكن تهديداً فعليًّا . والبحث عن الغذاء هو الشاغل الأساسي لكل عضو إيجابي في الجماعة وأهم النظم هي تلك المتعلقة بالملكية وبتوزيع القوت ، . وفي ملاحظاتها على قبيلة بازوتو (٢١) وشكل مرعاها تقول: وحسب العرف الأهلى ، تعد الأرض المحتلة بواسطة قبيلة من الناحية النظرية ملكاً للرئيس المسيطر ، وحسب مبادئ شيوعية يتصرف باعتباره قيماً على القبيلة مالكاً للأرض لحساب الأفراد اللين يشغلوبها ويستخدموبها ، والذين يتبعونه. وفيها يتعلق بشعوب بانتو (٣) بالجنوب الشرق تقول : و إنها تملك مزارع وأراضي صيد ملكية مشركة .. وتقوم العلاقات بين القبيلة وكذا العلاقات العائلية والأسرية على أساس الحاجة للغذاء ، وهي حاجة بدائية وبيولوجية . ويقتسم الطفل باعتباره عضواً في جماعته الغذاء ويتلقاه من أشخاص معينين يعدهم أعضاء من أسرته ومن دمه . وباعتباره بالغاً يصل إلى مرحلة اكماله اقتصاديًّا باعتباره منتجاً للغذاء عندما يشرك لأول مرة في أنشطة القبيلة الهامة مثل الصيد الجماعي أو المراسم الوطنية التي تعلن أول الثمار أو أول الغيث ۽ .

وليست النظرية القائلة بأن حالة شيوعية بدائية تسود عندما يتقل الإنسان من عالم الحيوان ليميش في جماعات عائلية ، ليست هذه النظرية في نهاية الأمر بعجيبة فن حقنا أن نستتج أنه أمام خطر المجاعة الذي تتعرض له

Dr. Andreu y Richards, Emogar and Work in a Savago Tribe. ( ) Basouto ( ).

<sup>(</sup>Y)

يوميا يتحم القيام بنشاط تعارفي بهدف البحث الدائم عن الغذاء الذي أدى إلى تقهقر الغيرة المتبادلة التي قدمها إنجلز في وأصل الأسرة ع<sup>(1)</sup>.

وتفضى التجربة والاختراعات والاكتشافات التي تحركها وحدات اجماعية نامية ذات حاجات متزايدة ، آماناً وإمكانية فائض يضعان أسس تقسم المجتمع لم طبقات . كان إنجاز يقرض أن التقسيمات الطبقية ظهرت أول ما ظهرت مع الرق . عندما مسمحت قدرة المصل بإنتاج مايزيد على الفسرورى لحفظ المجتمع مناجمة الممل أو يرى إنجلز أن هده القوى الإنتاجية الجديدة قدمها الحرب ، وحوي ذلك الحين ، لم يكن قد تم التوصل إلى معرفة طريقة معاملة أسرى الحرب ، كابل الحين ، لم يكن قد تم التوصل إلى معرفة طريقة معاملة أسرى الحرب ، كابل يؤكيون . أما في مستوى و الحالة الاقتصادية ، التي وصلنا إليها اليوم فقد أصبحوا فيني قيمة للما فهم يتركون أحياء وينتفع بعملهم . . وهكذا اخترع الرق و (٢) .

فتقسم المجتمع إلى طبقات يقابل مرحلة معينة من نمو قرى الإنتاج. وقد الروات المستحدة في المستحدة والمستحدة في المستحدة والمستحدة والمستحدة والمستحدة والمستحدة والمستحدة والمستحدة والمستحدة والمستحدة والمستحدة الالمستحدة والمستحدة المستحدة والمستحدة المستحدة والمستحدة المستحدة الإنتاج يظل هذا التعارض مستحراً . ومن هذا يقول إنجلز: و طالما أن شكلا بعينه في الإنتساج يكون صاحداً في طريق تطوره ، فإنه يحظي بالتأبيد حيى من أولتك المنبونين في طريقة التوزيع المقابلة لذلك الشكل في الإنتاج وعندما تخذي إلى حد كبير شروط وجودها .. وتطرق الأبواب طريقة جديدة في الإنتاج عند ذلك فقط يبدو التقسم غير المتساوى ظالما أكثر فاكرة (\*").

إذا طبقنا هذا على العصور الحديثة ، فإن التعارض الأساسى الذي يعكس

Engels: "L'Origine de la famille." (1)

Engels : Anti — Duhring, p. 212 (Y)

Zbid, p. 181. (\*)

المتنقض بين القرى الإنتاجية وعلاقات الإنتاج يكمن في صلاقة الطبقة الرأسالية بعلمة الماملين . قامت الأولى بدور تاريخي هام في توحيدها لآلات الإنتاج المهمرة وهي الحالة التي كانت سائدة في الفترة الأسبق . قبل النظام الحالى كان الإنتاج بم أساساً على مستوى صغير . كانت أدوات الإنتاج مملوكة الممتنج اللبي كان ، اصاداً على مواده الأولية وعلى جهده ، ينتج ابضائعه، وفتيجة لهذا كان الإنتاج يمود عليه أي كان يملك نتاج عمله . هذه الصناعة الصغيرة تقرضت عمو نهاية القرن الحامس عشر عندما لحقت التجارة طفرة على أثر اكتشاف أمريكا والدوران حول رأس الرجاء المسالح ، وفتح أسواق في الهند والمهين ، الأمر عبد كبير من العاملين يتعاونون في طريقة الإنتاج عبل الوسائل الفردية المبعبة والمهن المنافقة المبداد من العربة المبعبة والمهن المبحد كبير من العاملين يتعاونون في طريقة الإنتاج عبل الوسائل الفردية المبعبة والمهن المبحد المبائل الموات أن الورشة الفردية ظهر المبسن الذي يغرض تعاون مثات والاف الرجال . وكما هو الحال بالنسبة لوسائل الإنتاج ، فإن الإنتاج ، فضما عرب من مسلمة من الأعمال الفردية الجن المسلمة من الأعمال الفردية إلى متجات اجتماعية من الأعمال المعتجات من منتجات فرينة إلى متجات اجتماعية عن (١٠).

وهكذا بإضفاء طابع اجتاعى على الإنتاج لعبت الرأسالية دوراً تاريخيًّا هامًّا ولكنها لعبته بمرمان جزء كبير من المجتمع من ملكية وسائل الإنتاج . أصبحت أدوات الصبناع "Artisures" ذات قيمة في التنافس مع التنظيم الصبناعي للرأساليين واتمحى رب العمل السمنير . كانت هذه العملية إحدى حلامات الثورة الصبناعية في النصف الثاني من القرن الثامن حشر الذي رأى اعتراح الآلة البخارية ، ولات النسبج والمهن الميكانيكية . . إلخ . وكانت التيجة ميلاد طبقة لا تملك وسائل إنتاج ، طبقة بروليتاريا . «أصحاب المصانع الصبغيرة والتجار وأصحاب المسانع الصبغيرة والتجار وأصحاب المسانعة المدنيا في الفرة الدنيا في الفرة السمع لمي السابقة ، تحولت إلى بروليتاريا من ناحية لأن رؤوس أموالهم الصبغيرة لا تسمع لمي باستخدام وسائل الصناعة الكبيرة ، فيهارون في سباقهم مع أصحاب رؤوس باستخدام وسائل الصناعة الكبيرة ، فيهارون في سباقهم مع أصحاب رؤوس

الأموال الكبيرة ، ومن ناحية أخرى لأن مهارتهم الفنية حطت من قيمها طرق الإلتاج الحديثة . حمى إن البروليتاريا أصبحت تنتخب من جميع طبقات الشعب ء<sup>(1)</sup>.

ولكن في الوقت نفسه الذي كانت تقدم فيه الطريقة الرأسالية في الإنتاج على نطاق واسم ، أساساً اشتراكيناً للإنتاج ، في نفس الوقت الذي كانت تنظم وتخطط الإنتاج الصناعي ، كانت تحتظ بالطابع الفردى للملكية الذي كان علامة الإنتاج الفي الربي الذي كانت تحل علمه .

كان هدف الإنتاج في أوائل العصور الوسطى إشباع حاجات المتتج وعائلته وكان هلما يستهك ما ينتجه . وفي فترة لا حقة نشأ التبادل بين صانع المدينة وفلاح الريف . يسيع الأول إنتاجه للأخير ويشترى المنتجات الزراعية . هلما النوع من التبادل استقام تلقائينًا على أثر تقسيم العمل ، ولم يكن يعتمد على أي تخطيط للإنتاج . كان كل منتج يعمل مستقلاً عن المنتجين الأخوين حتى إنه لم يكن ليستطيع تقيم الطلب على إنتاجه بدقة . ها

هذا الطابع الفوضري للإنتاج استقته الطريقة الرأسالية في الإنتاج؟ ، كا استبقت الملكية الفردية لوسائل الإنتاج ، وبصورة أشد لأن الإنتاج الصناعي المصطبغ بالمقسولية rationelle كان يسمح بصنع كيات كبيرة من السلع التي كانت تلقي في السوق من كل منتج على حدة . ويظهر التناقش بين الإنتاج الاجتماعي وما يوافق الرأسالي ، يظهر كما لوكان تناقضاً بين تنظيم الإنتاج في المصنع الفردي وفوضي الإنتاج في المجتمع كله حكل ه(1) .

وفى إطار هذا التناقض بين الإنتاج الاجهامي والملكية الحاصة ، بين التنظم الصناعي وانعدام التنظم في المجتمع ، قامت الماركسية بتحليل ميول الرأسهالية

Manifesta du parti communiste, p. 22, Relitions Sociales 1961.

<sup>(1)</sup> 

واتجاهاتها. وهناك عنصر نظرى هام لا يمكن فصله عن التنبؤات المتعلقة بمستقبل الحركات الاجتاعية . إن اتجاها أو تحركاً ما يبدو هاماً في لحظة معينة يمكن أن ينحرف أو يغير من تأثير عوامل كان لا يمكن التنبؤبها في اللحظة المذكورة . إن الحرب العالمية الأولى والثالية أعطت انطلاها خارةاً للعادة للاخترعات وللاكتفافات تكنيكات الإيتاج . إن تقرية الحركات العمالية والتقابات والمنظمات العمالية مصمحت للطبقة العاملة بالحصول على أنصبة أكبر من الإنتاج الاجتماعي ، وسمحت بقلب العملية التي تزيد من فقرها والتي كانت تبدو الماوكس غير ممكن تفاديها . وهذه كلها عوامل ما كان ماركس ليستطيع التنبؤيها يشكل كامل وبالتفصيل . وقد قبل نتيجة لذلك أكثر من مرة إنه كان عفوماً لأن التعلور وبالتفصيل . وقد قبل نتيجة لذلك أكثر من مرة إنه كان عفوماً لأن التعلور البسيط الحدد نسبياً الذي وصفه اعهاداً على تحليله لم يحدث . لذا يكد عمي أن

ويذكر على وجه الحصوص فى مجال رفض الأخد بالماركسية كتابات كيتر وجالبرت ولكن كلا من الكاتبين يصر على تدخل الحكيمة فى الحياة الاقتصادية تدخلا يحد ، إلى مدى بعيد ، من البحث عن الربح باعتباره عاملا حاسماً فى توجيه استهارات رأس المال .

فى الواقع هذا النقد ليس رفضاً للماركسية إلا بقدر اعتبار الطائرة – وهي استخدام لقانون طبيعى – رفضاً لقانون الجاذبية الأرضية . إذ لا تزال النقطة الهامة من النظرية الماركسية فى الاقتصاد محيحة وهي أن ترك التحكم فى رأس المال للأفراد والبحث عن الربح يقودان إلى فوضى الإنتاج والتوزيع .

طبيعى أنه من الممكن تصور وسائل تخفف من الآثار الفرضوية للإلتاج. وهناك اقتصاديون يعرفون بلا شك التحليل الماركسي ، يستطيعون إخضاع الحكومة لحصلط الاستيار العام . . إلخ . بهدف إضفاء المعقولية على الحياة الاقتصادية للرأسالية . ومع ذلك فإذا ما طبقت هذه الحكومات هذه الخطوط بطريقة تحد من البحث عن الربح وتعطى الأولوية لرخاء الجماعة ، فإن هذا لا ينقض من البحث على للاقتصاد ، ولكنه ينقض النظرات التي تصحيها عن الآنانية

وانعدام المسئولية الاجتماعية لدى الرأسهاليين . وبعبارات أخرى ، فإن التنبؤات الماركسية المتعلقة بسلوك الرأسهاليين أصبحت غير مقبولة . ولكن التحليل الاقتصادى للرأسهالية لامأخط عليه . إن ما يدعوننا إليه كينز وجالبرت وتلاميلهما إهو التسلم بأن القادة السياسيين للرأسهالية أقل أنانية وأكثر ممقولية نما كان يظن الماركسيون . وسأعود إلى هذه الحاولات لنقض الماركسية في الفصل الأخير من هذا الكتاب ناظراً إليا من وجهة أكثر عمومية .

حتى هذا لم يثر عرضنا الماركسية ما كان يطلق عليه ماركس اسم الأقتصادى المجتمع economie de base أي القوى المنتجة فيه والملاقات بين الآدمين التي يم التي عيطها نمو هذه القرى . وسندوس الآن و الميكل المقائدى و الله الله النظرية الماركسية في حلاقة فكر الإنسان بوسطه الاجهاعي وإلى كل الآثار التي ترتب على هذه الملاقة .

إن التعريف التغليدى (الكلاسيكي) العلاقة بين الهيكل العاري المتحدد والأساس الاقتصادي Infrastructure يعد مكانه في إحدى فقرات و نقد الاقتصاد السياسي » لماركس . وتبدأ هذه الفقرة بنظرات على النقاط الاقتصاد السياسي » لماركس . وتبدأ هذه الفقرة بنظرات على النقاط التي درسناها فيا سبق . وهي أنه في أي شكل من أشكال الانتاج يقم الناس فيا بيهم حلاقات إنتاج تقابل مستري معيناً من نمر القري المنتجة ، ويستطرد تأكلا : و إن الحيكل الاقتصادي هو الأساس الحقيق للمجتمع ، يشيد عليه بناء أو هيكل علوى الانتجاب للحياة المادية تؤثر في سير الحياة الاجتماعية ، والفكرية . ليس ضمير الآدمين هو الذي يمدد وجودهم ، بالمكس والسياسية ، والفكرية . ليس ضمير الآدمين هو الذي يمدد وجودهم ، بالمكس انو و ، تلخل القرى المادية للإنتاج في الحبيم في صراع مع علاقات الإنتاج الموجودة أو — وهو يعد التعبير القانين عن الشيء نقسه — تلخيل في صراع مع علاقات الإنتاج علاقات المنتات التي علاقات المنات الى صراح عادة الملاقات التي علاقات المنات الي مرحلة ما عادة التعبير عن نحو قرى الإنتاج ، تصبح عائقاً لهذا النو

وبذا تبدأ فارة ثورة اجماعية ويؤدى تغير الأساس الاقتصاى إلى تغير محمود في مجموع الهيكل العلموى الواسع . عند دراسة هذه التحولات ، يحب ألا نسى التمييز بين التحولات المادية للظروف الاقتصادية للإنتاج ، التي يمكن تحديدها بنفس دقة تحديد أى علم فيزيائى ، والتعبيرات القانونية ، والسياسية ، والدينية ، والفلسفة أى الإفصاحات المقائدية ( الأيديولوجية ) ، التي بواسطتها يصبح الناس واعين بهذا العمراع ويبدأون في حصاره والتخفيف منه » .

إن مغزى هذه الفقرة الغزيرة المتعلقة بالمادية التاريخية تعتمد على المعى اللدى يعطيه ماركس لكلمات مثل و يحدد peterminer ويؤثر في Poterminer ويؤثر أن نعنيه صندما تقول إن الأساس المادى يحدد ويؤثر في المجلى العلمي بجده في المبارة المكتوبة على ضريح ماركس والتي حروها إنجاز : و تماما كما اكتشف داروين قانون تطور الأجاس ، اكتشف ماركس قانون تطور الأجاس ، اكتشف ماركس قانون تطور الأجاس ، اكتشف ماركس الونين تعلور الأجاس ، اكتشف ملوكس الإنسانية يجب أولا وقبل كل شيء أن تأكل وتشرب وتسكن وتلبس قبل أن "م"م بالسياسة ، وبالعلوم وبالفن وبالدين . . إلخ ه .

وبعبارة أخرى يجب أولا الوصول إلى مستوى معين فى الإنتاج المادى قبل أن 
تتمكن الحياة التقافية من أن تأخد مبيلها إلى النو . إن أى مجتمع يجب أن يتمكن 
أولا من إهداء الوقت لبعض أعضائه ليتخصصوا فى أنشطة غير إنتاجية ، وهو 
أولا من إهداء الوقت لبعض أعضائه ليتخصصوا فى أنشطة غير إنتاجية ، وهو 
ما يعنى أنه مازم يإنتاج فائض يسمح لم بالحياة . وهي واقعة اعرف بها أرسطو 
وفى اليونان القديمة ، قلم الرق ، كما أوضح إنجاز ، فى Anct-Dabring الأساس 
المدى لغوائف والعلم والفلسفة اليونانية . فالقول إن المستوى المادى للإنتاج يحدد 
تطور الحياة الفكرية يماثل بالمبى الواسع القول إن المستوى المادى للإنتاج 
يصح الحدود التى يمكن فيها للحياة الفكرية أن تنمو ، إلى حد ما . هذا المستوى 
المادى يضع المشاكل التي تستغيث بالجياة الفكرية ليتولى حلها . أى أن الملاقة بين 
المستوى المادى الإنتاج والحياة الفكرية ليتولى حلها . أى أن الملاقة بين 
المستوى المادى الإنتاج والحياة الفكرية ليتولى حلها . أى أن الملاقة بين 
المستوى المادى الإنتاج والحياة الفكرية ليتولى حلها . أى أن الملاقة بين 
المستوى المادى الإنتاج والحياة الفكرية لم وسائل المأكل والمشرب والمسكن 
المانانين والملماء والفلاسفة بحيب أن توفر لهم وسائل المأكل والمشرب والمسكن

إذا أردنًا أن ننتظر منهم المساهمة في حياة المجتمع .

ومع ذلك فإنى أرى أن ماركس كان يريد أن يقول أكثر من ذلك . فلم يكن شاغله الأخير هو تقرير أن مستوى المعيشة ضرورى لنمو الحياة الثقافية في أى مجتمع ولكن أكثر من ذلك إن الرجه الثقافي له علاقة هامة برجه المجتمع أو الهيكل الطبقي الذي ينمو فيه . إن هذا هو المعنى الذي يرمى إليه ماركس عندما يستعمل اصطلاح و يجدد ه .

بصفة عامة ، الثقافة ــ أى اهمام الإنسان بالفن والأدب والمرسيقي والعلوم والفلسفة شكل من أشكال النشاط الإنساني الذي لا يمكن توفيره ، على الأقل فى قلمر كبير منه . إلا إذا وصل الناس لمستوى إنتاج يحرر بعضهم من ضرورة المساهمة بكل وتهم في علية الإنتاج . ويمعى أخص يتحدد الرجه الثقافي بواسطة الرجه الاجباعي ، فالأدب والفن والسياسة والعلم والدين موجهة عقائديًّا بحيث تعكس وتحمى مصالح الطبقة المرجهة . أي أنه تُوجد علاقة بين الأفكار المميزة لعصر ومصالح الجماعات المسيطرة في ذلك العصر . هذه الأفكار يمكن استبخدامها كأسوار لحماية مصالح جماعات مسيطرة حتى إن المصالح الخاصة لجماعة تقدم على أنها المصالح العامة لمجتمع . وقد وصف هيوم ف كتابه والعقد الأصلي ، هذه الميكانيكية خير وصف : وبما أنه لا يوجد أى حزب حاليًّا، دون سند من نظام فلسنى أو نظرى، يتعلق به ويلحق بنظامه السياسي أو العمل ، فإننا نجد ، نتيجة لذلك ، أن كل حزب من هذه الأحزاب الى تقسم الأمة قد شيد نظاماً من الطراز الأول بهدف حماية وإخفاء خطة العمل المتبعة فيشبه الحزب الحكومة بشيء مقدس لتصبح مؤلمة وأعلى من أن تعصى ، حَى إن الهجوم عليها يصبح معصية أيًّا كان الطغيان الذي قد تؤول إليه . . ويؤسس حزب آخر الحكوبة على الرضا الشعبي ، ويفترض أنه قد وجد في الأصل عقد يعترف للمواطنين محق مقاومة عاهلهم عندما يستشمرون أنه قد آذاهم بالسلطة التي بين يديه والتي حصل عليها لتحقيق صالح الجماعة . هذه هي المبادي النظرية لهذين الحزبين والنتائج العملية الى قد تترتب عليها . .

إِنْ فَكُرةً مَارَكُسَ عَنِ الثَّقَافَة وَأَنَها مُوجِهة عقائديًّا لَتَبرير مصالح طبقة ، تَعْنَى تَمَامًا مع فَكُرة فرويد عنالتبرير "Rationalisation" . وقد وصف إنجاز هذه العملية processus بعبارات ما كان لمحال نفساني حديث ليستخدم غيرها و الأيديوليجية هي عملية من صنع مفكر واع ولكنه يملك في الواقع وعيا غبر سلم . لأن الدوافع الواقعية التي تدقعه تظل بالنسبة له غير معروفة.، أي أن الأمر لا يتعلق مطلقاً بعملية أيديوليجية . ومن ثم فهو يتصور دوافع ظاهرة أو خاطئة » . إن ما اكتشفه فرويد في النفس الفردية اكتشفه ماركس في الشبكة الواسعة للملاقات الإنسانية في المجتمع .

ومن المهم أن ننبه إلى أن واقعة بعض أوجه الحياة الثقافية للإنسان يمكن المستخدم لتبرير مصالح اقتصادية خاصة لا تمي بالضرورة أن هذه الأجه لا معي لها إلله المعي الاقتصادي. فهناك فارق هام بين السؤالين: و هامي الظروف الى ولدت وجهة النظر هذه أو تلك – ما هو دورها في المجتمع ؟ ، وبين السؤال و هل وجهة النظر هذه مبررة ؟ » . يمكن أن نبحث عن الظروف التي أعطت دفعة لنظرية داروين وأن نقول إن هذه النظرية قلمت أحياناً كما لو كانت تبريراً للمهور جماعات فيقة قادرة في المجتمع . وهذا الإيضاح الاستعمال الأيديولوجي لما النظرية ويكن المستعمال الأيديولوجي المؤاتم ؟ هل النظرية ولكن النظرية الماركسية باعتبارها متجد نفسها في مركز متناقض في النظاهر . وربماكان هذا يعني أن المؤركسية باعتبارها نتاج للمحق الطريق في يد الطبقة الماملة ، لاحق نتاجاً لبعض الطروف التاريخية ، تمكون سلاحا نظرياً في يد الطبقة الماملة ، لاحق لها في أن تكون أكثر صحة من أي نظام نظري آخر يهدف إلى وصف تاريخي في ليست إلا نتاج ظروف مخطفة تبعاً للمصالح الطبقية المنتلفة . ومن المؤكد أن مركس كان لا يعني هذا .

باختصار ، يجب أن نقيم تمييزاً بين الوجه الأيديولوجي لنظرية – واقعة أنها يمكن أن تستخدم كسند ومبرر لمصالح اجهاعية معينة – وقدرتها كنظرية على تفسير الوقائع التي تتصل بها أو بإعطاء إجابة على المشكلة المتعلقة بها .

ولنعد الآن إلى وجه عام النظرية التاريخية الماركسية ، إذ أنى أرى أنه من الأفضل النظر إليها لا باعتبارها صيفة ضيقة لبناء العلاقات بين الهيكل العلوى والأساس المادى ، ولكن باعتبارها وسيلة للوصول إلى دراسة اجماعية ، وسيلة للبحث عن هياكل المجتمع من زاوية تكنيك الإنتاج . وقد عالج إنجلز بوضوح هذه النقطة : « ولكن ، قبل كل شيء ، إن بكرتنا عن التاريخ ، أنه مرشد

للدراسة لا رافقة بناء على طريقة هيجل . كل التاريخ يجب أن يدرس بعيز جديدة وظروف الرجود للأشكال المختلفة من المجتمعات بحيث تكون موضوع فحض دقيق ويستطرد منتقداً الماركسيين و الذين يستخدمون اصطلاح المادية التاريخية . . . فقط بهذف إدخال . . . معارفهم التاريخية المتناثرة . . بأسرغ ما يمكن . . . ق نظام منمى معتقدين أنهم بذلك قد قاموا بعمل خارق العادة ع .

مكذا تؤكد ألنظرية الماركسية أن دراسة مناهج الإنتاج تسمح للأفراد بكسب ميشهم ، وأن فحص علاقات الإنتاج ، وطبقات المجمع ، وحق الملكية ، تعد عاولات لفهم الظاهرة التاريخية المعدة . لأأحد من المؤرخين المأصرين ميوجه انتقاداً لقيمة هذه الطريقة في دراسة التاريخ. وعلى سبيل المثال كتب الأستاذ بْرَفِيلِد في دراسته الناقدة للنظرية الماركسية في التاريخ: ﴿ إِنْ صِيغَةَ المَارَكسية تحدد منهجاً وتقدم إرشادات لللك الذي يرغب في دراسة التاريخ من وجهة فظر عامة أو لللك الذي سيكرس نفسه للبحث التاريخي . وهي تعزف الموقف الذي يجب أن نتخذه عندما نريد دراسة التاريخ ، ولا يرجد تفسير آخر يمكن أن يقدم لتا شيئاً أكثر من ذلك . وقد ألح الكثير من مفسرى النظرية الحديثين على هذه التقطة . وبعبارات أخرى ، في حالة معطاة ، يحب أن نبني بناء على فرض ، وتشير علينا الصيغة الماركسية برسيلة البدء ، إنها تقول لنا من أى جهة نغزس عصنانا ۽ (١) .

ما هي الرابطة بين النظرية الفرويدية وهذه الفكرة الماركسية عن الحياة الافتصادية والاجماعية للإنسان في المصطلحات الفرويدية ؟ الأنا هو ذلك الجزم من الأنا الأدنى الذي يعدل بالاحتكاك مع الواقع الحارجي ، وهو واقع بالنسبة للإنسان على وجه الحصوص اقتصادى واجباعي . أى أن الأنا يعكس الوقع الاجياعي ويسغىجاهدا لتحديد متطلبات الأنأ الأدنى وتصنيفها لتتفق مع متطلبات الواقع الاجتماعي . يقول ماركس إن ضمير الإنسان يحدده وجوده الاجتماعي ، وهو مضمون لا يسع النظرية الفرويدية إلا أن توافقه . ولكن الفرويديين يذهبون إلى أبعد من ذلك ويوضحون أن العلاقة بين الأنا الشعوري والعالم الاقتصادي

الخارجي ليست في اتجاه واحد، وأن الأمر لا يتعلق بصلة سلبية للأنا في مواجهة العالم الحارجي ، ولكن بصلة يبحث الأنا من خلالها بطريقة آيجابية ، عن وسائل للتعبير عن دوافع الآنا الأدنى . أى أن الآنا في مواجهة الآنا الأدنى ليس مجرد مرآة عاكسة للواقع الحارجي ولكنه يسغى لإعادة تشكيل هذا الواقع على أحسن مايكون ليخذمُ أَهدافُ الآتا الآدنى . وبهذه الطريقة تْرَى النظرية الفرويدية التأكيد الماركسي المبسط بأن الواقع الأجهاعي يحدد الضمير فالنظرية الفرويدية تقول : ١ إنه لا يكفينا أن نلزم الواقع الاجماعي باعتباره مؤثراً خاسماً على الشغور ، ولكن يجب أيضاً ذراسة المنكآنيكيات النفسية الى تعطى الشغور مَضَمُونَهُ \* وَالَّى تَبِرِر تَعْلَيْهِ عَلَى الْوَاقِعُ الْحَارِجِي . وقاد قدمنا في القصل الرابع عرضاً ظميكانيكيات التي يستخدمها الأنا باعتبارها همزة وصل بين الواقع والأنا الأدنى ، وفسرنا كيف يتخرك الآنا عن ظريق الإسقاط والتسامى والتبرير في مواجهة الأنا الأدنى ويوفق بين متطلباتها ومتطلبات الواقع الحارجي . إن ما هو صحيح بالنسبة للنفس الفردية في علاقاتها بالعالم يبدو صحيحاً ، على مستوى أكبر ، مستوى الكتل الاجمَّاعية في المجتمع . وقد رأينا أن الطبقة المسيطرة تبرر مصالحها بهدف خِعلها مصالح المجتمع بأكملة . وهي تشيد هيكلا أيديولوجيًّا منقدا من الحجج الفلسفية والدينية والسياسية يبرر احتفاظها بالسلطة وامتيازاتها .

ومع ذلك فهناك عامل يجب أن يؤخان فى الاحتبار ، لأن الأنا لا يتصرف خقط باعتباره وسيطاً بين الأنا الأدنى والواقع . يجب أن تأخذ فى الحسيان الأنا الأعلى ، هذا التجسيد للسلطة كما يراه الأنا الشعيف غير المميز الذى يصاحب الطفولة . كان فرويد يقول : إن الأنا يجب أن يخدم سيدين ، من الأنا الأعلى ينبع هذا التأثير اللامعقول الذى تمارسه فى حياة الإنسان التقاليد والسلطة . .

ولتنذكر الظروف الى تحيط بضياغة الأنا الأعلى حتى نستطيع أن نقم على وجه الدقة الدور الذي تلميه في الحياة الاجتماعية .

إن الاتصال الأول للطفل بالواقع ، أول صدماته وأول إشباعاته تأتيه ، في جزء كبير منها ، من الأشخاص الذين يحيطونه ، والديه وأصدقائهما . . . إلخ . إن إحدى الحصائص البيولوجية الهامة للكائن الإنساني هي طول فترة الضعف التي تلازم الطفل والتي لا يستطيع أى نظام سياسى أن يتجنب وجودها . إن ردود الفعل النفسية للطفل أمام هذا الضعف ، الحضوع شبه الكامل للبالغين مصدر تشابه لا يمكن تحاشيه أيًّا كان الوسط الا جياعي .

ينسى الطفل إلى الا عتراف بأن ثمة سلطة خارجية لها القدرة على حرمانه من إشباع رغباته . وبطرق مباينة تجعل الطفل يشعر بالفرق الأساسي بينه وبين البالغ، هذا الأخير له الحق في إشباع أو عدم إشباع حاجاته الملحة . . ويترك الدور الذي يلعبه الوالدان أو الأشخاص المتمتعين بالسلطة ، يترك هذا الدور علامات على الطفل تغصبه على التكيف مع مقتضيات الواقع . عندما يكون الآنا ضعيفاً وغير قادر بعد على التحكم في الحاجات الملحة للأنَّا الأدنى يتوحد جزء من الأنَّا ف الوالدين ، وباعتباره أنا أعلى يستمر في مراقبة ميول الأنا الأدنى ، ويغصب الأنا على زجر الميول التي يقدر أنها غير لاثقة ، وفي مرحلة متأخرة تجبر هذه المراقبة من الآتا الأعلى القرد على طاعة السلطات الخارجية . . فهي مسئولة على وجه الخصوص وإلى حد بعيد عن الطاعة العمياء لسلطة الكنيسة ، والدولة والحزب السياسي . . . الخ . وبهذا المعنى يفسر لنا الأنا الأعلى معقولية التحفظ ، الذي يقود إلى الاحتفاظ بنظم اجماعية بالية ويعرف المصلحون الاجماعيون تمام المعرفة أن المعارضة الأشد الى تمارس في مواجههم تأتى من عبء التقاليد ومن الرابطة التي تربطنا عاطفيًّا بالنظم الاجهاعية الحاضرة . وهذه النظم لا يمكن فهمها إذا لم نعرف الدور الذي يلعبه الأتا الأعلى في وجودها . لأنه يرخم أن طابعها يمكن أن يكون إلى حد بعيد نتيجة للضرورات الاقتصادية والاجباعية ، فإن سيطرتها على الأنشطة الإنسانية والتي تظل محتفظة بها لمدة طويلة بعد أن تختفي أسباب وجودها ، يرجع إلى النشاط الدافع للأنا الأعلى .

ونصحة لللك فإن الآتا الأعلى وسيلة لنقل أساليب السلوك التقليدية . أو كما كان يقول فرويد : « إن الاتسانية لا تعيش أبدياً في الحاضر بشكل تام ، فنى أيديلوجيات الآتا الأعلى بقايا الماضى ، وتقاليد الجنس والشعب التي لا تتراجم إلا ببطء أمام تأثير الحاضر وأمام التغيرات ، (1) . أوضحت الماركسية المطريقة التي

تملق بها التقاليد والنظم والأيديولوجيات لتخدم مصالح الجزء الحاكم المحجمع :
ولكن الماركسية لم تصدر العاهة العمياء من جانب أشخاص لا تمثل هذه النظم
أى مصلحة من مصالحهم . وتتولى النظرية الفرويدية عن الأنا الأعلى الفيام
بهذه المهمة الهامة لفهم هذا الوضع . لو كان ضحا لأنا الأعلى غير موجود ،
لكانت مهمة المصلحين الاجماعين أمهل بكثير ولما تبنى سوى ضرورة تفسير
كيف أن بعض التغيرات الاجماعية يمكن أن تعدل آلام المجتمع وتفيده في
مجموعه . إذا لم تكن التفسيرات المعقولة تصطدم بمقاومة نابعة من تعلق الأنا
الأعلى بالنظم الاجماعية البالية لفهم الناس بسرعة ضرورة ترقية النظم الاجماعية

لهذا السبب يعد بعض المحلين النفسين — المهتمين بالمشاكل الاجهاعية والذين يفهمون ويقدون ضرورة التطور الاجماعي ، يعدون — إحلال : أخلاق الأناء عمل : أخلاق الأنا الأعلى ، من الأمور الأساسية الجوهرية .

وعلى سبيل المثال برى الاستاذ ظرجيل أن هدف ، و علم الاجتماع التقدى » هو تقوية الآبا ضد ه الرقابة الفاسية التي لا تزال لا شعورية للأنا الأعلى » . وهكذا يتحرر الفرد من سطوة سلطة لا معقولة ويسمح له عقله بالتحكم بطريقة ألفضل في شخصيته .

إنى أرى أن الماركسية يمكن أن تقدم للمصلح الا جماعي أضواء على الأسباب الاقتصادية وبصفة عامة التاريخية لآلام الهتمع الحاضر. إن ما يسمى إليه المصلح هو العمل على جعل الناس يتصرفون ويفكرون بطريقة معقولة حتى تتكشف لهم حقائق الحياة الاجماعية . والأمل ضميف في تقدم هدف معقول للسلوك إذا تركنا الأسئلة الجوهرية ، المتعلقة بمصدر جزء كبير من لا معقولية الإنسان ، دون إجابة . وعلى المكس ، إذا ما عرف هذا المصلح الاجماعي المبروات اللاشعورية للسلوك الإنسانى ، فإنه يكون مسلحاً تسليحاً أفضل في نضائه لترجيه هذه القوى الملاهورية ترجيها مرضوعياً ومعقولا .

## ٨ ـ المادية الديالكتيكية

يتتمى فرويد وماركس إلى تلك الطبقة من كبار المفكرين الدين تجبرة نظرياتهم على إحادة النظر لا فى المشاكل التي تثار فى مجالم فحسب وإنما أيضاً فى جميع المشاكل التي يثيرها الرجود الإنساقى . كل مهما كان يعد الفلسفة أساساً وبحث من تصور الكون ٤ . ولكن إذا كان فرويد يرى أن التحليل النفسي لا يكون إلا مساهمة فى و التصور العلمى للكون ٤ ، فإن الماركسية كانت تهدف لا يكون إلا مساهمة فى و التصور العلمى للكون ٤ ، فإن الماركسية كانت تهدف إلى تكوين نظرية تضم فى آن واحد الكون ومكان الإنسان فيه ، والوصول إلى هله المدف سعت النظرية الماركسية إلى الارتكاز على التجربة الإنسانية والاكتشافات العلمية .

بلر الماركسيون الشك حول صلاحية المساهمة الفرويدية ، التي كان يصعب إدخالها في إطار فكريهم عن الكون التي شادها مفكروهم ابتداء من العلوم الفيزيائية والدراسات اليولوجية ، والاجهاعية ، والسياسية . ومع ذلك ، كما آمل أن أوضح في هذا القصل ، فإن جزءاً كبيراً من النظرية الفرويدية يتدمج بصورة موفقة في الفكرة الماركسية عن الكون . ويثرى جزء آخر لايقل عنه أهمية النظرية الماركسية ويصمح بعض أوجهها الشرسة أو الحشنة . سابداً بلمحة عن المعطيات الأساسية للفلسفة الماركسية ، فلسفة المادية الديالكتيكية . ثم أحاول إيضاح المعلقة . بين النظرية القرويدية وهذه الفلسفة .

يجب بادئ ذي بدء الإشارة إلى أن اصطلاح و المادية ، يستخدم هنا بمهي غتلف تماماً عن المعني الدارج الذي يؤخد فيه كرادف للمصلحة الشخصية واحتمار الثقاقة والفظاظة والحشونة . . . إلخ . فالمعني الماركسي للمادية يعبر عن فكرة أن العالم الخارجي له وجود مستقل لايعتمد علينا أو على أي شرط آخر . في الواقع ، أساس الفلسفة المادية هو التأكيد السيط المعتاد أن العالم الخارجي موجود . إن الأشجار والجبال واليوت والبلدان الأخرى توجد باحتيارها كذلك .

ومن ناحية أخرى ، فإن اصطلاح المثالية ، كما يستخدمه الماركسيون ، لا دخوا

له بأى مثل أعلى ، ولذا يكون من الأسلم استخدام اصطلاح فكرى ideisme بأى مثل أعلى بالاتجاهات الفلسفية مثيراً الشك حول الوجود المستقل العالم الخارجي . وتطلق الماركسية اصطلاح المثالية على كل من فكرة « كانت » الى ترى أن صفات الفراخ والزمن الى تبدو منتمية للعالم بصورة خاصة ، ليست سوى إصفاطات لفكرنا نحن ، وفكرة « بركلي » الأكثر تأصيلا واتي مؤداها أن الموضوعات المادية لا توجد إلا باعتبارها إحساسات للفكر الإنساني أو الإلهي . كل الأفكار الفلسفيه الى تبعد عن هذا التأصيل المطلق للوجود المستقل للعالم الحارجي وتنكر اللهابعة التابعة غير المستقلة للحياة النفسية ، يكيفها الماركسيون بالمثالية .

يعد الماركسيون المثالية وجهة نظر خطارة اجتماعيًّا . وهم يتفقون على أنه إذا ابتمادنا عن الفكرة الواقعية وعن استقلال العالم الخارجي ، فإننا ننساق إلى معاجلة المشاكل التي يضمها هذا العالم كما لو لم تكن حقيقية ، لأن الصراع ضد عالم خارجي لا يعلو أن يكون ، إلى حد ما إسقاطاً لفكرة ، يعني الصراع ضد شبع . ومن هنا تأتى الحجة إن المثالية تشجع الاتجاه إلى الابتعاد عن المشاكل الاجتماعية العاجلة التي تعلل وجود مستقل لعالم يشحد الرحث العلمي . فالطبيعة حافز ، لا لشيء إلا لأشها توجد مستقل لعالم يشحد الرحث العلمي . فالطبيعة حافز ، لا لشيء إلا لأشها كليك مع ما تعلمنا إياه الجوارجيا ، وأنقلك ، والعلوم الأخرى التي تقول لنا إن الكون ، وجد قبل ملايين السنين من ظهور الحياة . ولم يظهر الفسمير إلا متأخراً ، عندما بلغت المادة الحية درجة عالية من التعقد .

فالحجة المادية تدعو إلى الاعباد على التجربة اليومية والمعارف العلمية إلى أبعد حد. ومن جهة نظر معرفة الكائن ذاته ترتكز الماركسية تماماً على العلم وعلى الحصافة والرشد.

ما هذا إلا تقديم للفلسفة الماركسية . وهى تسمى المادية الحدلية لأمها تنادى بأن الكون يقدم بعض الملامح الديناميكية للتغير والتطور وهى ملامح تتلخص في قوانين ديالكتيكية للتطور . ويتبى ماركس للتعيير عن آرائه لغة هيجل تكريماً ذله . فقد كتب يقول و منذ حوالي ثلاثين عاماً في عصر كانت لا تزال فيه بدعة ، انتقدت الجانب السحرى من ديالكتيك هيجل . وكنت على وجه التحديد أخمل في الجزء الأول من « وأس المال » عندما كانت الأكاديمية الحزينة المتصنعة الضميفة التي يعلو صوبها » في هذه الأيام في الأوساط المثقفة بالمانيا ، تنظر إلى هيجل باعتباره « كلباً ميتاً » . عندائد تقدمت باعتبارى » دون مواراة ، تلميذ ذلك المفكر الكبير وقد داعبت ، في الفصل المخصص للقيمة ، الألفاظ التي كان يستعملها والتي تعد خاصة به » . لطالما وجه النقد لماركس لأنه استخدم لفة هيجل لأن القوانين المساة بالديالكتيكية تحمل في طياجا غموضاً كان ماركس يدعو إلى القضاء عليه عند هيجل . ولكن مع أن هذه اللغة قد تبدو غرية بعض الشيء . سرى أن استعمال ماركس لها ينطبق على مجموعة معينة من العمليات عظيمة الأهمية في العالم الخارجي وفي الفكر الإنساني .

فلنعرض أولا أسس الفكر الديالكتيكي .

عرفت النظرية الديالكتيكية عن الحقيقة أول انطلاقها لها في موجة القرن الناسع عرفت النظرية الدي كانت تشق فيه فكرة أن العالم ما هو إلا نتيجة لتطور طويل طريقها . فثار الشك عندئال في كفاية المنطق اليوناني القديم الذي ينبني على معطيات جامدة وفير متحركة باعتبار هذا المنطق عاجزاً عن تفسير نغمة تغير الكون . شيد أرسطو ثلاثة قوانين تكون إطاراً للتفكير في كل شيء ، وهي قوانين المترض لأى انتقاد حتى بداية القرن التاسم عشر .

القانون الأول قانون وحدة موضوع البحث . وكان هذا القانون يغرق بين موضوع البحث وبين يقية العالم ، ١٥، هو ١٥، يملك خصائص ذاتية تميزه وتحصصه . ومن هنا سمه قانون القائل أو الوحدة . "Toi d'identite"

والقانون الثانى فانون الثناقض La loi de contradiction وهو يقول إن وا ) هو ١١ وليس أى شيء آخر . وإن ١١ كيس ( ب ٤ .

والقانون الثالث قانون استيماد المراحل الوسطى La loi de L'exclusion لم المراحل الوسطى du moyen terme وهو يكمل القانون الثانى مقرراً أنه بين و ا ، و ب ؛ لا توجد مراحل وسطى .

وهكذا كان التناقض مستبعداً ، وكانت موضوعات العالم تعالج بأعتبارها

منفصلة بطريقة جامدة كما لوكانت كل منها محلوقة من قالب معين .

ومع هذا فأمام تطور المارف الذي أوضع أن أشد أشكال الرجود تعقيداً تنتمى إلى أشكال أدنى وأبسط ، وأن ما كان يعد نتيجة خطق مقدس لم يكن في الواقع إلا نقطة وصول تطور طويل ، تولدت الحاجة إلى منطق يستطيع التعبير عن هذه الرقائع .

شيد هيجل في القرن التاسع عشر منطقاً يتلامم بصورة أفضل مع الاكتشاف الوليد لقوانين التطور .

وقد أطلق اسم ديالكتيك ، أخذاً عن الاصطلاح اليونانى ، على مسجه المنطقى ، وكان يريد بللك أن يعيد إلى الأذهان فن الجدل ولناقشة الذي كان يعيد بل الأذهان فن الجدل ولناقشة الذي كان يعيد ن من طريق نقض النظريات والعمراع بين الأفكار ، إلى تشييد تأصيل أو جُمَّاع "Synthése" للأفكار المتناقضة ثما كان يسمع بفحص الحقيقة عن تعبد . وكان هيمل يوى في صراع العناصر المتناقضة السبب الحقيق لكل تغير تطويى ، وكان ينادى بفكرة أن كل شيء هو في طريقه ليصبح شيئاً آخر ، وهو دائماً في حالة تغير ، وهو ما يجمل قوانين أرسطو عاجزة عن تعريفه وفهمه . حقًا أن داء هو داء ، ولكنه يسمى لكي يصبح شيئاً مختلفاً عن داء ، وهو لا يختلف عن بقية العالم اختلافاً جرهريًا ولكنه ينتمى إليه ويرتبط به بصورة وهو لا يختلف عن بقية العالم اختلافاً جرهريًا ولكنه ينتمى إليه ويرتبط به بصورة رقية . وعن طريق هذا التطور لأوجه التناقض يتطور نحو أشكال وجود جليلة .

وقد كيف الموضوعات التى ينمو فيها التناقض بأنها و إيجابية ، ، وسمى التناقض و بالننى ، وأطلق على التأصيل الجماع الجديد النابع من ضبط التناقض اسم و ننى الننى . أو نقيض النقيض » .

وقد أعيد تصوير هذه العملية على النحو الآتى : د قضية théu ، نقيض القضية antithese أو جماع synthése هو نقطة نهاية العملية لبدء مرحلة جديدة من مراحل النمو .

ومع ذلك فقد كان هيجل روحانيًّا (بالمغى الماركسي<sup>[</sup>لكلمة) . وكان يتصور مجموع حمليات التطور كما لو كانت كشفاً لفكرة ، لمقل مطلق ، يوجد منذ الأزّل وإنى الأبد . كان هيجل يعد العالم المادى من خلق هذا الفكر ، وما تطور العالم إلى تصوير العراحل التي يتكشف بها هذا الفكر .

وتكونت من تلاميد هيجل جماعة أسمت نفسها شباب هيجو Jeunes Hégeliens يعارضون الاستعمال المتحفظ لفلسفة هيجل . وقد استخدم عامو الحكومة البروسية في تلك الحقية هذا التأكيد و الهيجلي ء وإن ما هو واقعي معقول علتبرير وجود هذه الحكومة ، فهي واقعية إذن فهي معقولة وهي أحسن حكومة عكنة في ذلك المصر .

وكما أوضح هيجل فى كتابه عن فويرباخ Peucrosach كان هذا تشويهاً لفكر هيجل لأن الواقعي بالمعيى الذي يقصده هيجل ليس الوجود الواقعي الشيء الذي يجمله حقيقة أو واقماً ولكن ضرورته . إذا ما انقضت هذه الضرورة فإنه يصبح في الوقت نفسه غير واقعي .

استخدم ما ركس ديالكتيك هيجل لفهم العالم الواقعى ، العالم الموجود استقلالا عن الفكر . فاستعماله الديالكتيكية عتلف عاماً عن استخدام هيجل له : 
« بالنسبة لهيجل ، عملية أو سير التفكير ( اللدى يذهب إلى تحويله إلى فكرة ، 
باعتبارها موضوعاً مستقلاً )، هو تمويه الحقيقة ، إذ ما هذه إلا المظهر الحارجي لها 
أما عندى ، فعلى العكس ، ما هو فكرة ليس سوى مادة ، مرجمة ومنقولة في 
رأس الإنسان . . عنده الديالكتيك معكوس . يجب قلبه لا كتشاف النواة العقلية 
المنظوية على حيرة ه(١) .

لم يفصل ماركس نظراته الديالكتيكية تفصيلا كاملا في أي من كتاباته . فحسب تعبيره لم يعدُدُ أن داعب ، في مؤلفه الأسامي (رأس المال) ، تعبيرات هيجل . وقد تولى زميله إنجلز ثم يعض الماركسيين من بعده شرح الديالكتيك الماركسي . ويعتمد الموجز التالى بصفة أساسية على هذه الأعمال .

تركز المادية الجدلية أولا على العليمة المتغيرة للواقع . ويقول إنجلز بها الصدد: 
و كل العليمة ابتداء من أصغر شيء إلى أكبر شيء . . . من حبة الرمل إلى الشمس . . . يتطور بهدف أن يكون وأن يكف عن أن يكون ، أن يوجد وأن يكف عن أن يكون ، أن يوجد وأن تغير مستمر ع . و ويؤكد إنجلز كلك الرابط بين كل الأشباء : لا يوجد شيء تغير مستمر ع . و ويؤكد إنجلز كلك الرابط بين كل الأشباء : لا يوجد شيء يكن فهمه منفصلا . يجب أن يدوس كل شيء في علاقته بالأشباء الأخرى . حقاً أن هناك بعض الروابط أو علاقات أكثر أهمية من علاقات أخرى ومهمة المهم هي التبيز ، في مجال الدراسة الحاصة ، بين الملاقات الهامة وغير الهامة . وهكذا فإن رؤية الأشباء من وجهها المنفير بالنسبة للأشباء الأخرى هو أول مبدأ من مبادئ التغير الديالكتيكي . إن العلم الحاص يدرس التغيرات الحاصة الى تقرل عن المادية الديالكتيكية إنها دراسة العليمة المعامة لتغيرات التي تولز على جالات البحث العلمي . ومن هذه الحاصية المنامة للواقع يمكن استخلاص ثلاث تيارات أساسية تصفها المالية المناسكيكية بأنها القوانين الكونية للتغير .

احتفظ ماركس ومن بعده الماركسيون بمسطلحات هيجل لتعريف هده القوانين . ولكن يجب أن تتجنب أن تقودنا هده المصطلحات إلى تضيرات خاطئة . ذلك أن هده القوانين كما سيوضع العرض التالى ، ماهى إلا تعميمات للخصائص الذائية التغيرات المحوظة فى البحث العلمى والحياة اليومية على السواء فيعد نزع ردائها الهيجل ، يمكن اعتبارها مرجزاً معقولا لطبيعة التغيرات التي تعطراً فى العالم ولاتجاهها ولتتأتيها . هذه القوانين هى أولا قانون تحول الكميات المحكميات ، ثانياً قانون وحدة المتناقضات . وثالثاً قانون ني الذي ( نقيض النقيض ) وسأتعرض لشرحها بإيجاز على أنه يجب ألا يغيب عن بالنا أن هذه القوانين مرتبط بعض ارتباطاً وثيقاً ولا يمكن دراسها منفصلة بعضها عن بعض إلا بهدف شرحها .

يتعلق قانون تغير الكم إلى الكيف بتعدد واختلاف التغيرات التي تحدث في الكون . وهو يميز بين نوعين من التغيرات ، التغيرات الكمية والتغيرات الكيفية . التغير الكمى يحدث إذا أضفنا مثلا رملا على كية من الرمل . فيظل الرمل رملا بصفاته الحاصة ، فقط كر حجمه . لا حاجة بنا إلى استخدام اصطلاح وصلى جديد لتكييفه . وعلى المكس فإن بعض التغيرات تظهر صفات جديدة وتجعل من الفرورى استخدام اصطلاحات جديدة لوصفها ، إذ أنها نفسيف شيئا إلى الموضوع المتغير شيئاً لا يمكن تعريفه بالأرقام , وعند هذه النقطة يتعين استخلاص علاقة هامة بين التغيرات الكيفية والتغيرات الكمية السابقة علمها . ويبدو أن التغيرات الكيفية تظهر على أثر ميكانيكية في التغير الكمى كما لو كان التغير الكمى يتحول إلى تغير كيفي . يبدو أن ثمة تراكم ستمراً التغيرات الكمية

والمثال الذى يضرب عادة لإيضاح هذه العملية الكمية سلامكيفية ، وبرغم ذلك لم يفقد قوته ، هو مثال تجمد الماء . عندما يضع الماء لتغير كمى في الحرارة يتحول إلى ثلج وهو لا يتجمد شيئاً فشيئاً حتى يصل إلى لحظة يبلغ فيها صلابة الثلج ، ولكن حالته تنغير فيجاة عندما تبلغ درجة الحرارة مرحلة دقيقة في السير العادى النسو . يلاحظ كذلك تغيرات كيفية تطرأ على أثر تغيرات كية . فشجرة البلوط ليست عبرد ثمرة عملاقة . فانحو أضيي عليها صفات جديدة . وفعس الشيء يحدث للكائن البشرى . تبدأ حياته بانحاد خليتين تتطوران كياً وكيفياً . الواقعة المامة المتعلقة بالكيفيات الى تظهر أو تبرز على أثر تغيرات كية سابقة ، هو أن هذه الكيفيات لا يمكن أن تقتصر على هذه التغيرات (الكمية) أو تفصيح عن نفسها بواسطتها (بواسطة التغيرات الكمية ) . يظهر فيء جديد، فيء لا يمكن أن جهدينا إليه دراسة التغيرات الكمية . وهو أمر يمكن ملاحظته في كل مجالات البحث العلمي .

إن معنى قانون الكم والكيف ليس صعب الإدراك. هو نظرة عامة تنطبق على طبيعة العلاقة بين نوعين من التغيرات كما يمكن مراقبها في مجالات الحياة الواقعية . هذه النظرة لا تتطلب بالضرورة أن كل التغيرات الكيفية تولد تغيرات كيفية بعد فترة يمكن قياسها فني بعض الحالات يبدو أن تغيرات كية يجب أن تحدث إلى مالا نهاية . ويصدق هذا على التغيرات التي نتجت خلال نمو النظام الشمسى . لذا لا يمكن أن نؤكد أن كل التغيرات الكمية تولد حيا تغيرات كيفية . يمكننا فقط أن نعد العلاقة و الكمية - الكيفية أساساً للتعميم . وأن التغيرات الكمية تسير على نحو يؤدى إلى إحداث تغيرات كيفية . وأن هذه التغيرات الكيفية لا يمكن ردها جميعاً إلى تغيرات كمية بحتة . هذا القانون بعرف أحياناً تحت اسم نظرية التغيرات الطارثة ، وقلما نجد اليوم مفكرين ينكرون وجود مثل هذا التغير كثيراً ما حاول البعض تفسير الكيفية الجديدة اعباداً على دراسة التغيرات الكمية ولكن هذه المحاولات باءت جميعها بالفشل . وعلى سبيل المثال فى علم النفس تمنى البعض أن تؤدى دراسته العملية الفسيولوجية الكامنة إلى فهم العمليات النفسية بطريقة كاملة ، ولكن أكثر هذه المحاولات طموحاً كان مصيرها الفشل . حتى إن كلارك . س . هيل و ا. س تولان وهما مفكران سلوكيان أمريكيان بارزان اعترفا بأن المسافة بين الوصف التشريحي والفسيولوجي للجهاز العصبي كما نعرفه اليوم وبين ما هو ضرورى للتوصل إلى بناء نظرى متكامل ، هذه المسافة بعيدة حتى إن تحطها يبدو أمراً غاية في الصعوبة . فالسلوك ، باعتباره كذلك ، ظاهرة بارزة لها خصائص محددة تميزها عن غيرها ي .

ومل ذلك فإن قانون تحول الكميات إلى كيفيات مقبول في الأوساط غير الماركسية باعتباره تعميماً لشيء متفق عليه ويمكن تكييفه بأنه تعميم جدير بالاحترام لا يثير أى جدال أكدته الأبحاث العلمية في مجالات متعددة . وأما قانون وحدة المتنافضات المتصل بقانون التحول فيحال تفسير ديناميكية التحولات من كيات إلى كيفيات بمساعدة فكرة هيجل عن البناء والصراع ، وكلما بمساعدة تداخل المتنافضات في سير التغير . وهذا القانون مؤداه أن كل الأشياء التي يمكن ملاحظها وحدات غير ثابتة للموامل المتنافضة ، خاضعة لمعلمات تركيب إيجابية وسلية . بعض هذه الموامل تتجه إلى الاحتفاظ بالمؤضوع تحت شكله الحالى في حين أن البعض الآخر يدفع الموضوع ليتحول إلى شيء جديد . من هذه هذه

الأشكال المتصارعة تولد حرّكة داخلية تبدأ بتغير كمى ، مرتفعة إلى أن تصل إلى تغير كيني . هذا القانون ذو علاقة وثيفه بفكرة أن الأشياء هي أساساً عمليات وأنها تولد وتتحول إلى أشكال وجود جديدة .

وتماماً مثل قاون تحول الكم إلى كيف ينطوى قانون وخدة المتناقضات على حصافة وتوجد أمثلة علمية لا حصر لها تبرهن على صحته . وهكذا فإن تركيب العالم الفيزيائى في أى شكل من أشكاله يقدم لنا توازناً متحركاً لقوى متضادة ، حى عندما يتعلق الأمر بالتوافق بين الجزئيات الكهربية . وهتمد العمليات الحيوية الدجيم على عمليات متضادة ، عمليات البناء وعمليات الاحراق . إن أبسط حركة من حركات الجسم تستوجب تضاد العضلات اللينة والعضلات المشادة .

إن ما يضني على المادية الديالكتيكية أهميُّها الحاصة هو تأكيدها للدور اللَّـى بلعبه التضاد في التغير التطوري أو التناقض على حد تعيير الماركسية . فالمادية التاريخية ترى وحدة المتناقضات كأنها شيء أكثر من تعارض عوامل متضادة ، إذ ترى فيه تضادًا تنبع منه الحركة والتغير . وتنظر المادية التاريخية إلى الحركة الداخلية للميكانيكيات الداخلية الى تنتج عن التناقضات وتضرب على ذلك مثال عملية التطور التي تصل إلى ظهور الحياة على الأرض. فني عصر معين لم يكن النظام الشمسي سوى كتلة من الغاز المشتعل ولكن في أحد أجزائه تحت التأثير المتناقض للتبريد والتكثيف نشأت الظروف الملائمة لظهور الأجسام الحية . ومع ذلك فإن قانون وحدة المتناقضات يبدو بصورة جلية واضحة عندما يتعلق الأمر بالتطور الاجباعي ، إذ يرى الماركسيون أن التاريخ ما هو إلا حركة مطردة ناتجة عن الصراع بين القوى المنتجة وشروط الإنتاج ، وهو عملية وصفها إنجلز على النحو التالى : وكل الشعوب المتمدينة تبدأ بالملكية الجماعية للأرض . لدى كل الشعوب التي تتخطى مرحلة بدائية معينة تغدو هذه الملكية المشتركة ــ خلال تطور الزراعة ــ عقبة في وجه الإنتاج . وتمحى هذه الملكية أو تلغي أو تتحول إلى ملكيات خاصة مارة بمراحل وسطى تتفاوت في طولها ولكن في مرحلة أعلى من مراحل النمو الزراعي التي تم الوصول إليها بفضل الملكية الخاصة تغدو الملكية الخاصة بدورها عائقاً أمام الإنتاج ... كما هو الحال في مجتمعنا هذا بالنسبة الملكية المقاربة الصحاء الصخيرة والكبيرة على حد سواء إذ تظهر ندادات متخلة طابعاً ضروريًا ملحًا مطالبة بإنكار الملكية أو بتحويلها إلى ملكية مشتركة ولكن هذا النداء لا يعنى بعث الملكية الحماعية البدائية القديمة ، وإنما إقامة شكل جديد أكثر رقيبًا وأكثر نموًا ولا تغدو عقبة في وجه الإنتاج ، وإنما على المكس تحريها من كل المقبات وتسمح باستخدام الاكتشافات الكيميائية والاختراعات الميكانيكية الحليقة يالا

بعبارات أخرى ، المرحلة الأولى للملكمة المشتركة (الحماعية) تنقضها الملكية الخاصة أى تتحول الملكية الحاصة تصبح الحاصة أى تتحول الملكية الحماعية إلى ضدها . ولكن الملكية الحماعية بمنى أنها تعود لهن الملكية الحماعية بمنى أنها تعود إلى أصلها ، ولكن على مستوى أكثر ارتفاعاً . وهكذا فالملكية الحاصة ، نقيض ، تحمل في طياتها نقيضها .

وتوضيح هذه العملية القانون الثالث من القوانين الديالكتيكية نقيض النقيض . هذه الصيفة لا تعنى بحو حالة معينة محواً تاماً وإنما تحقيق مرحلة أعلى من مراحل التطور بواسطة الصراع والوصول إلى تأصيل أو جماع جديد ، تتولد منه تناقضات جديدة تكون بدورها منهاً لتطور جديد . وقد أوضيح يونيج Young نوع هذه العملية ، كا تبدو في التطور البيولوجي إذ أن « كل الأنواع تظل في حالة توازن مع الوسط الذي يحيط بها بتوالى فعرات تتطور فيها وتموت وفترات تحل فيها محلها المعالم غير أشكال جديدة لتنظيمها . وبهذه الوسيلة تحتفظ الحياة باتصالها مع العالم غير

هذا إذن هو معنى القوانين الديالكتيكية للتطور ، وإذا ما أردنا التعبير عن التفكير الديالكتيكي دون استخدام اصطلاحات هيجل فإننا نقول إنه : ٥ يرجد عالم خارجي ، وهذا العالم آخذ في التطور تطوراً مستمرًّا أحياناً دون صدام وأحياناً يكون سريعاً ، وتظهر التغيرات الكمية خصائص جذيدة ، ويصحب نمو الأجهزة

(Y)

Anti — Duhring p. 168 — 169.

J.Z. Young, Doubt and Certainty in Science, p. 161.

والمجتمعات شد داخل لتنبئق فى اللهابة حالة نوازن جديدة . هذه التعميمات تثبت صحتها فى نطاق واسع وفى مجالات علمية متعددة ، إن ثم يكن فى جميع هذه المجالات، وإن استخدامها بطريقة معقولة تجعلها تكون تشكيلا أساسيًّا رائماً لحوض البحث العلمى إذ يرى الباحث نفسه وقد أخيا حطره ضد عاولة عزل أبحاثه عن الابحاث التى تمت فى عبالات أخرى ، فعندما يدرس ميكانيكية متطورة لا ينسى وجود عوامل متناقضة وينتظر ظهور خصائص جديدة هذا الوجه من أجه الماكسية يتلام تماماً مع خاصية التفكير العلمى .

ولنبحث الآن بأي طريقة يتوافق التحليل الناسي مع الفكر الديالكتيكي .

التحليل النفسي يصف لنا أولا الحياة العقلية باعتبارها أثراً يجمع القوي الملحة والقوي المكونة ، وليرى الحياة النفسية وحدة للقوى المكاونة ، والصراع باعتباره عاملاً ديناميكيًّا مركزيًّا . ويرى الحياة النفسية تداخلها إلى توليد المراء والتنوع في القدى ويدية من تناحر شعورية وأعرى لا شعوريدية عن الملاقات بين الأنا الأدنى والأنا الأعلى والعالم الحارجي ترخر بالمتطلبات الديالكتيكية، فعلا تتحول ميول الأنا الأدنى إلى نفيضها ، وكذلك فإن الأنا نشيجة للصراع مع المواقع المعارجي . الأنا معقول في حين أن الأنا الأدنى يو معنى ، يستند على مبدأ الواقع في حين أن الإشباع في حين أن الأنا الأدنى يسمى الأنا الأدنى المحصول عليه يرتكز على مبدأ اللذة . وبعيارة أخرى يقدم الأنا الأدنى للصورة لتطور كي .

ومن ناحية أعرى يتمثل الآتا فى توافق بين مجموعتين من الغرائز المتناقضة ايروس (() (غريزة الحياة ) الناتوس (غريزة الهدم أو غريزة الموت ) (ا) . يلمب أنصارها دوراً فى كل الأشطة الغريزية . تبحث غريزة الموت ، كما يقول فرويد ، بكل قواها لإعادة حالة الجمود (حالة اللاحركة) ، على حين تميل غريزة الحياة إلى بناء وحماية الجهاز بكل قواها . فالحياة عملية تجر صراعاً بين الميكانيكيات الهنامة والمكانيكيات الهنامة والمكانيكيات الهدامة ، عبر علما إنجلز بالطريقة التالية

<sup>(</sup>١) أيروس إله الحب عند الإغريق.

«كل كائن عضرى ، فى كل لحظة ، هو نفسه وهو ليس لنفسه ، فى كل لحظة يجمع مواد غريبة وبيعد مواد أخرى ، فى كل لحظة تذبل بعض الحلايا الجسم بتكين خلايا أخرى ١٤٠٥ .

هذا العرض الفسيولوجي البحث عن ميلاد وموت الحلايا بمكن أن يفسر تفسيراً مقبولاً باعتباره الأساس الذي انطلقت منه الفكرة المعقدة عن غرائز الحياة والموت.

وهناك مبدأ فروبدى هام يبدو فيه الدبالكتيك واضحاً تمام الوضوح وهو الكبت. هذه الميكانيكية الفكرية تتكون على أثر صراع الواقع مع إلحاحات الأنا الأدنى. فني الفكر الفروبدى يعرق الكبت الميول اللاشعورية حتى لا تتحول إلى أشكال من السلوك الشعوري يقبلها المجتمع. فالنقل ecpiacement ، والساى ، أشكرينات العكسية ، التي درسناها في الفصل الرابع هي تحولات كيفية لمول الأنا الأدنى تتج عندما يصل الكبت إلى نقطة تركيز حاسمة. وقد وصف فرويد لا خظم ... أنتى ... قد أدخلت في تسلسل اقتصاص الأسباب عاملا جديداً هو الكم ، أي مقدار الطاقات على الاعتبار. وهنا عامل يجب أن تحسب حسابه . فالتحليل الكبيق البحت لشروط اقتصاص الأسباب ليس مبالغاً فيه . . . يجب أن نقول إن السراع بين الميول لا يفجر إلا ابتداء من لحظة تصل فيها الكثافة إلى مستوى معين . . ولا يقل أهمية عن ذلك العامل الكمي من وجهة نظر مقاومة الإصابات العصابية . كل شيء يعتمد على كمية اللبيدو غير المستخدمة التي يكنها الشبيدو الى ممكن الطبيدو الى ممكن المستخدمة التي يمكن الشخص في حالة معلقة والكسر أو التجزئة التي تصيب هذا اللببيدو التي ممكن عويلها عن الطريق الجنسي لتتجه نحو التسامي هاك .

فإذًا ما يممنا شطر النظرية الفرويدية عن الأحلام بدا لنا طابعها الديالكتيكي بنفس الوضوح .

فني الأحلام ، تبعاً لفرويد ، تجد الرغبات المكبوتة وسيلة لنتعبير عن نفسها

(Y)

i — Duhring, p. 54

Introduction & la psychanalyse, p. 882 — 853

وهو ما تنكره علما حياة اليقظة . وبهذا المعنى يكون الحلم هو النقيض أو الوجه الآخر الهيجلي لحياة اليقظة في هذه الأخيرة يكون التفكير عاميًّا ، وتتشكل الأفكار بواسطة التجريد المستمى من الواقع الواضح ، الذي يفهم بطريقة مجردة ، في حين أنه في الحلم تأخذ الأفكار المجردة شكلا واقعيًّا واضحاً . إن الانجاه للتعبير عن الحركة فى شكل استاتيكي يقودنا إلى وصف أى تجربة بتصور خصائصها العامة فى قالب مجرد . أما الحلم فعلى العكس يعطى لمضمونه شكلا تمثيليًّا بصريًّا . ف حالة اليقظة ، تواجه الأشياء مستقلة ومتميزة بعضها عن بعض، أما الحلم فيعكس ، بطريقة أكثر التصاقآ بحيث تصل إنى حد الغرابة ، علاقات الموضوعات بعضها ببعض ، لأنه خفيف الحركة يستطيع استعمال شيء ليحل محل شيء آخر ربما يبدو في حالة اليقظة منقطع الصلة به . ويستطيع التوفيق في عنصر واحد بين عدة عناضر شديدة التناقض . وقد كتب فرويد بهذا الصدد يقول : و إن أحد التأكيدات المثيرة للمجب هي تلك المتعلقة بالطريقة التي تتم بها صياغة المتضادات الموجودة داخل حلم كامن . . . فالمتناقضات تعالج بنفس الطريقة الى تعالج بها المتشابهات ويفضل التعبير عنها بواسطة نفس العنصر الظاهر . وهكذا فإن عنصراً من عناصر الحلم الظاهر الذي له نقيض يمكن أن يعني نفسه كما يمكن أن يعنى بتقيضه كما يمكن أن يعنيهما معا و(١).

وبما يثير العجب ، أن يبدو الحلم أقرب للطبيعة الديناميكية لاواقع من حياة اليقظة ، لأن الشعور يميل إلى تقديم صورة جامدة لما يحدث في العالم الحارجي . وقد اعترف إنجلز بهذه الواقعة وكتب يقول : 3 إن هذا الثبات وهذه القيمة المطلقة — للاختلافات الموجودة في الطبيعة — الى ننسبا إليهما لم تلخلا في الطبيعة إلا بواسطة تفكيراً ه (") . في الواقع هذا تفكير يبعث الفيق في نفسن الديالكتيكي . لأنه ينادى بأن ميكانيكية التفكير التي بواسطتها يعكس الشعور الواقع ، تشوه الطبيعة الديالكتيكية الواقع محروة غير ديالكتيكية .

والجواب الذي تعطيه الفرويدية على هذا السؤال سيكون في اعتقادي، توجيه

Introduction à la psychanalyse; p. 169.

Anti — Duhring, préface, p. 48.

الانتباء إلى أن الأنا ، في مواجهة إلحاحات الأنا الأدنى ، عيل إلى المبالغة في صراحة الواقع . ونستطيع أن نقول إنه كما أن صورة الأب في مواجهة الآنا تتجسد في شكل قاس وشديد في الآنا الأعلى ، يميل الواقع كذلك إلى الظهور للأنا بشكل ثابت ذي قيمة مطلقة ، مشدداً بذلك كبت الأنا الأدنى . ونستطيع في الواقع متابعة التفسير الفرويدى وربط هذه الرؤية المنظورة الديالكتيكية المواقع بالفتوحات التي أتمها الإنسان على وسطه الطبيعي . فالطبيعة لم تعد تبدو صعبة المراس إلى هذا الحد وبالتالى فإن التصوير الذي يقدمه الأنا يميل إلى أن يصبح المراس إلى هذا الحد وبالتالى فإن التصوير الذي يقدمه الأنا يميل إلى أن يصبح المراس الله عدداً .

من مشكلة الطبيعة والواقع الحارجي كما يراهما الفرويدون والماركسيون ، فصل الآن إلى مشكلة صلاحية معرفتنا للعالم الخارجي وبالاصطلاحات الفلسفية فخرك وجهة نظر علم الكائنات وحقيقها إلى وجهة نظر الإبستيمولوجي epistémologie أي نظرية المعرفة . ولكن يجب أولا أن نقول كلمة عن الحلاف الفلسفي فيا يتعلق يموفتنا بالعالم الحارجي ، إذا أردنا أن نقيم الأفكار الفرويدية والماركسية تقييماً عسلما .

مند أفلاطون بدر الفلاسفة الشك حول صلاحية المطومات التي تنلقاها عن العالم الخارجي بأنه العالم الخارجي بأنه العالم الخارجي بأنه يمكن إدراكه إذا ما أمكن تصوره خلال الحواس وكان بحارب إمكان معرفته مستنداً إلى حجين : أولا \_ ليس في إمكاننا الحصول على معرفة معددة للعالم المبكن الإدراك لأنه لا يمتلك صفات عددة نستطيع معرفها . كل ما يمكننا معرفته هو معتقدات وآراء متناقضة تبماً لوجهة نظر الملاحظ . فمثلا عندما أعلن بعد أن تتجمد يدى في بيت الثلج ثم أضعها في حوض من الماء اللماؤ، أن الماء بورد ، فهل يجب أن نستنج من ذلك أن الماء في آن واحد ساخن وبارد ؟ وبنفس الطريقة أصف أرنياً بأنه كبير عندما أقارته بذبابة . فهل يمكن أن يكور الأرنب في آن واحد كبيراً وصغيراً ؟

كان جواب أفلاطون هو أن الشيء لا يمكن أن يمتلك صفات متناقضة فاذا كان كبيراً فمن المسلم به أنه لا يمكن أن يكون صفيراً . ونتيجة لذلك لا يمكننا أن نقول إن الصفات المتناقضة تنتمى إلى شيء واحد ، ولكن بالأحرى أن الشيء يتذبذب بيها ، فيهدو متصفاً بصفة أو بأخرى تبماً لرجهة نظر المراقب وكان ينادى بأن حلما صحيح بالنسة لكل موضوعات العالم الممكن الإدراك . فصفات الأشياء نسبية تختلف من شخص الآخر ، ولا تعدر أن تكون تعبيراً عن رائه ومعتقداته ، وليست صفات عددة لصيقة بالشيء .

ويتابع أفلاطون حجته مقرراً أنه إذا كان الشيء ليست له صفات محددة ، لا نستطيع أن نقول إن له وجوداً واقعياً . لأن الشيء الواقعي في نظره يجب بالمضرورة أن يكون من الممكن معرفته . ومن هنا فإن فكرة عالم الأشياء الممكنة ، الأشياء التي نراها حولنا ، ولا يمكن أن تكون واقعية تماماً ، فهي على أحسن الفروض تكون ذات طابع نصف واقعي .

وفضلا عن ذلك كان أفلاطون يقول إنه لا يوجد شيء في العالم الممكن الإدراك ثابت بالدرجة الكافية ليكون موضوع معوقة محددة ، لأنه ما من شيء يظل مشاجًا لنفسه من لحظة إلى أخرى . فالعالم الممكن الإدراك بسبيل التعطور أبداً ، من المبلاد إلى الممات . كيف يمكننا معرقة شيء إذا كان هذا الشيء يتغير وتعلراً عليه تعنيلات خلال دراستنا له ؟ وبعبارة أخرى ، كان أفلاطون يرى الموقع حقيقة متغيرة أبداً . كان العالم الواقعي لديه عالم أهكار أبدية أزلية ، لك وجود خاص ، مستقل عن العقل ويقع فيا وراء العالم الميوي الذي يدرك بواسطة الحواس . لم يكن أفلاطون يعطى المكلمة فكرة المهي الذي تعطيه لها في أيامنا هذه . المواسبة له كانت الأفكار عبارة عن أشكال وقوالب لا تعلو أشياء العالم الينهي بالنسبة له كانت الأفكار عبارة عن أشكاى وقوالب لا تعلو أشياء العالم الينهي ال تكون نسخة رائعة لها . وبوسيلة أو بأخرى ما زال رفض أفلاطون لواقعية العالم المدرك حسيًا ما زال يداعب حيال الفلسفة . كان وايتهيد يقولى وهو على حق . إن الفلسفة الغيربية منذ أفلاطون ليست سوى سلسلة من الشروح الإضافية على كتابات هذا الفيلسوف .

هذا التعبير عن رفض الواقع الذي كان موضع انتقاد عنيف من الملزكسيين واضح في نظريات كل من لوك بركلي وهيوم . أثرت كتابات هذا الآخير ( هيوم) بوجه خاص ولا تزال تؤثر حي الآن على جزء كبير من الفلسفة المعاصرة ، الذي يصنفه أحد الفلاسفة الحديثين بأنه ٥ أقدم معاصرينا ٤ . ويبدو من المفيد إعطاء فكرة عن آراء هؤلاء الفلاسفة لإيضاح علاقاتها بالماركسية ومواجهتها من زاوية النظرية الفرويدية .

كان جون لوك يحارب فكرة أن العقل يمتلك معرفة لا تأتى من أى مجربة ماية ، أى المعرفة المطبوعة بطابع مسبق أو بقبلية. عرفت فلسفته باسم I./Rempirieme الملهب الأميريقي أو التجربيق ، بسبب البركيز على الدور الذى تلميه التجربة في اكتساب المعرفة ، عالفة بذلك الفلاسفة الحقلين أتباع ديكارت وسبينوزا ولا ينيتز . إذ أطلق على هؤلاء أنهم عقليون لا بالمعنى الذى نعطه حاليًا لحده الكلمة ولكن لأنهم كانوا يعتقدون أن أمتلاك معرفة مسبقة كان يسمع للعقل بالتفكير بمفرده ليصل إلى الحقيقة . يمكن تلخيص وجهة نظر لوك في العبارة بالإحساس ، أى أن التجربة تسبق المهرفة والفهم.

كان لوك يعتقد أن الصفات التي يتمتع بها أي شيء نوعان : صفات تنتمى للشيء نفسه وصفات لا توجد إلا في عقل المراقب . وقد أطلق على الصفات الأولى أنها صفات أولية وعلى الثانية أنها صفات ثانوية .

والصفات الأولية عند لوك تتعلق بالطول والوضع والوزن والشكل: إنها صفات 
تتعلق بوضع الشيء في الفراغ . وكان لوك يصدها منتمية إلى الشيء باعتباره 
كالمك لأنها تظهر في كل الظروف . كل شيء له شكل ووضع وحجم في حين 
أن لوزه وحرارته ورائحته تتغير تبعاً لظروف خارجية . وهكذا في الفلام لا يكون 
للشيء لون ، وتعتمد رائحته وبداقه على عوامل معينة لذي الملاحظ ، فإذا كان 
هذا مصاباً بزكام شديد فإنه لن يشعر بأي من هاتين الصفتين كان لوك ينادئ 
إذن بأن هذه الصفات الأخيرة لا تنتسب إلى الشيء نفسه ، وإنما هي صفات 
ثانوية ترجد باعتبارها أفكاراً في عقل من يلاحظها ناتجة عن أثر الشيء على حواس 
الملاحظ و سنعها هو طر الشيء .

أكثر من هذا ، كان لوك يعتقد في وجود ٥ جوهر » لصيق بالصفات الأولية ومع اعتراف بأننا لا تملك أي تجربة متعلقة بهذا ٥ الجوهر ، فإنه كان يعدها مسلمة ضرورية تسمح بإقامة صلة بين الصفات المختلفة الشيء. وهذا الحوهر هو أساس هذا الشهرء

كانت هذه وجهة نظر لوك ، التي عارضها بركل بفلسفته إذ أن بركلي كان يعتقد أن الله المنفت الثانوية ترجد فقط باحتبارها أفكاراً في عقلنا (١) ولكنه كان ينادى بأن الممفات الثانوية ترجد فقط باحتبارها أفكاراً في عقلنا بين الصفات الأولية مناسبة للمصاحب المحيد علما المحيد المحيد على المحيد المحيد عامل المحيد المحيد عامل المحيد المحيد المحيد المحيد عامل المحيد ا

إذن لذى بركلى يكون مجموع الحقيقة الحارجية وليس فقط جزءاً. مها هوالذى يوجد في شكل فكرة في حقالنا . كان بركلي يقول: وإن الوجود هوأن يكون الشيء عسوساً به . . فالسهاء والأرض لا وجود لهما إلا من خلال عقل يشعر أو يدرك وجودهما » .

ماذا محدث إذن للأشياء عندما نكف من الإحساس بها ؟ هل تتوقف بدورها عن الوجود ؟ كان بركلي يرد على ذلك بأن كل الأشياء عسومة بواسطة الله . وكان يقول : إن أفكارنا تأتى من العقل الأبدى الإلهي. ونتيجة لللك فعندما يكف عن الإحساس بالأشباء تظل برغم ذلك موجودة نتيجة لمبدأ الإحساس الإلهي.

ولكن بركل بهده الأجابة كان يعرض نفسه لأن يهم بأنه غير منطقي مع نفسه وقد تولى الفيلسوف الإسكتلندى دافيد هيوم ترجيه هذا الا تهام إليه .

كان هيوم يقبل فكرة بركل القائلة بأن الحقيقة مكونة من إدراكات حسية ولكنه لاحظ أننا لا ممتلك أي خبرة حسية مباشرة بالله وإنه تبعاً لبركلي نفسه لا يحق لنا أن نعتقد في وجود شيء لا نحس به مباشرة بواسطة حواسنا. فلا يحق

<sup>(1)</sup> أو في حقل الله ، كا سنري .

لنا الادعاء بوجود الله . وهكذا فالحجة التي استخدمها بركلي ضد لوك لانقاد واقعة أننا لا تمثلك أي خبرة حسية مباشرة لإدراك و الجوهر » ترتد إليه . إن أذ بركلي استبدل و جوهر » لوك و بالله » .ووجهتا النظر هاتان تفوق معرفتنا المكتسبة بواسطة الحواس ، لذا فكلتاهما غير مدهمة .

لم يقتصر مميوم على انتقاد فكرة الإحساس الإلمي . فقد طبق فكره المنطقي على دراسة الإحساس الإنساني البسيط ، فكرة الآنا القادر على الشعور . ويستعين مرة أخرىبالتجربة المباشرة . لا يوجد في التجربة شيء يمكن أن يبرر فكرة الأنا لذا فعندما أتغلفل في أعماق ما أسميه ، أتا نفسى ، أصطدم دائماً بإحساس خاص ، بالحرارة أو البرودة أو الضوء أو الظلال أو الحب أو الكراهية أو الآلام أواللذة . في كل لحظة أراقب فيها نفسي أشعر يشيء ما . الإنسانية ما هي إلا مجموعة مشاعر محتلفة تتلاحق بسرعة لا يمكن تصورها وهي في حالة حركة دائمة . أسرع الماركسيون في استخلاص نتيجة هامة من هذه الانتقادات الى وجهها هيوم لبركلي . وهذه النتيجة لا يمكن أن يتجنبها فيلسوف مثالى ، مادامت الحقيقة الحارجية مرجودة فقط باعتبارها أفكاراً وإحساسات في عقلنا ، وما دامت الأفكار التي لا تستطيع أن تكسبنا معرفة مباشرة هي أفكارنا نحن فلابد أن تكون النتيجة هي أن الحقيقة الخارجية هي فكرتنا . أو بالأحرى فكرتى لأن كل شخص له أفكار منسوبة إليه . ونعت الملكية مستخدم فقط من باب الأدب لأنه ما من فيلسوف مثالى منطقي مع نفسه يمكنه أن يطالب بالاعتراف بوجوده اللماتي لأن معرفته بنفسه من المحتمل أن تكون مؤسسة على مشاعره الحسية . وتبعاً لنظريته لا يمكن اعتبار هذه المعرفة مرشداً لحقيقة أبعد من ذلك فإذا ما نادي بأنه يعرف حقيقته التي تتعدى مشاعره الدانية الحسية فإنه يتخلى عن جزء أساسي من النظرية المثالية . وهي أننا لا يمكننا أن تحصل على معرفة عن غير طريق المشاعر الحسية ، وبغيارة أخرى المثانى ليس فقط محصوراً لمساندة وضع معتزل يقوده إلى تأكيد أنه بوجد بمفرده ، وأن بقية العالم ما هو إلا أفكار نابعة من عقله . إنه لا يستطيع أن يعرف شيئاً إلا بالنظر إلى نفسه والتأكد من وجوده ذاته . ومع ذلك فهو عبر على افتراض وجوده هو باعتباره شاعراً بالأحاسيس حي يكون وضعه المعترل وأنه بذلك ليجعل من الوضع المثالي متناقضاً مع نفسه .

وتعد فلسفة و إيمانويل كانت ؛ محاولة لتنخطي صعوبة الاعتزال المثال .

وتصل هذه الفلسفة إلى ذلك بمناداتها بوجود عالم خارج الفكر الإنسانى عالم يصعب معرفة طبيعته الواقعية . وهكذا يشيد و كانت ٤ تمييزاً بين العالم كما يبدو لمشاعرنا الحسية عالماً طواهريًّا الحسية والعالم كما يدو المشاعرنا الحسية عالماً طواهريًّا أو mondo noumens ويسمى العالماللدى يتعندى مشاعرنا بالنويا هده المحلس من العالم الذي يجاوز يطبيعته نطاق التجربة والإدارك الحسى وبين هذين العالمين يوجد في رأيه "بعد" من العمعب تحطيه لأن عقولنا مركبة كيث تستطيع أن تفييف بعض صفات عامة إلى ما نشعر به ، وهكذا نشعر بيلاشياء في الأمان والمكان ونضى صفات عامة إلى ما نشعر به ، وهكذا نشعر بيلاشياء من مقتضاها خطم هذه الصفات على كل ما نشعر به .

كان وكانت ؛ يؤسس هذه الفكرة على مسلمة أن العقبل بملك معرفة مسبقة يخلطها مع المعرفة النابعة من تجربة الحواس . وكانت حجته للدفاع عن المعرفة المسبقة تقوم على النحو التالى .

ليس للأطفال معرفة مضبوطة بالمسافات ولا بالمزايات ، ولكنهم مع ذلك قادرون على تمييز الأشياء التي توجد خلفهم والأشياء التي توجد خلفهم والأشياء التي توجد لحل جوارهم . وهم يسعون إلى الوصول إلى الأشياء التي تعجبهم ويبتعدون عن الأشياء التي تعجبهم . وهذه المعرفة بالملاقات الفضائية عن أفكار الأمام والحلف والجوار الاتتطلب تجربة سابقة : الأطفال يمثلكونها وهما هو كل شيء وللما يسافد وكانت ، فكرة أن الفضاء فكرة قبلية، توجد قبل أي تجربة . إذا كان الطول يبدأ بهذه الفكرة أن الفضاء فإن مشاعره الحسية لن تكون إلا فوضي ولكن بواسطة هذه الفكرة الموجودة سلمة عن الفضاء يستطيع ترتيب التجارب وربطها بعضها ببعض . يمترج الفضاء بتجربته عن الأشياء على نحو يشعر به أن الأشياء موجودة في الفضاء . وكلك الأمر في يتعلق بفكرة الزمن . إذ يبدو الطفل عارفاً بعض ما هو قبل وما هو بعد والام رفياً بعد ، وهذه الموقة لا تعتمد على أي خورة بعمى ما هو قبل وما هو بعد والام أن المنا كان غرض لما نظاماً فضائياً .

وقد استمد و كانت، من الرياضيات حججه المقنعة عن وجود معرفة قبلية .

فتوكيد ٢ +٢ = ٤ وإن الزوايا الثلاث لمثلث = زاويتين قائمتين صحيح في كل الظروف. ونحن مقتنعون بحقيقتها . بصرف النظر عن التجربة ، لأننا لا نستطيع أن نجرب إلاعددا محدوداً لإثبات صحة هذه التأكيدات. وإذا كانت التجربة هي العامل الحاسم فإننا لانستطيع إلا تأكيد هذه الحالات المجربة . ومع ذلك فنحن نؤمن دون تردد أن هذه التأكيدات صحيحة في كل الحالات . وعلى هذا النحو غإن لدينا معرفة قبلية . ولما كانت الرياضيات تتعلق أساساً بالعلاقات الفضائية الزمنية فهي تثبت الطبيعة القبلية الفضاء والزمن . إنْ تنويه فلسفة ، كانت ، بالبعد بين العالم كما يبدو والعالم كما هو ، تكتسب قوة من المعارف الطبيعية الحديثة لأن الطب الحديث يوضح العملية المركبة التي بواسطها تصل المشاعر الحسية بالأشياء الخارجية إلى محنا . فقلا الموجات الصوتية النابعة من شيء تتحرك باعتبارها مثيرات ، تصطدم بهايات عصبية في العين وتكون أصل سلسلة معدة من ردود الفعل الكهربائية والكياوية التي تحدث بهذا المكان . وتمتد هذه الردود على طول العصب البصري الذي يجعلنا نعلن أننا نرى الشيء . وبين الشيء كما هو في العالم الحارجي وبين هذه الاضطرابات في النشاء البصري التي تكون إحساسنا ، توجد إذن عدة مراحل للتحول تجعل النائج الهائي لهذا التركيب العصبي المعقد بعيداً عن الشيء الذي حركه . كل ما يمكننا أن نقوله هو أن هذه النتيجة ذات علاقة رمزية بالشيء وأنه يمكن عن طريق إدارة بارعة ممارسة نشاط على الشيء المرموز له . هكذا يمكن تقديم الحجة الستقاة من الطب الحديث .

وأمام هذه الحجيج الى لا توال تؤثر تأثيراً كبيراً ، تقدم الماركسية معارضة قوية تعتمد على حسن الإدراك . فكما رأينا يصف التكنيك الماركسي بالمثالية كل الأفكار الى تجعل الوجود الحارجي يعتمد جزئياً أو كلياً على همليات عقلية . ثم توضيح أن هذه الأفكار تقود حيا إلى أفكار معتزلة . وتؤكد النظرية الماركسية أننا في الحياة العلمية بجرب صحة معوفتنا بالعالم الحارجي وأن امتداد رقابتنا عليه توضيح سلامة معرفتنا .

كان فرويد يؤيد وجهة النظر هذه : و إذا لم تكن هناك معرفة متميزة عن آرالنا نتيجة أنها تطابق الواقع ، فإنه يكون فى إمكاننا تشبيد جسور من الورق أو من الطوب ، ولأمكننا حقن المريض بعشرة جرامات من المورفين بدلا من ستتيجرام ولا ستطعنا تخدير شخص بالمفاز المعد للدموع بدلا من الإتير ه (١).

لا يميل الماركسيون إلى الإسهاب في الكلام عن دقائق الحجج المثالة وإنما يفضلون دفهابالتركيز على حتمية الاعتزال في كل شكل من أشكال المثالة. وفي سبيل استبدال النظرية المثالة يشرحين العلاقة بين معرفة العالم الحارجي بواسطة نظرية التقليد والتمكير التي تبدو متناقضة مع أكثر أوجه فكرهم ديناميكية. فلنين وإنجلز كانا يتمسكان بفكرة أن أفكارنا تعكس العالم الحارجي بنفس الطريقة التي تعكس فيها المرآة الأشياء. وقد كنب لنين في هذا الصدد: والمادة عبارة عم مجموعة فلسفية تستخدم للإشارة إلى حقيقة موضوعية بواسطة الإحساس الإنساني وهذه الحقيقة تنسخها إحساساتها وتصورها وتعكسها ، ولكنها توجد مستقلة عن هذه الإحساسات و77).

وفى رأبي أن هذه الفكرة مشتقة من الاتجاه الذى بعد الإحساس قبل كل شيء وظيفة من وظائف الرؤية .

عندما نتساءل : هل العالم حقيقة كما يبدو لنا ، فنحن نستخدم لا شعوريًا التشييه المتقلق بصورة الشيء طاشيء المصور ، أو تشبيه المرآة بالشيء اللدى تعكسه . ولا نتساءل عادة إذا كانت الأشياء تصدر في الواقع رائحة أو صوتا مقابلا للملك الذي ندركه مها بواسطة الشم أو الأذن . فنحن لا نستخدم التشبيه لحواس أخرى غير حاسة الرؤية .

وببدو أنه من الأسلم أن نعتبر إحساساتنا لا انعكاسات للعالم ، وإنما ردود فسل أو أجوبة لهذا العالم . عندما نقول إننا نرى العالم فإننا نستجيب له على المستوى المصرى . إذا نظرنا إلى الأشياء من هذه الزاوية ، فإن مسألة معرفة ما إذا كان العالم مثلما فراه إذا كانت أفكارنا تعكمه بصورة صحيحة أو لا . أقول إن المشكلة إلا توضع بهذه الصورة التي تعرضنا للتخيط .

Freud : Nouvelle conférence, p. 191 (1)

W.I. Lémine, Mastrerislimusm und' Empiriokrtizismus, p. 194 Dietz Verlag (1)

I. Lénine, Matrechlismum und Empiriokritishum, p. 124 Dietz Verlag Berlin, 1964.

إن تقدير علاقتنا مع العالم من هذه الزاوية أى باعتبارها تبادل إحساسات لا ينكر حقيقة العالم الحارجي . فنحن بعد كل شيء ، جزء من العالم ولسنا غرباء أو بعيدين عنه . وما تاريخ الإنسانية إلا جزء من تاريخ العالم . وقد أحركت الماركسية هذا . ولكن علاقتنا بالعالم أكثر تعقيداً بكبير بما أوضحته الماركسية فالماركسية في نبدها الكامل المثالية نسبت إلحاح وتأثير الماركسيين أفضهم على الطبيعة النشيطة الفكر الإنسان ، وتأثيرها على المادية الميكانيكية التي ترى الإنسان بجرد لعبة سلبية للضغوط التي تحيط به . . ولقد فهم الفلاسفة المثاليون الطبيعة الإيجابية للحياة النفسية ، ولكم مجزوا عن تطبيقها على عالم الواقع الاجماعي . فقد فكروا بمصطلحات مجردة دون أن يأخلوا في الحسبان العالم الحارجي . وهذه العملية لم يصححها تمو طم النفس .

وهذه النقطة أدركها ماركس عندما كتب و وهكذا نمسَّت المثالية العامل الإيجابي على المكس من المادية غير أنها تمته بطريقة مجردة . . . ٤

هذا التلميح لا حظه الماركسيون بالكاد ، وهو تلميح كان يجب أن تتوجه نحوه المادية وهي تطور نفسها . فالمادية باستخدامها للمناهج العملية يمكها أن تفتح مجال الحياة الدائية المروك حي يومنا لشعوذة الفلاسفة المثاليين المجردة .

إن نبد المناهج المثالية طالما كانت مؤسسة على اعتبارات وجدانية وتأملية معزولية عن الواقع الاجتهاعي شيء ، وإنكار وجود نشاط نفسي تتخد منه المثالية نقطة بداية للتأمل شيء آخر ، وإلا فإننا نلني بالنواة وبالقشرة معاً .

إن الاهتام المعاصر بعلم التفس وبالتحليل التفسى يظهران أن الإنسانية في وقتنا هذا تقيس نفسها بهذا النوع من المشاكل أو كما لاحظ ماركس الإنسان مشغولا بالمشاكل التي يكون حلها في متناوله متعلقاً بتقدمه في المستقبل . وحيى مقدوره تحصيص وقت المشاكل التي تثيرها الطبيعة الداخلية في الإنسان . أما الآن فتتعلب هذه المشاكل التي تثيرها الطبيعة الداخلية في الإنسان . أما الآن فتتعلب هذه المشاكل اهياماً من الدرجة الأولى . ويجب أن تكف عن الانتهاء إلى بجال التأملات الفلسفية وأن تصبح موضوع نظام علمي صادم . وعلى الرغم من أن برتراند راسل يقرر أن العلم لم يتقدم بعد بصورة تكلى لحل المشاكل المشاكل

الفلسفية فإنى أعتقد أن العلم قادر اليوم على دراسة طبيعة العمليات العقلية الى لا تعد مجرد انعكاس للعالم والخاوف وتصوراته . فالعلم يسمى لمعرفة بأى طريقة تؤثر — الأمانى والآمال وإغاوف والشكوك — تأثيراً إيجابياً على الصورة الى يكونها الإنسان للواقع . فالواقع الاجهامي شيء وضعه إلانسان بين نفسه وبين وسعله الطبيعي المغزل في كرثير من الماركسيين يتفقون على هذه النقطة . ومع ذلك ففلم الحقيقة الاجهامية تمترج مع معقوليات وعادات وأشكال تفكير تثبت نفساً في الناضع وطبيعته ، وما من فلسفة أو تصور للعالم يريد أن يكون أكثر من مجرد تأملات أكاديمة ، يستطيع الساح لتفسه بتجاهل مساهمة النظرية القريدة إذ لابد من أن يدجمها في تصوره . وهذا صحيح برجه خاص فيا يتعلق بالماركسية لأنها أكثر المحاولات المحاصرة جلية لتكوين فكرة عن العالم تبدو فها علاقة المؤلسان بالكرن ذات أهمية أساسية .

## ٩ \_ بعض تطبيقات

كان هدفى فى خلال الفصول السابقة إظهار أن التحليل النفسى والماركسية وسيلتان للوصول إلى معرفة الإنسان ، وأن كلامهما تثرى الأخرى . ولحله السبب كان ضروريًّا أن أصف هذه النظريات بطريقة مفصلة إلى حد ما ، مع توك بعض المشاكل المتعلقة بها حتى أتجنب الغموض فى العرض العام ــ وسأتعرض فى هذا المشاكل المتعلقة بها حتى أتجنب الغموض فى العرض العام ــ وسأتعرض فى هذا المشاكل المدأن أمهد التربة لللك .

أود أن أبرز في البداية أن المحاولة الفرويدية ــ الماركسية ليست محل مفاضلة عند البحث وأنها لا تقدم لمشاكلنا حلولا جاهزة . وإنما تكمن فاقدة هذه المحاولة في أنها تهدينا إلى علامة ، إلى توجيه ، إلى إطار عام عند دراسة أي مشكلة . وتوحى إلينا بالطرق التي يجب أن نوجه إلها أبحاثنا . وعلى ذلك فإذا كنا نرغب في دراسة الصراعات الأساسية الحالية على ضنوء هذه المحاولة فإننا لن نبحث فقط العوامل الاجهاعية والسياسية الموضوعية التي تكمن تحمًّا ، وإنما سنحاول كذلك إيضاح العوامل الشخصية الذاتية التي يمكن أن تزيد من أهميته هذه الصراعات وتدس فها السموم وتضع عقبات في طريق مناقشة معقولة، فثالا الأسباب المباشرة للتوتر بين الشرق والغرب تنبع كما هو واضح من صراع بين عقائد ( ايدبولوجيات ) مختلفة فيما يتعلق بالاقتصاد ، والسياسة ، ونظام حكم أمة ، وهي عقائد تتجسد في نظم اجماعية مختلفة . هذه الأسباب تزداد حدة وخطورة بالشكوك ، وسوء التفاهم والحوف . وهي أسباب لا تتسم باستنادها إلى العقل كالأسباب الأولى ، ولكننا يجب أن تعللها حتى يمكن أن تعافظ على تعايش سلمي وبالتالي نصل إلى حماية الحياة الإنسانية على هذا الكوكب . إذا كانت هناك فرصة لمؤتمرات دولية تنعقد بصفة منتظمة تضم أولئك اللبين يدركون آحر ما وصل إليه التقدم في مجال علم النفس ، بهدف إخراج هذه العوامل غير المعقولة من الظلمات إلى النور ، والتي تقف حجر عثرة في سبيل التفاهم ، فإن مهمة رُجال السياسة اللين يجتمعون لمناقشة مشاكلي السلام تغدو أكثر يسرأ وسهولة .

تدرس الماركسية والتحليل النفسي بطريقتين عتلفتين ، ما ليس معقولا

فى حياة الإنسان . تمالج الماركسية اللامعقولية فى النظام الاجهاعى ، التى تمنع الإنسان من استخدام الاكتشافات الفنية التى يقدمها له العلم حلى أحسن وجه ويدوس التحليل النفسى القرى اللامعقولية فى روح الإنسان التى تعرق تطور الإنسان ليصبح كائنا ناضبجاً معقولا ، يعرف كيف يستعمل العلم لتحقيق رخائه . إن حالماً تسوده اللامعقولة يتطلب دراسة علمية للامعقول سواء فى ذلك ما كان أصله شخصيًا أم موضوعيًا . وهو ما يبرر كاناً من المحاولة الفرويدية وإطارة الماركسية .

ومع اتفاقنا على أن الموقف العالمي الحالى ملح في ضرورة القيام بدراسة عمية للموامل التي تصدر عها هذه اللاممقوليات فإننا برغم ذلك نتساءل عما إذا كان التحليل النفسي والماركسية يعدان وسيلتين تسمحان حقيقة بالقيام بهذه الدراسة بشكل صالح علميا . يدعى خالبا أن أي نظرية علمية يجب أن تكون بالضرورة قادرة على التنبؤ وأنها تمكننا من أن تحدد سلفا مجرى الحوادث ، وأن نقراً الغيب بطريقة تتضمن قدراً معقولا من الصحة .

هذا النقد له رزنه خاصة فيا يتعلق بالماركسية التى ترى فى ففسها فظرية علمية ، نظرية تشمل ، فى فكرة عن العالم ، كلا من الاقتصاد والتاريخ والفلسفة . وينادى تلاميذها بأنها مرشد الواقع ، وخاصة الواقع الا جماعى .

ويرد نقاد الماركسية على هذا بقولم إن الأحداث قد قوضت النبوه الأساسية لماركس المتعلقة بتطور المجتمع والتي كان حاصلها أن تطور الرأسهالية سيكون مصحوباً بتزايد فقر الكتل الجماعية وهو ما لم يحدث . ومن هنا يتمين التخلي عز الماركسية ووفضها .

وإذا حاولنا أن نعرف هدف أى نظرية طمية فإن عدم جدوى هذا النقد يبد واضحاً. إن أى نظرية علمية لها دور مزدوج فهى يجب أن تفسر وتتنبأ . لكى تفسر تجمع عدداً من العوامل الى قد تبدو مقطوعة الصلة بعضها ببعض وتجعلها مفهومة ومعقولة ، وتشيد وميات تكون كلاً متسقا منسجماً . ولكى تتنبأ ، معتمدة على هذا الكل المتسق المنسجم توجه انتباهنا إلى أخداث يمكن أن نأمل حدوما في المستقبل . بمفهوم ما ، تهدف النظرية العلمية إلى جعل

تصيرها يشمل عوامل لم يم بعد ملاحظها ، ولكن ولهذا أهميته لأنه يكشف ضعف النقد المرجه الماركسة ، العلاقة بين النبؤ والنظرية التي بفيس علها النبؤ ليست بالفمرورة علاقة منطقية . إن أحسن ما يمكن أن تقوم به نظرية علمية ، هو أن تتصور تطوراً ممكناً ، وسواء أحدث هذا التطور أم لم يملث ، فإن عذا لا يجر بالفمرورة تفض أو تأكيد النظرية . فيعض النظريات الملمية ، خا قدرة كبيرة على النبؤ ، والبعض الآخر من النظريات المعلم الإنسانية على وجه الحصوص، قدمها على النبؤ ضبلة ، كلف أنه بالنسبة لهذه الأخيرة ، أى النظريات المعلمة بالموم الإنسانية على وجه الحصوص، قدمها على النبؤ ضبلة ، كبير جداً إلى درجة أنه لا يمكن أن يتوقع درجة عالية من دقة النبؤ وصحته والقدرة الضبلة على النبؤ تبدو القاعدة العامة وليست الاستثناء في عبال النظريات الملمية المتعلقة بالملوم الإنسانية . وضرورة اعتبارها علوماً بالمعى الدقيق لهذه الكلمة تأك من كوبها قادرة على التفسير أكثر من قدريها على النبؤ.

بل إننا تستطيع أن تقول إنها صالحة بقدر تعلقها بأحداث ماضية ، عندما تكون قادرة على تقسيرها بربطها الحاضر بالماضي . وهو ما يجعلها حكيمة بعد فوات الأوان ، كما يقال ، وهو موقف ليس مثيراً للاحتقار . فيعد كل شيء علما هو معنى وقفة التعلم من التجربة للخروج بدوس من الأحداث والارتقاء إلى مستوى بجابتها . والتوقعات في الوقت الحالى في بجال العلوم الإنسانية بتزايد فقر الكتل البشرية ، نصبحة لتعلور الرأسيالية ، صاغ نبومته بصورة بعددة إلى درجة بعيدة ، وقد أدى هالما إلى أن تسلح البعض بهذا التنبؤ ماذكس قد تنبأ بعدم استقرار متزايد الرأسيالية وبشعور متعاظم بعدم الأمان واللامعقول (أي بصيفة عامة) فهل كان يمكن اعتباره محفاة خطأ كبيراً ؟ والمعرد المعلمية أن اللامعقول (أي بصيفة عامة) فهل كان يمكن اعتباره محفاة خطأ كبيراً ؟ نستطيع أن تقول وغمن على حق إن البومة نحققت في المبدأ وإن انخلت تغاصيل الأمور انجاها عضلة وإن انخلت تغاصيل

تعتمد الانتقادات الموجهة للفرويدية والماركسية على ضيق أفق فيا يتعلق

بدور العلم ، وعلى نخلط فيا يتعلق بالدور الذى تلعبه النظرية في هذا المجال في مفهوم معين يمكن استخدام كلمة و نظرية ، في مجال العلوم تماماً بالطريقة نفسها التي تستخدم بها في مجال الروايات الوليسية فمن خلال تسلسل الأدلة يسمى المخبر إلى إعادة قطعة ناقصة بالاحمياد على نظرية ، وباللجوء إلى تحقيق أكثر عمقاً يمكن إثبات صحة النظرية فتصبح واقعاً ويتم الكشف عن الدليل الناقص . وبطريقة منابهة ، فإن دورة الدم أو مصادر النيل كانت نظريات الى أن اكتشفت وقائم متعلقة بها .

وبهذا الممنى ، فإن النظرية توجد للحلول محل واقمة غائبة ، وهى نقطة قررها الأستاذ ب . ك . سكينر ، السلوكى الأمريكى ، بعبارة أخرى يمكن اعتبار العلم محاولة لوصف ظواهر الطبيعة وترتيبها .

ولكن يرجد معنى آخر العلم مقتضاه أنه يلعب دوراً فى التأصيل ويتطلب أن توضع بعض الفروض . هذه الفروض تربط الوقائع التي يمكن أن تبدو متباعدة وتفسر ترابطها تفسيراً حقليًّا وهذه الفروض يمكن أن تتأكد صلاحيتها لأنها تفتح طرقاً جديدة المبحث ، ويمكنها كذلك أن تتنباً بالأحداث المستقبلة برغم أن التنبؤ فى العلوم الإنسانية يكون بالفهر ورة عدداً ، غير أن هذا لا يستتبع أن نكتن بالاهام بأوجه الشاط الإنساني التي تركن إلى التعبير الكمى الاستاتيكي وهو ما يبدو أنه رأى أولئك الذين يوجهون النقد لفرويد ويصفونه بأنه هاو وتنقصه الروح العملية .

المؤفف العلمي هو موقف أولئك اللدين هم على استعداد للملاحظة الدائمة بعناية ، اللدين يبنون نظرياتهم دون أن يأعلوا في الحسبان ذوقهم أو نفورهم الشخصي ، اللدين يخضعون نظريتهم التجربة الواقعية بقدر الإمكان ، اللدين يعرفون التخلى عن هذه النظريات عندما ثنبت وقائع جديدة عكسها .

إذا كان الباحث العلمي يعالج شيئاً يمكن قياسه والتعبير عنه كميًّا ، فإنه يقيس . أما إذا كانت مادة موضوعه لا يمكن قيامها فإنه لا يتخل عنها وإنحا يكتفي بتعميمات تفسيرية ويبحث عن التفسير بطريقة تتسم بالمعقولية بقدر الإمكان . وربما بدت الروابط بين الوقائع غير متصل بعضها ببعض . وهذا هو ما حاول فرويد أن يقوم به . وعلى حد تعبير أحد النقاد الحديثين اللدين يتمتعون بقدر كبير من المهارة : « تكونت الثورة الفرويدية أولا من تشييد واقعة أن العصابيين والتقلبات الحنسية ، وكذا التصرفات الفريبة للأشخاص الماديين ، تعبر عن نوع من عدم النفوج ، كانياً من إدخال مبادئ السببية والحتمية في هذه المحاولات . ويقوم وصعف ميكانيكيات دفاع الآنا المختلفة التي بواسطتها نضع أنفسنا في مأمن من الحقيقة الممادية والشعور بالإثم الداخل يقوم على أساس من الملاحظة العملية العميقة . هانان النقطتان تكونان المساهمة الفرويدية الدائمة في معرفة الإنسان «(1).

ويمكن هنا أن نفرب مثالا يوضح ضيق نطاق أى موقف للفرويدية ويبرز أهمية التفسيرات الفرويدية . يدافع الأستاذ ايسنك عما يسميه موقفاً غير تاريخى في أحد فصول كتابه و ديناميكية القلق والهستيريا و الله على الذي يعالم نظرية علم النفس . ويريد بالموقف غير التاريخى أثنا عندما نكون أمام عرض من الأعراض التي تواجهها الفرويدية باعتبارها تشير لل وجود عوامل محتفية تسببه ، فإننا عب أن نعد هذه الدراسة من العوامل السطحية فالمارض ما هو إلا عادة سيئة اكتسبت بطريقة ما ويتمين تعليط يقة التخلص مها و الأعراض إجابات مكتسبة من فوع ( R-8 ) جمعي المحتفظ المناطق عليا فإن العلاج يكون قد تم ، وهويستخلص حجته الأساسية من علاج سلس البول ( عدم إمكان حجز البول ) بموج شرطى . حجته الأساسية من طلاح سلس البول عند الأطفال مصحوباً بصفة عامة بقاق وانعدام ثقة في النفس يترب عليه غالباً إنقاص القلق وزيادة الثقة في النفس . يستعمل أي نظام يترب عليه غالباً إنقاص القلق وزيادة الثقة في النفس . يستعمل أي نظام الإندار بالحطريتكون علاءة عرن ويوصل الماتدان ببطارية . فإذا ما نسى ملاءة سرير ومغطين علاءة أعرى . ويوصل الماتخان ببطارية . فإذا ما نسى

John Mc Loish: The scienc of behaviour Barde and Rockliff with Gemberton (1).
Publishing Co., 1963, p. 157.

Eyeenck : The Dynamics of Ameiety and Hysteria, p. 268, Routjeuge and ( Y )

Kegan Paul; 1957

الطفل نفسه سببلل الملاءة العليا السرير والحشية منشئاً تياراً قصيراً بين المأخلين البريزتين . فيحرك هذا جرسا يوقط الطفل . فيضطر هذا إلى الاستيقاظ وإيقاف الحرس والتخلص من باقى فضلاته في دورة المياه . وبعد فرة معينة يستيقظ الطفل عمليء المثانة من تلقاء نفسه دون أن يبلل فراشه ، ودون حاجة إلى تنبيه الجرس . قانعكاس اليقظة الذي كان يئار بواسطة الحرس أصبح يئار بواسطة المحرس أصبح يئار بواسطة المتانة ، يممي أن الانعكاس أصبح شرطياً . وفي حالات كثيرة يكون لهذا تأثير نفسي مفيد للطفل .

ومع ذلك فإنهيدو أن هذا الأثر لا ينتج من إقامة استجابة شرطية. فهذا العلاج يذهب حناً إلى جن مع الاهمام والانشغال اللذين يبديهما للأطفال أشخاص بالغون هم أعضاء جماعة العلاج النهي أو العقلى. وقد بدا لى هذا المنصر بطريقة تنحو للدهشة وتثير الاهمام. فقد اكتشف أن عدداً من الآباء الذين قدمت لهم هذه النظم لم يضهموا جيداً تحفية الاستعمال سواء نتيجة لحطاً في التلقى أو لمجرد الغفلة. على أي حال لم يكن الجرس يدق وبرغم ذلك فإن سلس البول كان المغاطيسي ) والإيجاء . ولذا فإن بعض أطباء النفس يعطون الطفل ورقة ينون فها الآبام والليال التي لا يبلل فها نفسه وتؤدى هذه الحالات هو أن التشجيع يلون فها الأبام اللين يبديهما أطباء النفس وعلماء النفس أو الممرضات يقوى والاهمام الودى الللين يبديهما أطباء النفس وعلماء النفس أو الممرضات يقوى والاهمام الودى الللين يبديهما أطباء النفس وعلماء النفس أو الممرضات يقوى والعمام الودي الللين يبديهما أطباء النفس وعلماء النفس أو الممرضات يقوى فاعلية . وأما التفسير الماخوذ من النظرية الشرطية فهو ذو قيمة عددة جداً ، واعلاق القروبدية ضرورية لشرح ما يجلث.

ولكن هناك سبباً آخر بجمل الهاولة التاريخية الفرويدية أكثر أهمية ، فق الحقيقة يبدو الرفض غير التاريخي للنظر إلى ما هو أبعد من الأعراض الواضحة خطراً . لأن هذا الرفض يبعد الانتباه عن الشروط التفسية والاجماعية التي يمكن أن تكون أصل أنواع الضيق وأخطرها وأشدها . فن وجهة النظر الاجماعية ، نعلم حسبا ذهبت أعمال برت وسكوت أن البيوت غير المستقرة والدور المفككة ، تعد عوامل هامة تساهم في سوه تكيف الطفل وأن العلائق النفسية الأكثر لطفاً الله تنشأ داخل عائلته والصداقات والمداوات التي تتكون فيها تساهم كذلك في تنكيف فاسد (۱۱) . إن رفض النظر إلى ما وراء الأعراض المواضحة يمكن أن يؤدى لا إلى الإضرار بالطفل المحتاج للمساعدة فقط ، وإنما يعوق أيضاً البحث عن الظروف التي تمهد لتكيف سيء بصفة عامة . فبعد كل شيء تبتى حقيقة هامة هي أن الوقاية خير من العلاج .

ملاصة القول مما سبق هو أنه يبدو أن بعض نقاد فرويد وماركس يميلون إلى البات نظرتهم الضيقة الحاطئة لدور العلم . فرويد وماركس يتنميان إلى تلك الطاففة من عباقرة تاريخ الإنسانية اللين بشيدون نظريات كاملة ، موحدة ، خنية بالنقاط التي تفتح آفاقاً لأبحاث في المستقبل . والعلم هو التعبير عن جهود الإنسان في البحث لفهم كل من العلبيمة الخارجية وطبيعة الإنسان الداخولية مما ويمكن أن تعطي هذه المعارف ، في بعض الحبالات ، قدرة على التحكم . ولكن الوصول إلى هذا التحكم هو السبب الوحيد الذي يسعى الإنسان من أجله وراه المرقة ومنا تكمن خلطة هذه النظرة العلمية الفيئة لنقاد أعمال فرويد وماركس. فسواء أمكننا الوصول إلى هذا التحكم أم لا ، فإننا نريد أن نفهم أن الإجابات الني تقدمها لنا المعرفة تستجيب الضرورة تكمن في أعماق الإنسان .

ركزت في بداية هذا الفصل على فكرة أن النظرين الفرويدية والماركسية تقدم لنا أشعة بمكن على ضوئها دراسة المشاكل أكثر ثما تقدم لنا إجابات محددة وحلولا للمشاكل المعاصرة . لذا أحتم بالتعرض الآن لإيضاح هذه النظريات بدراسة بعض المشاكل السياسية والاجتماعية الهامة التي تتداخل في بعضها تداخلاً .

وسنبدأ بعالم السياسة . السياسة هي فن حكم وإدارة الحياة الاقتصادية والاجماعية لجماعة ما . وهي تطلب ممارسة السلطة ووضع الفوانين واللوائح ،

Delinquency and Human Nature, D.H. Scott Carnegie United Kingdom Trust, ( ) 1990, — The Young Deliquent Oyal Beut', University of London Press, 1944

لتنظم العلاقات الإنسانية في المجتمع حتى تدور حياة المجتمع في ظل حد أدنى من الصراعات.

إن أهم ما ساهمت به الماركسية في النظرية السياسية هو إيضاحها أن السياسة في المجتمعات المشتملة على طبقات مختلفة تتجه إلى إطالة بقاء سلطة أو سلطات الطبقات المرجهة . ويعتقد الماركسيون أن الانسجام أو التوافق بين الطبقات يمكن تحقيقه عن طريق ميكانيكية تتكون من ناحية من تعلم الشعب وإرشاده إلى ضرورة نقل سلطة الطبقات المسيطرة إلى الجماعة بأكملها ، ومن ناحية أحرى ردع كل معارضة للحكومة عندما تصل هذه المعارضة إلى مرحلة خطرة . والذي يثير الاهبام في الفكرة الماركسية عن السياسة هو أن الدولة فكرة أوسع بكثير من الميكانيكية الحكومية والبرلمانية الخصصة لوضع القوانين . فالدولة تعنى في الماركسية كل وسائل إدارة الحياة الاجماعية ــ الجهاز القضائي ، القوات المسلحة التعليم ، البوليس ، الصحافة ــ التي بواسطها تسيطر ، بطريقة مباشرة أوغير مباشرة إرادة الطبقات المرجهة على باقى المجتمع . هذه الفكرة عن الدولة وجهت إلمها منذ اللحظة الأولى الانتقادات لكومها ضيقة جدًّا وعامة جدًّا ، ضيقة جدًّا لأنها تجعل سباسة الحكومة مقصورة على مصالح خاصة ، عامة جدا لأنها : تدمج في السلطة المرجهة ، هيئات مستقلة تسبيًّا مثل الصحافة والجهاز القضائي . هذا الا نتقاد ربما بدا مبرراً عندماكان نمو الديمقراطية البرلمانية يقدم لأحزاب سياسية شابة وقوية إمكانيات التحول نسبيًّا دون اصطدام بالمجتمع عن طريق تمكينها من الحصول على أغلبية المقاعد في البرلمان ، ولكن هذا الانتقاد فقد الكثير من هبيته اليوم مع الإحساس المتزايد بأن السلطة التي تحكم وتحدد سير الأحداث لا تكمن فقط في أيدى الحكومة . عادت النظرية الماركسية عن الدولة إلى الظهور تحت فكرة ﴿ النظام القائم ﴾ ، وهي فكرة غامضة مشوشة ، ولكنها آخذة فى التطور السريع لتصبح متسقة منسجة . فإننا فلمح أكثر فأكثر أن أى حكومة تقدمية ، مهتمة بإحداث تغيرات اجهاعية جذرية، تقابل أكثر من مجرد معارضة برلمانية .

ويرجع الفضل إلى هذه الفكرة الماركسية في إثارة انتباهنا للخاصية المعقدة

المحقيقة السياسية : التي لا يمكن ردها إلى مجرد علاقة الأغلبية بالأقلية بين الأحراب السياسية .

و بمعنى ما ، فإن التظرية الماركسية عن الدولة تؤيد فكرة أن إطاعة الدولة تعتمد على العادات والتقاليد والقبول النفسى لسيطرة طبقة ما ، أكثر من اعتمادها على وسائل القهر المادية .

وبعبارة أخرى فإن وجود الدولة يعتمد على البيؤ لوضع الحضوع لدى مجموع الشعب ، اللدى أقنع بقبول هذه السلطة . إن أى دولة تعتمد اعباداً كلياً على الرحو والقهر مصيرها إلى الزوال السريع . لأن قوتها تأتيها من السيطرة التى تمارسها على عقل الشعب وهذا يثير مشكلة أهمية طبيعة العوامل النفسية التى تستمد مها الدولة سلطانها على العقول .

يقدم فقهاء السياسة الذين لا يهتمون كثيراً بالوجه النفسي السياسة ، إجابة تعتمد على دوافع منفية أو عقلية . فيفترض الأستاذ لا سكي مثلاً أن الناس يطيعون الدولة لأنهم بحسبة عقلية يظهر لهم أنهم في نهاية المطاف يكسبون من هذه الطاعة أكثر مما يضمرون : ١ هم يقبلون أوامر الحكومة معتمدين على معيار الإشباع الذي يسعون إلى تحقيقه في الحياة ويرفضون هذه الأوامر مجمعة أنها تتعارض مع هذا الإشباع ع .

وللأصف ، فإن طاعة الدولة نادراً ما تظهر بهذه الطريقة المقلية البحتة . فإلى حد ما صحيح أن العامل الحاسم في الطاعة هوالإشباع الذي تقلمه هذه الطاعة . ومع ذلك فإن دوافع الإشباع الانحفي دائماً الاختيار عقلي . في الواقع يظل الأشخاص يطيع ون الدولة مدة طويلة بعد ما يظهر أنها عاجزة عن منحهم الإشباع الذي يتعلله التفكير الفقل ، يحتملونا دون ثورة البؤس ، وظروف المبكن السيئة ، ونقص التغلية ، لأن عادات الطاعة قد تأصلت جدورها إلى أعماق بعيدة عن أن تسم بالمقولية . فالإشباع الذي يبحثون عنه ليس إشباعاً يمكن ترجمته ولتميير عنه في صورة أنماط حياة .

هنا تتلخل النظرية الفرويدية . إذ يجد التأكيد الماركسي بأن سلطة المدولة تعتمد على نوع من العلاقات غير المرثية الصادرة عن التقاليد والعادات والقهر يجد تفسيراً نفسيًا في النظرية الفرويدية . لأن الدولة تستمد جزءاً كبيراً من سلطها النفسية من الدور الذي يقوم به الأنا الأعلى الذي يقدم سنداً خارجيًّا للحاجة للإرشاد والحماية التي تلازمنا منذ طفولتنا .

بمبارة أخرى تستمد اللولة قوة نفسية من السلطة الأبوية كما تبدو لمقل الطفل ، وهو ما يفسر الأوجه غير المنطقية وغير المعقولة الأولاء والطاعة حيال المحكومة ، حتى عندما بمل هذه الحكومة الحاجات الاقتصادية الأولية نشعبها طالما ظهرت اللولة بمظهر القوة وأوحت بأنها جديرة بالثقة ظل الناس ميالين لطاعها دون أن يتساهلوا عن شيء . يتصرفون حيالها كما يتصرف الطفل حيال سلطة الأب المقتدر . ولكن فليظهر الضعف في الطبقة الحاكمة ، أو لتصبح هذه الطبقة فريسة للردو والصراع ، أو أتعرض المؤيمة المسكرية الشعب لمجاعة أو لتتحطيم ولن تلبث السلطة النفسية للدولة أن بهتر بعنف . وليس من قبيل الصدفة أن المؤيمة تعطى تدفعة لكثير من الثورات . وقد حدد لينين شروط نجاح أي ثورة وضع على رأسها تفكك ثمة الشعب وأعادله في الطبقة الحاكمة . وتفسر النظرية الفرونيية هذا القبول السلي لدور الدولة ، وكذا المنف الذي يصحب الثورات . ولأن خلك لحام المعاوة المكرية والتي يستشعرها الأطفال غالباً نحو

وَكُونَ الحياة السياسية تقدم آفاقاً شاسمة للأفراد الذين يبحثون عن السلطة والذين يعطيهم تنوع الحياة السياسية شعوراً قرباً بأهميهم ينطري على خطرعظنم. لأن هذا يعطيهم تنوع الحياة اللهين يندفعون إلى الحياة السياسية المعور بالواجب نحو مواطنهم ، ورغبتهم في الزالة الآلام الاجاعية يحدون أنفسهم مستبعدين من عجال السياسة بواسطة مرشحين السلطة السياسية أكثر قوة وأكثر ضجيجا ولا ضمير لهم. هذه هي المشكلة التي اصطدم بها أفلاطون في بنائه لجمهوريته : كيف نحث شخصيات معقولة ويتفائية في إخلاصها إلى الاضطلاع بقيادة سياسية؟ كيف نحث شخصيات معقولة ويتفائية في إخلاصها إلى الاضطلاع بقيادة سياسية؟ كان يعلم ، وقد ظل هذا صحيحاً إلى يومنا هذا ، أن مثل هذه المماني الأخلاقية تكون مصحوبة بتواضع ونفور من شراسة القتال السياسي . نحن نعد السياسة عملا نظيفاً ، إلى حد ما ، وبع ذلك نرشع لها أشخاصاً يتفاعرون بممارسة المكاثلة والغش في عالم السياسة .

ولما كان العلم يضم تحت تصرفنا قوى تزداد يوماً بعد يوم فإن الحطر الذى يأتينا من هؤلاء الأشخاص يتعاظم بقدر هذه الزيادة . وإذا بمصير العالم معلق بطريقة مزعزعة بالتفسيرات الى تعطيها جماعات سياسية صغيرة لاصطلاح و الشرف الوطنى ٥ . سياسيون أهم خصالم للحكم هو أنهم ذوو شخصيات أقرى وأنهم أكثر نشاطاً وطموحاً من بقية الأشخاص ويكون في إمكانهم لللك اتخاذ قراوات تتعلق بحياة مواطنيهم وأمانيهم .

والعملية التى يواسطها تركزت السلطة في عدد محدود من الأيدى في الدولة الحديثة إلى حد أن إنساناً بمفرده أصبح قادراً على اتخاذ قرارات حيوية دون أن يستشير حتى مكتبه وصفها الأستاذ جوفرى براكلوج بطريقة طريقة: وأصبح الناخبون آلات التصويت، لا يستطيعون التصويت ضد حربهم ، ولا يستطيعون التعويب عن عملية التصويت وليس لم حتى إصدار حكم مستقل في المشاكل الهامة ويعرفون أنهم إذا المحرفوا عن خط الحزب يفقدون الأمل في أن يعاد انتخابهم. وباعتصار في في الدوب ، وهكذا أصبحت غير ذات وزن النظرية التقليدية الديمقواطية النبايية التي من مقتضاها أن يحتار الناخبون المرشح الكفء القوى الشخصية . . . . و الله كان الولاء مركز مطابق النباية التي من مقتضاها حزب يعنى ، في آخر المطاف ، الولاء لقائد سياسي ، فإننا نجد أنفسنا أمام مركز مطابق التحايل القرويدى للعلاقات السياسية .

يبدو واضحاً أننا أكثر صاجة من أى وقت مفى لبحث اللواضح الى تلفع البعض للانجراط فى السياسة ، خاصة بالنسبة لأولئك اللين يجدون فى بمارسة السلطة على حياة الآخرين بجاذبية مغناطيسية خاصة . كل منا (أو على الأقل خاليتنا ) لا يتخرط بطريقة إيجابية فى السياسة ... أما أولئك اللين يتضمون إلى حزب أسياسى ، وأكثر مهم اللين لهم فيه دور ، يكوفون أقلية الجمهور . بالنسبة لأغلبية الناس السياسة موضوع يشار من وقت لآخر فى لحظة الانتخابات أو فرات الأزمات أما أن يتجه الشخص إلى الامتهام بالسياسة بصفة دائمة ... فهذا حلامة على شخصية من نوع معين . وبالنسبة للمالم النفسي المشكلة ليست فقط الماذة ينخرط البعض فى النشاط السياسي وإنما

G. Bernelough, : An Introduction to contemporary History, Watts, 1954. ( ).)

أيضاً تحديد لماذا يتخد هذا النشاط هذا الشكل ، لماذا يمثل البعض إلى أن يكون عافظاً والبعض الآخر متعلمظاً sadical وإنى أستعمل هذه الكلمات بمتاها الحرق أكثر من معناها السياسية ، للذا فإنه في بعض الآخراب السياسية نجد بعض الأفراد أكثر جسارة من المتوسط ويكون فكرهم أكثر ميلا للمقامرة . . . الخ هذا المقسم الحاف إلى يسار ووسط ويمين يوجد داخل كل الأحزاب . وتستطيع الماكسية أن تفسر لماذا ينضم البعض للحزب المافظ أو الحر أو الشيومي لممالح اقتصادية بصفة عامة تستطيع أن تتحرى عن صلاقة الوضع الاجراص لأي شخص واختياره لحزب . ولكن السؤال يظل مطروحاً لماذا يظهر الشخص سيولا نحو السار أو نحو الهين أو نحو الوسط ؟

أجرى بحث هام ابتداء من هذه المشكلة إذ دافع الأستاذ إيزلك فى دراسته لعلم نفس السياسات (The psychology of political) ( هن فكرة قياس التطرف المتحفظ فى تكوين الشخصية ) وقد استعمل تكنيكا فى التحقيق لتحديد أي الأفكار تعد قاسم مشركا بين من يعضدون حزباً أو آخر من الأحزاب السياسية الحامة ووجد أكناراً مشركة تدل على أن المتطرفين بميلون أكثر إلى تسهيل إجرامات الطلاق والماملة الرقيقة للمجرمين والتعلم الأحمر تحرزاً . . إلخ . فى حين بميل الخافظون إلى الاعتقاد بأن العقاب بالسوط يفيد فى منم الجريمة وأن الشعوب الملونة أدفى من الشعوب الميفناء وأن الحرب نشاط طبيعى . . . إلخ . لا شك أن هذه الأفكار ظهرت بوضوح فى حزب سيامى أكثر منها فى حزب آخر غير أنها برخم ذلك نقابل فها كلها

وهناك أبحاث أخرى تجعلنا نفكر أن الأفراد الذين يلعبونا دوراً إيجابياً ونشاطاً في السياسة كافوا أقل سعادة في طفولهم ، ولديهم شعور بأجم كافوا مهماين من الوالدين أكثر من أولئك الذين يغدون غير إيجابيين نسبياً . وهم يميلون إلى إنماء ما يسميه الفرويديون ثورة الأنا الأعلى والبحث عن مهرب للعداوة المكبوتة في الحياة السياسية .

له هل من الممكن أعلاج هذه الحال ؟ إن الإجابة ليست سهلة المثال.. ولكني:

<sup>(1)</sup> إيزاك أستاذ علم الناس الإكاريكي مجاسة لندن مفهور منهجه أن دراسة أبعاد الشخصية في ميدانى المرض والسواق بواسلة التعطيل العامل وهو منهج يستخدم الإحصاء والاحتيمان.

أحرف فقط أنه في الآيام التي تجتازها والتي يتقل فيها على كاهلنا النهديد بالتندمير النورى ، يجب أن نعش على طريقة أعرى الاختيار قادتنا السياسيين : محن تمبل إلى اختياره من بين أرثتك المدين يرتمون لكي يقع عليهم الاختيار ، بمنح السلطة لمن يشهونها .

لقد رأى أفلاطين عطر هذا الوضع ، ولكننا لم نستطع بعد إدراكه فيجمعنا نجتمع يتطوع فيه الشخص غير المناسب وتقدم إليه المراكز التي تتضمن أكبر قدر من المسؤليات . ولكن كل ما نأمله هو أن تشجع المراكز الحطرة التي يضعنا فيها قادتنا السياسيون من وقت الآخر تشجع من الآن فصاحداً أولئك الذين يتمتعون بقدر أكبر من النضج والحكمة إلى التغلب على الميترازم من السياسة وتدهمهم إلى لعب دور أكثر إنجابية في حياة الجماعة .

ويبق سؤال يجب أن نطرحه: ما هي الغوامل التي تسمح السياسيين بالحصول على إذعان عندما يطالمين بقيادة أمة .

رأينا أن أحد الموامل هو الطاقة الأهلى التي يمتازون بها عن ساتر مواطنهم لأن حيازة السلطة جمهم أكثر نما تهم غيرهم . ومع ذلك فهم لا يصلون أبداً لمى فرض سيطرة على حقول مواطنهم ، وتلهمب جههدهم في الدعاية هباه إلى فرض سيطرة على حقول مواطنهم ، وتلهم . وستعمل الشعارات باعتبارها محجمة سياسية ، وهي وسيلة للتعبير لا تثير إلا الحد الأحنى من النقد . وقد كان والتر ليبمان Waiter lippmann أول من استعمل هذا الاصطلاح و الشعارات ، ليكيف الحديث عن جماعات كاملة من أشخاص وعن تعليق بطاقة عليم عملهم على سخرية شديدة . فالتكلم عن كل الإيطاليين ، مثلا ، باعتبارهم أجانب يعنى تعليق بطاقة عليم واستخدام لافتة فها معنى السب . وبالمثل فإن الملونين نرح ، والمهود يشهبون بالكاريكاتير المكرد الشيلوك . هذه الطريقة في التفكير مصطبقة بالوم ه بالفكر المسبق المتوارث ، عن الشيء تبدو من ورأتها معتقدات عاطفية شديدة القية لا صلة لها بالواقع إن من يحمل الأفكار المتوارثة ويتكلم عاطفية شديدة القية لا صلة لها إلواقع إن من يحمل الأفكار المتوارثة ويتكلم بمعتقدات المدفقة المي تشعب لحاجة داخلية ملحة . وهي ميكانيكيات للدفاع ضد

مخاوفه وقلقه الى تمتد جلورها إلى الطفولة .

وقد أثبت بحث الأسباب النفسية للأفكار العنصرية الخاطئة المتوارلة صحة وجهة النظر هذه . صحيح أن السوامل الاقتضادية تلعب دوراً غير أنها تحوك أكثر من كوبها ثثير شعوراً بالعدارة يظهر في المواقف المعادية للسود والبود . وقد أوضح تحقيق هام أحرى في المواقف المعادية السود والبود الله المنايات كانوا في مجموعهم أبناء لآباء مسيطرين يفرضون نظاماً صارماً ويتطلبون طابق عياء . واستعمل هذا التحقيق منج تدرج المواقف الذي كان يطلب فيه من الأشخاص الإشارة إلى دربجة أتعام أو عدم اتفاقهم عن طريق عدد معين من التأكيدات وهكذا فإنه في أحد الاستجوابات عن الشخصية في يعملق بالعداء السامية استخلص التأكيد الآلى : و حي يمكن الاحتفاظ لحي سكني بطابع بسيح يحسن منع المهود من السكني فيه » . وقد أثبت تحليل لاحق للأشخاص الذين يضمرون هذا المداد أنهم يكتون عداء شديداً لآبائهم . ولذا فإن غير هدف صيد السياسين غير ذي الضمير في يومنا هو مشكلة الأجناس الملونة .

أصبح اليوم اللجود إلى أشكال الشكير العلفلية وعادلة استغلال الخوف والقلق لا جداب الإذعان لحزب سياس من الإجراءات الفضلة . فكير من وكالات الإعلان وهيئات العلاقات العامة الى تعلمت من فرويد شيئاً من البناء الأسامي النفسية الإنسانية ، يستغلين هذه المعرفة المحصول على إذعان الصالح ميرهم السياسية . ونما تكنيك حديث قوامه التقاط الخاوف ، والآمال ، وقال الناس واستغلافا ، في البداية لبيع البضائع ثم أصبحت الآن تستغل لإطلاق أثننا من الولايات المتحدة حيث جسدها أساساً الذكتور أرست ديستر . وتند كان يستخدم طلماء فعسائيون التحري عن مواطن ضعف الناس ، قلقهم ، وترددهم ، أماتهم والمام اللاشعورية ، بهلف تنظم الحملات دعاية للبيع مرتكزة على هذه الموامل . وهناك تقنيات متفنة علمياً المسح لمتخصصين خبراء ، عادة علماء فقس ، باستكشاف العمليات العقلية الى تم خارج الشعور . يدهى علماء فقس ، باستكشاف العمليات العقلية الى تم خارج الشعور . يدهى علماء فقس ، باستكشاف العمليات العقلية الى تم خارج الشعور . يدهى علماء فقس ، باستكشاف العمليات العقلية الى تم خارج الشعور . يدهى

الإفضاء إلى الفرد إلى محلل ماهر بشكوكه. وقلقه الشخصي. ويستطيع المحلل بناء على هذا القراح وسائل تسمح بإجراء مناورات على هذه المشاعر لصالح الإنتاج الذي سيتزل في السوق.

وفى كتابه عن و أستراتيجية الرضات The Strategy of Desire الرضاعية المتكفاف المستبلك ، يوضع المتكور ديشتركيف يمكن أن تستخدم الأفكار الفرويدية بمهارة : و خلال إحدى السنوات خرجت إحدى موديلات العربات بمقدمة مستديرة ، وأحرزت فشلا كاملا . ولفترة طويلة ساد الاعتقاد بأن الفشل راجع لأسباب فنية بمعية . ولكن في الواقع الذي صدت هو أن صائع المربات لم يأخذ في الحسبان أحد الموامل اللامعقولة القصيقة بطبيعة الإنسان : المربات لم يأخذ في الحسبان أحد الموامل اللامعقولة القصيقة بطبيعة الإنسان : المربات لم يأخذ في الحسبان أحد الموامل اللامعقولة القصيقة بطبيعة الإنسان : السيارة رمز السرعة وألقوة ولها قرة فوق ذلك من وجهة النظر النفسية معى غاية في الأهمية باعتبارها رمزاً القضيف . ولذا فإن الموديل ذا المقدمة المستديرة الذي المرب هذا الموضى والتميير بلغة التحليل النفسي بدأ لم أن هذا الموذيل تتضمه القوة والقدوة على الاختراق » .

وينهى الدكتور دبشر إلى أنه: و من الأهمية بمكان أن الشخص الذي يكون من طبيعة عمله إقناع الغير يجب أن يعرف هذه الحاصية فى الطبيعة الإنسانية ، وإلا فن المؤكد أنه سيرتك أخطاء جسيمة » .

هذا الاستغلال لآمال وقلق الجمهور الذي يستخدم الأبحاث والاكتشافات القرويدية ثم ينقله إلى ميدان السياسية، فيعامل الجمهور الذي سيصبوت كما لوكان سوقاً يجب إنماؤها لنباع لها سلعة . ويتم الاختيار بين الأحزاب السياسية كما تشرحه جريدة ما تماماً كما يحدث عند اختيار منظفات منتافسة والذي يهم أولا وقبل في مدّليس سياسة الحزب وإنما الصلمة العاطفية آل يحدثها القادة السياسيون . يزين القادئة السياسيون للظهور في التليفزيون وتقدم سياستهم بنفس مهارة حملات اليم

يمكن أن نرد على ذلك بأنه لا بأس من تقدم السياسة بأكثر الطرق جاذبية أو من تجميل القادة للظهور في التليفزيين وإن هذا لا يعدو أن يكون وسيلة التصيير، وسيلة تمثل الحزب وتربطه بحاجات عاطفية عميقة وإنه إذا كانت سياسة هذا الحزب طبية فلا ضير في أن يلتي إذعاناً فكريًّا وعاطفيًّا في آن واحد من الحمد و .

طبيعى أن الُـطـر يكمن فى المحاولة المستمرة لتقديم ضرورات اللـحاية قبل الاميام باخيار القادة وأهداف الحزب .

وإلى حد يعيد فإن العلاج يكون في إنماء الرأى الناضج وخاسة النقد لدى الجمهور فلا تفوته الأهداف السياسية الأساسية . وهذا يصل بنا إلى مشكلة ألد مة .

للتربية هدف مزدوج: فهى فى المقام الأول ترى إلى إعطاء الشباب معاوف ومعلومات عن عدد كبير من الموضوعات، بأمل أن تستخدم هذه المعارف والمعلومات من الناحية العملية أو لآجا تقدم فقاقة أساسية تنفعهم فيا بعد. وفي المقام الثانى ترى التربية إلى إذكاء قدرة التفكير بطريقة في القدة لدى الطفل ، وعدام البرب من المسئوليات ، وبعبارة أخرى تعليمه التعمرف كيالم ناضج وسعدين . وعن هذا المدف الثانى سأنكلم هنا مع أن الأول ليس منفصلا عنه تماماً ، إن الأطفال اللدين تعلموا كيف يستخدمون فكرهم الناقد والدين تعودوا محمل المسئوليات يكونون أقدر عادة على السيطرة على الأوجه الروينية للتربية .

هل تستطيع أن نقول إن نظامنا في الربية ناجع في أداء مهمته ؟ إذا أحدانا المقامات الأفراد بعد تركهم المدرسة كمياز ، والحبج إلى تقنعهم لتبيى موقف مياسي أو دبيى أو اجماعي ، ونجاح الجرائد الشعبية والدعايات التي توجه الجماهير ومتوسط مستوى البرامج التليفزيوئية ؛ فلا مفر من أن تعرف أن مستوى التفكير الناء منخفض إلى حد كبير

أعتقد أن أحد الأسباب الهامة وراء هذا الوضع أن الظروف المادية التي تؤدى

قها مهمة التربية يصعب معها إقامة الملاقة بين الأستاذا والأطفال على أساس المراقة من السلطة من جانب الأستاذ والحضوع من جانب الطلبة قالفصول فى المدارس سيئة الإعداد وبمتلة إلى حد يصعب معه إتاحة حربة الحركة للطفل والتنجة الحسية لذلك هي أن العلاقة بين الأستاذ والطفل تذكرنا بعلاقة الأب الطفل في القرن الماضي ، عندما كان لا يسمح للطفل بالكلام الارعندما كان يطلب منه ذلك وكانت كلمة الآباء هي الكلمة العليا . صحيح أن كثيراً من الأسائدة يبدلون كل ما في وسعهم لتحظي الصعوبات المتعلقة بضيق من الأسائدة يبدلون كل ما في وسعهم لتحظي الصعوبات المتعلقة بضيق ولكن في المؤت الحاضر خالبا ما يكون معيار الفصل الطيب هو أن يكون فصلا ساكنا ؛ لا يقطع سكونه إلا صوت الأستاذ والإجابات عن أسئلته . كثير من الأسائدة لا يعدون أب يكونوا ملاحظين يراقبون ثلاثين أو أربعين حيواناً صغيراً يعيشون عيشة طيبة ويجلسون في مكان غير مربح .

هذه الصعوبات المتعلقة بوضع المدارس تؤثر بالضرورة على موقف الأستاذ الحال سلوك تلابيله . إذ يميل الأستاذ إلى اعتبار السلوك المجبر عن الثورة على سلطته مشكلة كبرى ، في حين أن المشكلة الأشدي عطورة من المالناحية النفسية تأتى من تقييمه المشاكل . وقد أوضحت هذه النقطة مقارنة هامة تمت في أمريكا بين الدرجات التي يضعها الأساتلة والدرجات التي يضعها أعضاء حيادات توجيه الأطفال . فقد طلب من ٥٠٠ أستاذ يكونون مجموع أعضاء جهاز التعليم في ١٣ مدرسة أولية بولايات تيويوك ، نيرجرمي ، وأوهيو ، وبينسوتا لتقييم الأهمية النسبية الحسين مشكلة من مشاكل السلوك وقورات تقديراتهم بتقديرات ثلاثين طبيباً وقد ورد في التقرير مايلي : 3 الفارق البين بين تقديرات الأساتلة وانفسين يبدو في تقييمهم المشاكل المتعلقة بانسحاب الشخصية ، وبالتقهقر وبعض مظاهر السلوك . فعلي جين يعد الأساتلة من بين المشاكل الأهل أهمية تلك المتعلقة بالمسجل ، وبالمساسية ، وبانعدام الروح الإحتاصية ، وبالقاتي ، وبالمال إلى الشرود ، يضع النصائيون هذه المشاكل في الاتعارة وعلى الاتعالم والدلالها على انعدام السعادة وعلى وأس القائمة باعدام السعادة وعلى وأس القائمة باعدام السعادة وعلى والمساسية ، وبالقاتما السعادة وعلى وأس القائمة باعدام السعادة وعلى والساسة على انعدام السعادة وعلى والساسة المسادي المسادة وعلى والساسة المسادة وعلى وأس القائمة باعدام السعادة وعلى وأسد المسادة وعلى وأسبه المسادة وعلى وأسبه المسادة وعلى وأسبه المسادة وعلى المسادة وعلى وأسبه المسادة وعلى وأسبه المسادة وعلى وأسبه المسادة وعلى المسادق والمسادة وعلى المسادق والمسادة وعلى المسادق والمسادة وعلى المسادق والمسادة والمسادة والمسادة والمسادة والمسادة والمسادق والمسادق والمسادق والمسادة والمسادق والمسادة والمسادة والمسادة والمسادق والمسادة والمسادة والمسادق والمسادة والم

الأنبيار وعلى سبولة تنبيط ألهبة وعلى الضغينة وعلى القابلية التأثر بسرعة وعلى ميل إلى انتقاد كل شيء . . . أما مظاهر السلوك المبرة عن الثورة ضد السلطة والتحدين والعصيان وعدم العلاءة التي يعدها الإساتلة شديدة الحطورة فتأتى في تهاية قائمة النفساليين (1) .

وسبب هذا الاختلاف أن الاستاذ برت دور الآباء نفسيًا، ولكنه ملزم بلعب هذا الدور بطريقة أكثر تسوة وإن كان ذلك على حكس ما يرغب عادة تتاح للعلفل فرصة التطور والصير من نفسه بحرية في بيته أكثر بما يتاح له في المدرسة ، فالحرية في بيته أكثر بما يتاح له في المدرسة ، بالمخطص من نشاط مكبوت . وما عليكم إلا أن تراقبوا التناقض بين الأطفال بالمخطص من نشاط مكبوت . وما عليكم إلا أن تراقبوا التناقض بين الأطفال يجرون عادة في كل الاتجاهات وهم يصريحون ويصيحون ، مثل الحيوانات الي نخوب عادة في كل الاتجاهات وهم يصريحون ويصيحون ، مثل الحيوانات الي يظهرون نفس الحيوية ونفس الشاط ولكن يبدو في فهيم تحكم وتوازن أكثر . ينظيرون نفس الحيوية ونفس الشاط ولكن يبدو في فهيم تحكم وتوازن أكثر . فالملاسة ، ذلك المكان الذي يجب أن يتعلم فيه الطفل أساساً كيف يمارس حياة أكثر دية وأكثر ديةواطية ، تبدو أشبه بأوتواطية شديدة متدرجة من أعلى المفل . وهو وضع يتمني كثير من الأساتذة نجنه ولكهم يمجزون لتخطف ظروف الدربية .

نتيجة لكل هذا تنمو لذى الطفل طاحة سلبية السلطة ، يستمر فى إظهارها فى المجتمع بعد أن يترك المدرسة . ينتظر منه أن يتقبل العادات وأن يتلاءم معها وأن يطيع دون أن يرجه الكثير من الأسئلة .

وتستطيع النظرية الفرويدية أن تثيرنا في يتعلق بالعوامل النفسية التي تقود إلى هذا الموقف المستكين السلمي . ما هو الترجيه الذي ترشدنا إليه حتى نستطيع إنحاء شخصيات بالفة ناضجة قادزة على الانتقاد ومعتدة بنفسها ؟ ماذا يستطيع نظامنا في التربية أن يتعلم من النظرية الفرويدية .

E.W. Wickman, Teachers and behaviour problems, The Common — Wealth (1)
find, New York, 1954

هنا تلتي ، على ما أرى ، النظريات بالتحقيقات التفسية العامة عن طريقة التعليم . إن قطاعاً كبيراً من الفكر التحليلي التفسى المتعلق بسير التربية يوافق عليه علماء الفض وكذاك أغلب المفكرين العلميين المهتمين بإنماء المطفل . ويكفى أن نرجع المالقاءات التي تمتالبحث هذا الموضوع ، في جنيف عام ١٩٥٦ بين جماعة لتتحقق من هذاه المعامة العالمية . (١٩٥٦ من الدارسين من منظمة الصبحة العالمية . ١٩٥٦ المسيطر الذي استخلص من هذه المناقشات هو أن الأطفال ليسوا مجرد بالغين في طور الإعداد — إن البالغ ليس طفلا قد كبر — ولكن لكل حاجاته التي يجب أن تفهم إذا أردنا أن يكون أن يحمور ونيلور تربية تقابل هذه المستو بات ، ليس فقط على الصعيد الفكري وإنا أيضاً على الصعيد الفكري

يذهب علماء النفس الذين درسوا عملية اكتماب المعارف إلى أن الربية تعنى إلى حد كبير توفير الظروف الملائمة للطفل الى تسمح له بتنمية قدراته الطبيعية . وبهذا يصبح الأستاذ ، بتقديمه حافراً الرفية فى النملم ، يصبح جزءاً من الظروف الى تسمح باكتماب المعارف . وقد أوضحوا لدى الطفل عملية متسلملة النمو بيدو أنها تتطلب قدراً أهنى من الحافر الخارجى ، عملية تسمى على التضج : فقد أظهرت الأبحاث أن القدرة على التعلم تعتمد إلى حد كبير على مستوى النفسج ويلده الوضحافيا يتعانى بتعقد الحركات اللازمة المدشى، فكثير من الآباء اليقظين يحاولون تعلم أبنائهم المشى من وقت مبكرجداً، ولكن سواء خاولنا تعليمهم المشى فى وقت مبكرام الإفران الأطفال يشون عاهد فى نفس السن فى حوالى الشهر الخامس عشر . ويبدو هذا حتى فى الجماعات التي تحمل فها الأمهات أطفافن على ظهورهن إلى السن الى يستطيع فها الطفل أن يخطو خطواته الأولى . يشمى الطفل عندما يبلغ مستوى مغيناً من الغو العضل والتنسيق ، ورنما أدت يمثي الطفل عندما يبلغ مستوى مغيناً من الغو العضل والتنسيق ، ورنما أدت عاولات تشجيع الطفل على المشى قبل أن يكون مستعداً إلى الإضرار به . ويعدن عاولات تشجيع الطفل على المشى قبل أن يكون مستعداً إلى الإضرار به . ويعدن

Comptes rendus publics on 4 Volume sous titre de Discussions on Child (1) divelopment, Tavistock Publications, 1960.

هذا على الكثير من العوامل ، كما تشهد بذلك كثير من التجاوب الواضحة . فقلا ربما ولدت لذى الطفل عاولة تعليمه فى وقت مبكر شعوراً بالاشمتزاز والتقلق ربما لا تفارقه أبداً لأن الصعوبات الى تقابله فى كفاحه الأولى مع المؤسوع يمكن أن تلازمه طيلة حياته . ولذا يلهب بعض علماء التربية المستنبرين إلى أن تعلم بعض الموفرهات الطفل يجب أن يتناسب مع مستوى نضيجه ، وهذا المستوى ليس من السهل تحديد لأنه يختلف من طفل لآخر .

وهناك وسائل تعليم حديثة ، ترى إلى كمال نشاط الأستاذ ، مثل الآلات الثابتة هدفها إنماء المشاركة الإيمابية للطفل فى نفس الوقت الذى يكتسب فيه المارف . يمكن أن نقول عها بحق إنها آلات التعليم ، لأنها تسمح للطفل بمراقبة تقدمه وتصحيح أعطائه بنفسه . وبهلم الطريقة ، بمحافاة العملية الطبيعية الى يتعلم الطفل بواسطتها القيام بكثير من الأعمال ، تنمو قدرته على تصحيح نفسه . فثلا ، عندما يتعلم الطفل المشى تتدخل ميكانيكية ثانية للضبط وإعادة الضبط عندى إلى أن يصحيح الفسط .

هذه الطريقة في مواجهة التربية ابتداء من دواسة ما يحدث في أثناء التعلم والبحث عن وسائل لتنصين الموقف باستثارة مشاركة إيجابية ، تتفتى مع النظرية المائحية الدامة فالمازكسي يقول طبيعي أن التربية في مجتمع الطبقات تميل إلى أن تكون موجهة حتى إن ما يقوله هذا المجتمع يقبل بطريقة سلبية . ومع ذلك فإنه ما كان ليعارض في تحسين التربية سواء تحسين الظروف الاجهامية بصفة عامة أو تحسين التربوية في المدارس .

أعتقد أن هذا صحيح في خطوطه العريضة . فتحسين الظروف الاجماعة والتكنيكات التربوية لا يؤدى في الواقع إلا إلى ظروف ملائمة يمكن أن تنمو وتنفيح فيها الحياة الفكرية والعاطفية للطفل، فن الناحية الفكرية رأينا أنه يجب ألا نفيم الطفل في مركز لم يعد له بعد . وكذلك الأمر فيا يتعلق بتطوره العاطفي فكما أن الطفل الذي يواجه شكلة خقلية لم يم بعد استعداده لمواجهها يمكن أن تنمو معه صعوبة متعلقة بهده المشكلة كذلك الطفل الذي يواجه في وقت مبده المشكلة كذلك الطفل الذي يواجه في وقت مبد مبدر جدًا مشكلة عاطفية يمكن أن يكون عرضة لصعوبات تدوم وقتا طويلا .

تقدم النظرية الفرويدية إطارًا ممتازًا لمثل هذا البحث إذ توضح أن ثمة مستويات فى نمو الحياة العالطفية بمكن مقابلتها بالمستويات النى وصفها الاستاذ بياجى فى نظرته عن الحياة الفكرية(١)

فن وجهة النظر الفرويدية تعد مشكلة التعلم إلى حد كبير مشكلة التوازن بين متطلبات الآنا الأدنى والواقع . وتوضح الفرويدية ضرورة الحد من الفلق النابع من أنا أعلى شديد القسوة ، وتقوية الآنا في أدائه لوظائفه في التفكير . فعلى أرض الحياة اليومية تناهض الفرويدية نظام الدراسة شديد القسوة والقيود العمارمة على حرية الحركة والتفكير لدى الأطفال لأن هذه المناصر تكبل ثمو فدرات التفكير والنقد عند الطفل . ولا يعنى هذا أن النظرية الفرويدية تنادى بحرية التغيير المطلقة وبرفع كل ردع . أنها تطالب بهمكانيات أكبر للتعبير عن الحاجات العاطفية وبرفع كل ردع . أنها تطالب بهمكانيات أكبر غلوج مقبولة من وجهة نظر المجتمع .

الشكل الأساسي لتظام المدرسة في هذه الأيام ، هو إلى حد بعيد النظام المدي يفرضه الأستاذ. ولا يغير تطبيق هذا النظام في الظاهر كثيراً من المشاكل في المدارس الابتدائية . فالأطفال ما زالوا صغاراً والمدرس بالنسبة إليهم كبيرجداً اوالثاميذ المارقون يمكن عزم عن بقية الفصل وتوقيع المقاب عليهم . ولكن عندما يكبر الأطفال يمسبح تطبيق النظام أكثر صعوبة . كان المروض أن الحاجة للنظام تقمل كلما كبر الأطفال لكن جميع من اشتغلوا بتعليم أطفال يزيد همرهم عن اما عمرة العمل في جومن الحرية . فل كان ينقصهم في السنوات الأولى هو فرصة العمل في جومن الحرية . فلو كان الأطفال منذ البداية اعتادوا العمل بقدر أقل من السلطة لكانوا اكتسبوا عادة تنظيم أفضهم واقلت مشاكل النظام بقدر أقل من السلطة لكانوا اكتسبوا عادة تنظيم أفضهم واقلت مشاكل النظام بقدر أقل من السلطة لكانوا اكتسبوا عادة تنظيم أفضهم واقلت مشاكل النظام

<sup>(</sup>١) الأحداذ بياجى Yangut عام يعدد من الدراسات اللاسة من العادرات الفكرية العقل . فهو يصدد بصفة إجمالية الاقد مستويات المسره المستهى الأول الحرك الإحساس genears-halotous حتى السنة الثانية تقريباً يعدر خلاصًا الدريجياً تسبي الحركات العصبية الإنسكاسية فيها يتمثل بالإحساس بالأشهاد والمستهى الثانية بن الثانية إلى الحادية حرية يرتبط فيه تذكير الطفل التباطأ شديداً بما هو ظاهر أمامه وبيداً في الارتفاع إلى مستهى من الشاكير أكثر تجرداً وأكثر مما أرواتان الصفتان مميان المرسلة المفاهدة

والترثيب التي يتعرضون لها عندما يكبرون .

هذا هو ما تقترحه النظرية الفرويدية : من الفسروري تيلير الإمكانيات ثلاثا لينمو ويقرى نفسه لأن فرض نظام صارم يعرق تموالنظام الشخصى . إن النظر إلى الطاعة باعتبارها فضيلة يعنى هدم أسس الاستقلال الشخصى .

إن أحد أهداف البربية هو إنماء الأحكام ذات القيمة لدى الطفل ، وهى علية تعتمد اعياداً كبيراً على القواعد التي يقبلها المجتمع والأهداف التي حددها بنفسه . فالقيم التي تلقن للطفل لكي يجترمها يمكن أن تلاخل في صراع عديف مع القيم السائلة في الهتمع . فن الحائز أن نعام الطفل أنه من المستحب التعاون ، وأن المصلحة الشخصية التي تتعارض مع مصالح الجماعة يجب التحلي عيها ، وأن خدمة الهموع أفضل من السمى وراء الروق . ثم يلمح في النهاية أن هناك صلماً للقيم عنطقاً ومناقضاً لكل هذا يسيطر على المجتمع في الناية أن هناك وكلك السمى وراء الراء الشخصي ، والحال هو معيار النجاح والاحرام ، حتى المدينة بسخام المقيد و والدى بالتجاح هو اللي يكتب النقود . وتعد النفرد في حياة الناس قوة قاهرة ، يستمر المليونير في الكفاح لكسب مليون آخر . ترمز عملية التخلص من الفضلات عند فرويد إلى النقود ولا يمكنا إلا التسليم بأن فكرة التقريب بين الرأميالية والمرحلة السادية الشرحية الشروعة الشروعة المدو الاحرام عيد .

تقود مشكلة التربية إلى مشكلة الانتقال من الطفولة إلى سن البلوغ . أعتقد أن النظريات الماركسية والفرويدية يمكن أن ترشدنا عند دراسة هذه المشكلة ، وتساعدنا على معرفة العوامل الانتصادية والنفسية التي تميز هذا الانتقال .

المراهق لا يتعلق بالطفولة ولا بسن البلوغ . هي أو هو (المراهق) يرقفع من وضع الحضوع للأبوين والأساتلة إلى وضع يكون فيه ملزماً بأن يخلق لنفسه مكاناً في المجتمع باعتباره بالغام حراً لا يعتمد إلا على نفسه، مثل هذه الفكرة الانتقالية تثير كثيراً من المشاكل خاصة في حضارتنا الغربية ، طبيعي أن ظهور هذه المشكلة ليس مقصوراً على مجتمعنا الحديث ، لأن كل مجتمع يجب أن يحل هذه المشكلة ليس مقصوراً على مجتمعنا الحديث ، لأن كل مجتمع يجب أن يحل هذه المشكلة المتعادى والاجياعي

المعقد يجعل هذا المرور أكثر صعوبة .

ف قبمتم متخلف نسبياً يأخد البنات والأولاد مكانهم في المجتمع مباشرة بعد أن يصبحوا جسيانياً قادرين على ذلك . عندما يصبح الولد قوياً جسيانياً لل حد يستطيع معه عمارسة أنشطة المحامقة بالصيد ، أو الزراعة ، وعندما تصبح الفتاة قادرة جسيانياً على وضع الأطفال فإنهم يقبلون المشاركة كلية في حياة الجماعة عن طزيق مراسم إدخالم فيها . وفي أهلب الأحوال ، يتفقى إدخال الطفال وقبوله لتحمل مسئولية البالفين مع صلاحيته الحسيانية المشاركة في هذه الحياة . أي أنه عندما يصبح الطفل مستعداً بيولوجيًّا ليميش حياة البالغ فإنه يكون تلقائيًّا مستعداً ليميش كللك حياة اجهاعية .

أما فى مجتمعنا فإن الوصول إلى الاستعداد البيولوجى لممارسة حياة البلوغ لا يعد شرطاً كافياً ليصبح الشاب أو الشابة قادرين على احتلال مكان باعتبارها بالغين مستقلين . فيثلا ، برغم أن الفتاة تصبح قادرة على الإنجاب ابتداء من سن الثاقة عكرة وأحياناً قبل ذلك فإن مجتمعنا لا يعدها مستعدة قبل فوات فقت طويل لأن تتحمل صبء الاهمام بأسرة . وبالمثل فإن كسب الميش أصبح من التعقيد إلى درجة أن الكثير من المراكز تتقللب مستوى علمياً وتكوينا يعد كثيراً عن سن النضوج البيولوجي . هناك إذن درجة يمب تخطها بين القدرة البيولوجي . هناك إذن درجة يمب تخطها بين القدرة البيولوجي التصرف كالم أن المراكزيات التي يقدمها المجتمع التصرف على هذا النحو ، وهي درجة يجتمعنا المقدد ، ترجد وقم ، باختصار ، إن وراء مشكلة المراهقة كما تظهر في يزداد حجمها يوماً بعد يوم ، باختصار ، إن وراء مشكلة المراهقة كما تظهر في عندين المقدد ، ترجد وقعة بسيطة مؤداها أن المراهقين لا ينظر إلمهم باعتبارهم قادرين اجهاعياً على القيام بأهياء يكونون في الواقع معدين للقيام بها من وجهة النظر البيولوجية .

وهده بشكلة في ذاتها خطيرة . ويزيد من خطورتها الجهل البادى من جانب ألهلب البالفين بطبيعة مشاكل المرافقة . إذ تطرأ على المراهق تغيرات فسيوليجية دقيقة تولد متطلبات ملحة وتحدث تعديلات غلدية تزيد سرعة نجوه وتكسو بدنه . ومن وجهة النظر اليوليجية يلح الجسم في طلب أمور يأباها عليه المجتمع . وبوجه خاص يطلب المجتمع إلغاء الإلحاحات الجنسية . ويحيط هذا الموضوع بتحريمات وموانع . ويغدو المراهق الذي أصبح يعى إلحاحات جسمه الجديدة ـــ التى لا يفهمها والتي يطلب منه التحكم فيها ــ يغدو صعباً ويستشعر سطية البالغين .

وتظهر تغيرات نفسية هامة مربطة بهده التغيرات الحسائية . إذ يشعر المرافق أكثر بنفسه وبجسده ويتساءل . وهنا يشتد الصراع مع البالغين لأن الآباء يوفضون غالباً الاعتراف بأن المراهق الذي يكبر له خاجاته الحاصمة ويستمرون في معاملته كما لو كان طفلايت حد عليه م ويتساطرون منه خضوعاً كخضوع الأطفال . ويبلو أنهم لا يستشفون الحساسية التي تصاحب نمو المراهق والسهولة التي يمكن بها أن نجرح كرامته . فالمراهق بتنا أو ولدا ، الذي يتألم من أن أحدا لا يفهمه يميل له الرئاء لحاله والحلم بالانتقام . ويبدو البالفون كما لو كانوا قد نسوا شبابهم ويفسر الفرويديون ذلك بأنهم كتبوا ذكريات مؤلة وأنهم يعاقبون أبناءهم عن أعطاء آبائهم هم .

فيتجه المراهقين إلى أمثاثم باحين عن أن يفهمهم أحد وعن الأمان . يكونون شلا وجماعات تجل على الملاقات الماثلية وبهي لم شموراً بالانباء . هذه الحماعات لها مذاهب خاصة في طريقة اللبس ، وقص الشعر والسلوك بصفة عامة ، وهذه المذاهب ربما بلت للبالغين سخيفة وخالية من المنطق ولكنها تلمب دورا هاماً في توفير الا ستقرار لحياة المراهق . وتقبه هذه المذاهب في يعفى جوانبها المراسم التي يكون الهنف منها إبداد القلق الناشيء عن عدم الاستقرار الماطق اللدي يصانحب تموهم : فكما قررت دواسة ظهرت في مجلة لايف علنه الماطق اللدي يصانحب تموهم : فكما قررت دواسة ظهرت في مجلة لايف علنه عن سلوك الشباب الأمريكي ، عالهم هو عالم القوانين المتعددة : « قوانين عن سلوك الشبال مستقرة مادامت ذات أثر فعال ، محيث إن عائفة هذه القوانين تؤدى إلى توقيع عقوبة الفصال من الجماعة » .

تدرس مشكلة تزايد انحراف الأحداث عادة مع مشكلة المراهقة . و يعد انجرافاً من جانب الشياب كل أشكال السلوك التي لا يقبلها أولئك اللدين يفرضون القوانين في المجتمع . يقول روبن في دراسته عن الجريمة وانحزاف الأحداث . إن الانحراف هو كل ما يعتبره القانون كذلك . فهي تشمل التغيب عن المدرسة

والحفاف ، والتخريب ، وسرقة السيارات ، وفظائلة القول وأهمال العنف . ولا يمكن حصر انحراف الأحداث ولو تقريبيناً لأن الجنع تختلف في طبيعتها وصفتها بالمعوامل الاجتماعية مثل ظروف السكن والهيط الذي يعيش فيه الحدث ، وكان الانتباء مركزاً على تأثير الأسر المفككة صواء بسبب موت أحد الأبوين أو الطلاق أو الا نفصال أو السجن . . إلغ ولكن نتالج هذه الأبحاث ليست منتجة . وقد قام شو وماكبي عقارة جماعات المنحوين وغير المنحوين امنياداً على أثر الأسر المفككة ووجلوا أن 27% من المنحوين يأتون من بيوت مفككة على حين أن ٣٦٪ من مغير المنحوين يأتون من بيوت مفككة . ولكنهم مفككة على حين أن ٣٦٪ من مغير المنحوين يأتون من بيوت مفككة . ولكنهم يعيد حياة الفقل بمبورة أخطر من الانفصال الفعلى . وتشير دواسات سكوت يهدد حياة الفقل بمكون أن يلجأ إلى سلسلة من الهرب ليتغلب على القلق الذي يثيره الوضع العافل الملئ بالعمراع ، بل يمكن أن ينضم إلى جماعة من المنحوين بيمل في أغاذ الاحتياطات الى تجنبه الوقوع في يد السلطات .

ومن للحية أخرى فإن الفقر على ما يبدو يساهم فى انحراف الأحداث وإن لم يكن السبب المباشر الحاسم .

تفرق و هاربت ويلسن و في دراسها للأحداث وإهمال الطفل بين الانحراف نيجة للإهمال والأشكال الآخرى للانحراف (1). والحدث اللدى ينشأ الحرافة عن الاهمال يعيش عادة في بيت غير نظيف مع والمدين لا ينتمان بترجيهه وتكون علاقاتهما بعضهما ببعض غير ثابتة . وقد يغيش في حمى يكون إرسال جزم من الجماعة صباح السبت من كمل أسبوع لسرقة المنازل إحدى اللحيات التي يشارك فها . فاتحرافه ما هو الادفاع ضد أمرة غير سليمة . وحاجته البدائية الحصول على ما يبنى غل حياته تعلمه أن يضع يلده على كل ما يستطيع أن يحسكه أيا كان على ها الذي عشكه أيا كان على ها الشياء .

ولكن ، أيّا كانت الموامل الاجماعية يبدو أن هناك باعثاً نفسيًا هاماً هوأساس الطلب حالات انحراف الأحداث ، وهو إحساس الطلب بأن الوالدين لا يجانه وأنهما يريدان التخلص منه . وثدل الأبحاث الجيئة على أن موقف الآب هو الذي يلب دوراً أكثر أهمية . وهكا الحزن مشيل آرجيل في دراسته لحلم النفس والمشاكل الاجماعية يقول : « إن عام قبول الطلم هو أص داسته لحالا المحراف الأحداث عندما يتخلى الآب عن ابنه ، وهو حالة ، و يمكن التنبؤ بسهولة المحراف الأحداث عندما يتخلى الآب عن ابنه ، وهو حالة ، ١٠ ٪ من الأحداث من الأولاد اللكور ( تقريباً ٨ من الأولاد إلى بنت واحدة ) . فتهماً للمركز الأوديي ، تؤدى علاقاتهم بالآب إلى أمكانيات شكوك وفيزة متبادلة فضلا عن عدم اهمام من جانب الآب وهو. أمر قلما يعدث بين فتاة وأبها .

أيًّا كان الأمر ، فإن المشكلة الاجتماعية التي يثيرها المراهقين تهم العدد الكبير من الشبان اللدين لا يتحرفون ولكنهم مع ذلك يجدون أن الوسط الذي يشبون فيه غرباً ، محطماً ومثبطاً .

نقول أحياناً إن مشكلة الأحداث الحالية تحتوى على جانب خاص ، جانب يظل مرجوداً إذا أخدانا في الحسبان ميل البالغين إلى نسيان جنون شبابهم . وأيًّا كان هذا الجانب فيجب علينا أن نؤاجهه من خلال مضمون الحطر والقلق اللين يتلوان فرة الحرب . إن الفياب الحديث يتنجى إلى جيل يخرج بالكاد من أهد الحروب التى عرفها التاريخ ضراوة ، من حصر من القرضى والتقلبات لم يشهده شباب أي جيل من الأجيال السابقة . ومن ثم قال من أحد يستطيع أن يقي الصدمة التى أحداثها هذه الظروف على شباب الحيل الحالى .

ويقال أحياناً إن القوة الشرائية المترايدة لدى الشباب تساهر في تكوين مشكلة المراهقين . فالشباب اللدى يكسب قدراً من المال يقارب أجر البالغين يشمر بالأستقلال المالى . ويأتى هذا الإحساس الجديد لينقفس العقبات الى كانت تفرضها المجتمعات القديمة الى كان يسيطر علنها البالغون . فالشباب الذى يكسب إلى حد يمكنه من الاستقلال ، ومع ذلك يظلون خاضعين التقاليد وقواعد المجتمع ،

يمب أن يطيعوا آباهم، يمدون بلنك أنفسهم في مركز امتناقض في ظاهره . ويؤدى إلى تصعيد الصراع بين الأجيال ، لأن المسام بالحرية يشتد الإحساس به كلما تأكد الاستقلال المالى . ويصحب هذا الوضع اختلاف كبير بين الشباب والشيوخ . إذ يختار المراهقون بمطأ في الأزياء والمصطلحات اللغوية والسلوك يظهر بعد الشقة بيهم وبين هالم البالفين . طبيعي أن الاتجاه وجد داماً ، ولكن يبدو أنه وصل اليوم إلى درجة صارعة حتى إن عالم سلوك المراهقين يكون واقعاً ثقافاً مستقلا .

ولكن مأساة الشباب الحالى هى أن ثورته قليلة الإيجابية . يعبر الشباب عن شموره ضد سيطرة البالغين بطرق متباينة لا تجر كتالا حاسماً ، فهو يستطيع أن يضجل عالم البالغين بإقامة نظام أخلانى متحرر وبيسور ، ويستطيع أن يصدمه بتصرفاته وذوقه الشاذ . ومع ذلك قلا شيء يتغير لأن هذه الأمور تبدد طاقة الثهرة .

ربما بدت هذه الصورة مبالغا فيها ، لأننا يمكن أن تستخلص برخم ذلك علامات لاتجاء أكثر إيجابية في هذه الثورة ، من الممكن ألا نعفق على أهداف حملة نزع الأسلحة النووية ومع ذك ننظر بسعة صدر التأييد الذي تلقاه لدى الشباب والذي يعد روزا للبحث عن تعير إيجابي لهذه الثورة ، وعلى التبقيض فإن أي حركة تحدد أهدافها بطريقة سلبية يمكن أن تجد صداً لذي الشباب وتؤكد بذلك هذا التحسس للبحث عن تعير إيجابي ، فيين الشباب المفكر والكتاب والفنانين والمعثاين تدمى الآن ثورة تأخذ شكل سخرية أتمية من نظامتا ومن الشخصيات الهترمة .

كيف يمكن للنظريات الفرويدية والماركسية أن تساعدنا على فهم مركز الشباب الحديث؟ تركز النظرية الفرويدية على أهمية استفرار العلاقات العائلية وثبائها. وهي توضع أن التوتر والتنافس وتعقد العلاقات العاطفية العائلية يمهد الارض لنزاع بين المراهقين والبالغين . فيبحث المراهني بين أقرائه عن الراحة والأمان اللدين لا يجدهما في أمرته . يبحث لنصه عن نظام أو شخصية وعلاقات وأى شيء لم تستطع الأسرة ولا المجتمع منحها له

أما النظرية الماركسية فترجه انتباهنا إلى العلاقة الوثيقة بين الأسرة والهيكل الاجتاحي . في مجتمع رأسالى يسيطر عدم الأمان الاقتصادى على كثير من الأحيال من فل المقتصادى على حتير من الأسرة ، والممار من أن ينظر الأباء إلى الأطفال باعتبارهم عبداً إضافياً على ميزانية الأسرة ، وباعتبارهم أفواها جديدة يجهب إطعامها . ولا شلك أن قم المجتمع الذي يقم المنجود الشردى ولا يهم بالمجهود التعاولي لا بد أن يكين لها أثر سيء على المصيطة الأسرى . أكثر من هذا يكتنا أن نقول إن مثل هذا المجتمع لايقدم الظروف الملائمة لإنماء الفهم الجبادل بين الشباب والشيوخ وبا عبل المراعات الداخلية إلى زيادة حدة الصراعات الأسرية .

المثالية تمم علينا أن نبحث عن وسائل تسمع بإقامة فرة انتقال أقل وحشية من الطفولة إلى البلوغ ، فرة انتقال ينظر خلافا إلى حاجات المراهق بعين العطم يجب علينا أن نسعى إلى الوصول إلى إلعداد أكمل لهام سن البلوغ ، بتمويد الشباب بالتدريج ولكن باستمرار على تحمل المسئوليات و بمحاولة إشعارهم أننا دائماً في صفهم . هلما الموقف المتنبر عم ، على ما أعتقد ، ثورة كاملة في أفكارنا الاجماعية والدروية والتحرر من القم التي تحكمنا اليوم .

. . .

إلى هنا تنبى دراستنا للنظريات الفرويدية والماركسية . وقد رأينا أن هلين التيارين الفكريين الأساسيين في حصرنا يصحح أحدهما الآخر إلى درجة كيرة . فالنظرية الفرويدية تجسلنا نتصور تعقد الحياة الشخصية . وترجه الماركسية التياهنا إلى العراش الاجهامية التي تمدد سلوكنا الإنساق ، ولكها تميل إلى إهمال القرين الشخصية التي تعلم اللاب المي إلى إقامة حلاقات مع وسطهم الاجهامي ، بطريقة إنهابية . إن الماركسية بالمتقارها الأضواء النظرية الفرويدية تبدو خصنة ويسمع أن نجد إيضاحاً لهاده الفكرة أفضل من النادكير بمهد ستالين في الاتحاد السويتي . لا شيء منوى الجهل التام بالمارف النفسية المتعلقة بالصفات التي يمكن أن تدفع الإنسان إلى العالم حزب ، وخاصة على حزب ورى، هي التي يمكن أن تفسر لنا تجاح ستالين في الاحتفاظ بالسلطة طيلة هذه المدة هي التي يمكن أن تفسر لنا تجاح ستالين في الاحتفاظ بالسلطة طيلة هذه المدة وهي التقطة التي ركزت عليا في محاولاتي السابقة الأحمل الماركسيين على النظر

إلى الأشياء من الزاوية الفرويدية . وقد دافعت عن فكرة أن الماركسية اللي توجه جهودها للنشاط الثوري \_ ومهما كان وضعها مبرراً خلال فارة الثورة \_ لا يمكن أن تستخدم كتبرير الإخفاء القوى القهرية الوحشية لعقل سادى(١).

فافتقار الماركسية للرقة النفسية لم بهويه الماركسيين أو تمكنهم من التكهن بمدى لتاثيج فظام كالنظام الستاليمي . إذ كان الماركسيون مبهورين منومين مغناطيسيًّا بفكرة العزم والتصميم الاجماعي للقائد ، الذي كان يعكس ويظهر اهماماً بالقوى الاجهاعية الموضوعية ولم يكونوا يرون الأفراد إلا من وجهة نظر الطبقة والمحيط الاجهاعي. وبدأ كانوا يجهلون دقائق النفسية الإنسانية والتغيرات الى يمكن أن تطرأ عليها . كون هذا الشخص أو ذاك يحتمل أن يبدو منه وجه وحش مرعب أو سادى ، حتى بطريقته الماركسية للتفكير ، لم يحطر لهم على بال . كان المهم هو أن يثبت اقتناحه بالشعور بالطبقات . ولذا فإن ماركسيًّا بريطانيًّا بارزًا . وهو الأستاذج. د. برنال كتب في دراسته عن فرويد وماركسل: ١ إن الفرد هام ، ولكن فقط طالما هو يبلور ، في أنشطة محددة ، تصميم الحزب والطبقة ويكبي أن نقارن خطاباً استالين بخطاب لهثلر لندرك الفرق الشاسع اللس يفصل هدين التفكيرين فيها يتعلق بقيادة الناس . ٤

حمّا كان تفكير كل منهما فيها يتعلق بقيادة الناس مختلفاً ، ولكن القائدين أنفسهما هل كانا مختلفين نفسيا ؟ إذا حكمنا على هذا الموضوع تبعاً للأفكار السوفيتية المعافظرة عن ستالين فإن الإنجابة تكون بالنبي .

لا شك أن ستالين كان يمكس ، نواحي متعددة، من تصميم إدارة الغمال والفلاحين الروس وأنه كان قادراً على بث العزيمة في كفاحهم وعلى قيادجم . وبريج ذلك فإن ماركسيًّا متفتحا مستنيرًا بالأفكار الفرويدية كان يشعر بالحطرالذي ينذر به قائد ثوري كان يضبي على كفاح العمال عنفاً وشراسة كانت تعبيراً عن قوى سادية داخلية لاتحتمها ولا تبيحها احتياجات الكفاح .

لا يكني أن نقيم العوامل الموضوعية التي تؤثر في القرارات الإنسانية ، خاصة

<sup>(</sup>١) اتسادية هي الرفية في تعذيب النبرق مجال العلاقات العاطفية. سميت كالمك نسبة العاركيز و توسادی.

تلك النابعة من شخصيات تحتل مراكز بارزة . فالناس تحركهم مشاعر الحب والبغض ، وعوامل صادرة عن أحداث حياتهم الشخصية . وهي خامضة ولكمها قاهرة ، ولا يمكن تضيرها بنظرية مبسطة عن السلوك الاجهامي. هذا هو ما يحب أن يتعلمه المازكسيين . ولا شلك أنه سيصعب عليم تفسير المنازعات التي نشبت في وقتنا الحال بين القادة العالمين المازكسيين إذا ما أضروا على الا عماد على العوامل الاجهامية الموضوعية وحدها . لم يحدث أبداً أن كانوا في حاجة إلى المحبورة الها اليوم .

وعلى أى حال فإن الماركسية بانتقادها الحازم الشديد لا معقولية واللاحدل الاجباعيين في زماننا ، يمكن أن تصطينا الكثير ، ولكن على الماركسية أن تثريف وتشمنى الإنسانية على انتقادها وتسمين بأضواء التظرية الفرويدية إذا كانت تريد أن تنجو من الادعاء الحازم الذي يظهرها بمظهر النظرية ضيقة الأفق وغير المحتملة والنابعة عن فكرة مبسطة السلوك متجاهلة أو جاهلة بتنوع الاحتلافات الفردية بين الرجال والنساء.

## القهرس

مغجة	•	,		
	•			تصدير بقلم الدكتور مصطنى زيور
11	٠.			مقدمة المؤلف
14"				الجزء الأول : حرض النظريات الفرويدية
10	4.5			١ – تركنب العقل
YV				٧ – النظرية الفرويدية في الحنس
£Y				: ٣ ـــ الأحلام والتحليل
01				٤ ــ السواء وألمرض في علم النفس.
٦٧				 الجزء الثانى: فرويد وماركس .
44				ه ــ مجتمعات بدائية
۸٠	. •			<ul> <li>إلى الله والأخلاق</li></ul>
. 44	•		•	∨ لم التطورالاجباعي
114				٨ للادية الديالكتيكية . "
140				٩ - بعض تطبيقات

تم إيداع منا المصنف بدار الكتب والوثائق القويمة تعت نقم ٢٢٦٨/ ١٩٧١

> مطابع دارالمارث بمصر سنة ۱۹۷۲

الماركستية والتحليل النفسي "
حداد الكتاب شرح واضع جبط القضايا الأساسية في
الفكر التحليل النفسي والفكر الماركش في عاولة
الإبراز نفط الافتهاء بيها

وهو كتاب لفيد للقاري العاهي غير المنظم من كما أنه ضووري لكل من المحلل النفسي والماركينيي . والبرغم عدم وضوح العلاقة ابن الماركية ، والتحاليل النفسي ،

قة السيطان ملك الكتاب إلى السيطان المحاصر ، رغبة فهما بحاولان فهم الإنسان والمجتمع في حصول المحاصر ، رغبة في تحرير هذا الإنسان من القوى اللامعقولة التي تكمن داخله أو تفرض نفسها من المجتمع الذي يحيط به .

